

عَبْدُكَ كُنْ

أَحَادِيث
عَنِ الْأَدَبِ الْمَغْرِبِيِّ الْحَدِيثِ



أحاديث
عن الأدب المغربي الحديث

عَبْدُ اللَّهِ كُنُونُ

أَحَادِيثُ
عَنِ الْأَدَبِ الْمَغْرِبِيِّ الْأَحَدِيثِ



32 - 34 شارع فكتور هيكو

الطابق 30.76.44 / 30.23.75

ص ب 4038 الدار البيضاء المغرب

بين يدي الكتاب

نفعات زكية من المغرب العربي

الاستاذ الدكتور اسحق موسى الحسيني

اراد الله للامة العربية أن تلتحم أجزاءها التحام أعضاء الجسم الواحد ، علاوة على الملحة الوجدانية والروحية التي وكبتها احداث التاريخ في قديمه وحديثه .

وتبدو لنا هذه الامة بصورة طائر قلبه في ارض الكفانة ، وجناحه الايمن يصل الى العراق والخليج العربي ، وجناحه الايسر يرف فوق المغرب العربي حتى يمس ماء المحيط الاطلسي .

هذا هو الوضع الطبيعي الذي باركته مشيئة الله . واذا كانت بعض الشعوب تلتقى بأدابها ولغاتها ، او تقاليدها واديانها ، او قوانينها وسلطانها ، فان الامة العربية التقت في جميع هذه الميادين . وجاءت وحدة الرقعة الجغرافية فمكنت لها وزادتها رسوخا . فالبحر الابيض المتوسط يطوق شمالي افريقيا العربي ، ويرتفع شمالا كي يربطه بالشرق العربي . وتلف الجزيرة العربية بحار صافية ابتداء من البحر الأحمر حتى اعالي الخليج العربي .

هذه الرقعة التي خلقها الله متحدة وموحدة جاءت يد الانسان الظالم الباغي فعبثت بها ، ونشرت حولها الاراجيف ، ورسمت الحدود والقيود ، حتى كاد أن ينقطع ماوصله الله ، وينهار ما أتمته الارادة الالهية . ولكن ما يحدث خلاف الطبيعة والارادة بفعل مئات السنين ينهار امام العزيمة في بضع سنوات .

وهذا ما حدث بالفعل . فبعد ان قطع المغرب العربي والشرق العربي

اجزاء لتبتلعها الانواء الكبيرة الشرهة ، وبعد ان اتيمت الحدود والحدود ،
ورسبت الخرط ، ودقت الاوتاد ، وعانت الايدي فسادا زاد على مائة
عام ، هبت العاصفة ومحت تلك الرسوم ، كما تمحو رياح الصحراء آثار
الطريق في ساعة من الزمن

وقد توصل الباغي بوسائل شتى من حديد ونار الى جبر وورق .
وكانت احدى الوسائل **التجهيل** . فما كان العربى فى المشرق يعرف عن
اخيه فى المغرب الا ما تتناقله اللسنة وكان الباغى يستعمل كل وسائل
الاعلام فى قومه حتى اصبح التاريخ الشامل الوافى مدونا باللغات
الاجنبية .

وما كادت الادارة العربية تقتلع البغى من جذورها حتى راحت الابدى
تمتد من وراء الصحارى والبحار تتصافح وتتعارف

وصدرت كتب تكشف ولاول مرة عما فى ضمير الامة العربية من
احاديث ظلت مكتومة عشرات السنين .

وحرص الشباب المستنير ان الالتقاء بعد طول الفراق لا بد من ان
يتم طال الزمن او قصر ، ولكن ثمت حواجز واباطيل لا بد من ازالتها من
دروب الاحبة . والمعرفة هى المنجل الحاد الذى يجتث الشوك .

وصدرت كتب تعرف بالاخوة من هم ، واين هم ، وماذا كانوا ، وماذا
اصبحوا ، وماذا حل بهم فى اثناء تلك الحقبة البغيضة السوداء من تاريخهم .

ومن هذه الكتب سلسلة من اميد ما اصدرته المطابع ، تعرض
تاريخ البلاد العربية من النواحي المختلفة تمهيدا للتعرف بحياتها الادبية ،
التي هى حياة وجدانها فى اصدق مظاهرها .

ومن الكتب كتاب الاستاذ الفاضل ابن عاشور عن تونس ، وعبد الله
عبد الجبار عن الجزيرة العربية ، وناصر الدين الاسد عن فلسطين
والاردن ، وجميل صليبا عن الشام ، وصلاح لبكى عن لبنان ، واخيرا
عبد الله كتون عن المغرب العربى

وهذه الكتب وضعت على وفق منهج مرسوم للتعريف بالامة العربية في جميع اقطارها . وهي اشبه بمدخل لاغنى عنه للوصول الى حديقة الادب الواسعة . وبتى تمت هذه السلسلة الذهبية — وهي تامة باذن الله — فسيكون بأيدي القراء تاريخ واف للامة العربية وادبها المعاصر ، يبنى عليه تاريخ موحد ينتظم الوجدان العربى في جميع البلدان العربية .

وكتاب الاستاذ عبد الله كنون اسمه « احاديث عن الادب المغربى الحديث » وهو محاضراته التى القاها على طلبة قسم الدراسات الادبية واللغوية في معهد الدراسات العربية العالية لجامعة الدول العربية ، اسوة بسائر الكتب التى ذكرت سابقا

ويكشف الكتاب عن حقائق كنا ندركها بقلوبنا ومشاعرنا ، دون الاسانيد والنصوص حتى جاء المؤلف فاردف كل ظاهرة ادبية ، وحقيقة تاريخية بما يجلوها عن بيان مشرق وسلد قوى .

واولى الحقائق الجديرة بالذكر ان الصلة الثقافية بين مصر والمغرب العربى لم تنتقطع حتى في الفترات المظلمة من التاريخ الحديث وان نفرا من المغاربة نهل من علم الكنانة وادبها ، وعاد الى بلده ينشر الوعى ، وقد ذكر المؤلف اثنين من امهر المتخرجين في المعاهد المصرية ابام السلطان محمد الرابع — في القرن التاسع عشر — هما الطبيب عبد السلام العلمى ، والجغرافى احمد شهبون ، « وكلاهما ممن اسهم في الحياة العلمية بالتعليم والتأليف ويعدان من الطلائع الاولى للنهضة الحديثة ، لان تعليمهما كان بالعربية » ص 17

وذكر المؤلف ان الطباعة دخلت المغرب العربى لأول مرة عن طريق مصر « فان السيد الطيب الرودانى تاضى تارودانت راها فاعجبته وكان ذهب الى الحج ، فاقضى آلتها وتعاقد مع فنى مصرى للعمل فيها ، فصحبه الى المغرب ، ولما رأى ان الدولة احق بها اهداها الى السلطان محمد الرابع فقبلها منه واكرمه بان ولاه عليها ، وشرع في طبع الكتب المهمة وخاصة الكتب الدراسية مما يستعمل في القرويين وفروعها وانتشر من الطباعة بعد ذلك وصار من عمل الافراد ، وكثرت المطبوعات

المغربية المعروفة بالفاسية ، لان المطابع التى تصدرها كان مقرها في
فاس .. « ص 14

ونكر المؤلف ان اثار النهضة الشرقية من علمية وادبية وفنية كانت
تصل الى المغرب العربى بواسطة الكتب والمجلات والصحف فتلقنها
الأيدي بتلف عظيم . ومنها آثار الشيخ محمد عبده وتلميذه رشيد رضا
واستاذهما جمال الدين الافغانى في العلم والاصلاح والمنافحة عن الاسلام ،
وآثار الكاتب مصطفى لطفى المنفلوطى ومحمد فريد وجدى واثار الشعراء
شوقي وحافظ والزهاوى والرشافى وغيرهم من اعلام الفكر والسياسة
كمصطفى كامل وسعد زغلول . « انها كانت مدرسة تخرج فيها الجيل الاول
من رجال العلم والادب والوطنية الصحيحة ، الذين يتوا افكارهم في النشء
الجديد ومهدوا السبيل للنهضة المغربية العتيقة ، فكانوا صلة الوصل بين
الماضى الغابر والحاضر الزاهر . وعن طريق هذه المدرسة عرف المغرب
اتجاهات الفكر الحديث في الفلسفة والادب واطلع على تاريخ الحضارة
وتقدم العلوم في اوربا . فانها كانت تخاطبه بلغته ، وفي الوقت نفسه تقدم
اليه احسن آثار المفكرين والادباء الغربيين مترجمة الى العربية فيطلع منها
على ما لم يتح الاطلاع عليه لانصاف المتقفين باللغة الفرنسية الذين كان
الاستعمار يحرص على ان يجعل منهم موظفين صفارا وحسب « ص 34

ورد المؤلف كذلك نشأة النمثيل في المغرب الى الفرق التمثيلية التى
كانت تفر الىه من مصر وتونس ، ص 122

وهكذا ظلت التيارات الفكرية والادبية تجوب البلدان العربية ذهابا
وايابا فوق الحدود والسدود ، والظالم غافل عنها

والحقيقة الثانية : التى يبرزها المؤلف هى تشابه العوامل والاسباب
التي ادت الى قيام النهضة الحديثة ، فقد كانت نفوس الادباء تخضع
لمؤثرات متشابهة لان وجدان الامة العربية الذى صنعه التاريخ الطويل
وتشرب المثل العربية العليا اصبح ينفعل للمؤثرات حيثما وجدت ، فالظلم
والبنى والعدوان منفرة حيثما كانت والحجر على الحرية واضطهاد العتيقة
والدس بين طبقات الامة تثير الحفيظة في كل زمان . ولذا لا يكون تشابه

الظواهر الأدبية دليلا على التقليد بل هو دليل على وجود حساسية متشابهة في أعماق النفس العربية » ومن الخطأ أن نميز عمل أى بلد عربى في هذا الصدد ، سواء اكان سابقا ام لاحقا ، لأن طابع العروبة لا يوجب الا حيث تلتقى جهود العرب كافة ولم يتحقق للنظرية الاقليمية في الادب العربى مدلول خارجى برغم ما قيل في توجيهها وللتنويه بآثارها . والذي يتحقق يوميا هو ان الادب العربى يتلاقى على صعيد الفكرة الجامعة والاتجاه الموحد ، وإن انصار الاقليمية ينهزمون دائما في ميدان الادب والسياسة على السواء ، لأن امر العرب الى وحدة وكلمتهم الى جمع والفوارق الطائفية التى توجد بين مجتمعاتهم المحلية لاتبلغ من القوة ما يجعلها تغير وجه الادب فى أى قطر عربى عما هو عليه فى قطر آخر شقيق ، كما ان الحدود المصطنعة التى فرضت على بلاد العرب لم تستطع أن تحول بين الشعوب العربية والاتجاه نحو الوحدة السياسية الكاملة . ان الادب العربى وحدة لا تتجزأ ، وأن ما يجد فيه من مذاهب واتجاهات هى فى نظرنا ولبدة تفاعل افكار الابداء العرب والتيارات الفكرية الحديثة التى طرأت على الادب العربى وليس شئ منها متولدا عن طبيعة الاقليم والسكان وخصائص الجنس والوراثة كما يحلو لبعضهم ان يعلل ذلك « ص 84

والحقيقة الثالثة : التى يكشفها الكتاب هى ان المغرب العربى ، مع ما تعرض له من « فرنسة » مدة تزيد على ربع قرن ، عرف جميع الانواع الأدبية التى عرفها المشرق العربى من مقال أدبى ، وقصة واتصوفة ومسرحية وشعر « وينسفع هذه الآثار نجد ان الحصاد الأدبى لهذا الجيل اصبح من الفنى والتنوع بحيث يمكن القول انه استتم العناصر الأولية للأدب الحى ، وانه شق الطريق للحاق بقافلة البعث الأدبى فى العالم العربى . ففى النثر زيادة على نمو المقالة السياسية والاجتماعية والأدبية ظهرت البحوث المتنوعة فى الفلسفة والفن والنقد وبلغت الخطابة السياسية أوج الكمال . وبدأت المحاولات الناجحة فى كتابة الرواية التمثيلية والاتصوفة والقصة وذلك فضلا عن نشاط حركة التأليف فى الموضوعات السياسية والتاريخية والعلمية وفى الشعر استعمل التنظيم فى موضوع الوطنية تبعا لاستعمال حركتها ، فكاد الشعر كله يكون ثورة على الاستعمار ودعوة الى مقاومة الغزو الأجنبى وتذكيره بهجده وتاريخه العظيمة ، وتحول

الظواهر الأدبية دليلا على التقليد بل هو دليل على وجود حساسية متشابهة في أعماق النفس العربية » ومن الخطأ أن نميز عمل أى بلد عربى فى هذا الصدد ، سواء أكان سابقا أم لاحقا ، لأن طابع العروبة لا يوجب إلا حيث تلتقى جهود العرب كافة . ولم يتحقق للنظرية الاتليبية فى الأدب العربى مدلول خارجى برغم ما قبل فى توجيهها وللتنويه بآثارها . والذى يتحقق يوميا هو أن الأدب العربى يتلاقى على صعيد الفكرة الجامعة والاتجاه الموحد ، وأن أنصار الاقليمية ينهزمون دائما فى ميدان الأدب والسياسة على السواء ، لأن أمر العرب الى وحدة وكلمتهم الى جمع والفوارق الطنيفة التى توجد بين مجتمعاتهم المحلية لا تبلغ من القوة ما يجعلها تغير وجه الأدب فى أى قطر عربى عما هو عليه فى قطر آخر شقيق ، كما أن الحدود المصطنعة التى فرضت على بلاد العرب لم تستطع أن تحول بين الشعوب العربية والاتجاه نحو الوحدة السياسية الكاملة . أن الأدب العربى وحدة لا تتجزأ ، وأن ما يجد فيه من مذاهب واتجاهات هى فى نظرنا وليدة تفاعل أفكار الأبناء العرب والتيارات الفكرية الحديثة التى طرأت على الأدب العربى وليس شئ منها متولدا عن طبيعة الاقليم والسكان وخصائص الجنس والوراثة كما يحلو لبعضهم أن يعلل ذلك « ص 84

والحقيقة الثالثة : التى يكشفها الكتاب هى أن المغرب العربى ، مع ما تعرض له من « فرنسة » مدة تزيد على ربع قرن ، عرف جميع الأنواع الأدبية التى عرفها المشرق العربى من مقال أدبى ، وقصة واقصوة ومسرحية وشعر « ويتصفح هذه الآثار نجد أن الحصاد الأدبى لهذا الجيل أصبح من الغنى والتنوع بحيث يمكن القول أنه استتم العناصر الأولية للأدب الحى ، وأنه شق الطريق للحاق بقافلة البعث الأدبى فى العالم العربى . ففى النثر زيادة على نمو المقالة السياسية والاجتماعية والأدبية ظهرت البحوث المتنوعة فى الفلسفة والفن والنقد وبلغت الخطابة السياسية أوج الكمال . وبدأت المحاولات الناجحة فى كتابة الرواية التمثيلية والاقصوة والقصة وذلك فضلا عن نشاط حركة التأليف فى الموضوعات السياسية والتاريخية والعلمية . وفى الشعر استعمل النظم فى موضوع الوطنية تبعا لاستعمال حركتها ، فكاد الشعر كله يكون ثورة على الاستعمار ودعوة الى مقاومة النفوذ الأجنبى وتذكيره بحجده وتاريخه العظيمين ، وتحول

الشعر العاطفى من تفاعلة العبارات الجوفاء الى تجارب ذاتية وانسابه
صداقة ، وجمال الشعراء فى ميدان الطبيعة ، وحلقوا فى مجال الفكر ، وظهر
الشعر التمثيلى فى مسرحيات صغيرة تعتبر نواة لهذا اللون الجديد من الشعر
العربى ، الى غير ذلك من مظاهر التفنن والابداع التى اكسبت الادب
المغربى ، منثورة ومنظومة بسيطة فى الشكل والمضمون لم يعرفها من
تبل « ص 83

والحقيقة الرابعة : التى تبين بوضوح ان المغاربة لم يقلوا عن المشاركة
مئاته اسلوب وعذوبة لفظ وسموا فى الخيال ورقة فى العاطفة . وقد ابدعوا
فى النثر ابداعهم فى الشعر . واكسبت حرارة العاطفة الوطنية شعرهم
توهجا . « والادب العربى ان كان قد سجل فى تاريخه الحيل صرخات
ثبوتى وحافظ وبطران والرصاصى والزهاوى وشكيب ارسلان وابراهيم
من رواد الشعر الوطنى فى القطاع الشرقى للوطن العربى فقد بقى عليه
ان يسجل الصرخات المائلة التى اطلقها زملاؤهم فى القطاع الغربى »
ص 148

ويقول البحث بالاستشهاد من الشعر العربى الجليل ، وحسبنا ان
نحيل القارئ الى الكتاب ليمتع نفسه بنماذج من الادب العربى الحى النابع
من الاعماق ، وليستع الى صوت اخيه فى المغرب يشدو شدو الورق ويعصف
عصف الاعاصير

**ان صوت الامة العربية فى مشرقها ومغربها فى عهود الحماية والاستعمار
ينبع من نفس واحدة ويعبر عن آمال وآلام متشابهة ، ومتى توحد الوجدان
توحد المضمون ، ومتى توحد الانفلاق جاءت الكلمة الواحدة تتردد ترد الصدى
فى اعماق الوادى .**

وطالما كرر القائد المظفر معيد شباب الامة العربية وناصرها ان وحدة
الكلمة ترمى الى وحدة الوجدان وان وحدة الوجدان من صنع التاريخ الطويل
الذى طبع العقل والوجدان بسمات لن تزول . وقد جاء كتاب الاستاذ ككون
مصداتنا لهذا القول بكامل ما فيه من قوة .

لقد تردد المؤلف كثيرا في القاء محاضراته التي تكون منها هذا الكتاب . ولو كان يعرف اى كسب حصل علمه اخوانه المشاركة واياسة خدمة اسداها الى الامة العربية والتاريخ العربى لما تردد . انه نفحات زكية هبت من المغرب الى المشرق لتزيده قوة في كفاحه وايمانا برسالته ، وثقة بالأخوة العربية ووحدة الضمائر والعقول

وتحية مباركة الى عبد الله كتون الذى وضع لبنة جديدة في تاريخ الامة الادبى الى جانب ما وضعه زملاؤه ابن عاشور وناصر الاسد وعبد الجبار ولسكى وغيرهم (1)

(1) نشر هذا المقال في العدد الممتاز من مجلة منبر الاسلام القاهرة الصادر بتاريخ ربيع الاول 1384 = 10 يوليو 1964

مقدمة

كان اول من فاتحنى فى امر هذه الاحاديث هو الاستاذ الدكتور اسحاق موسى الحسينى عند تعرفى به فى مؤتمر ادباء العرب الذى عقد بالقاهرة فى نهاية سنة 1957 . وهو من الرجال العالمين بمعهد الدراسات العربية العالية كما لا احتاج ان اتول وقد اعتذرت اذ ذاك لسيادته بانى لا اعنى بالادب الحديث واظننه على غيرى . ثم بعد ذلك بنحو سنتين تلقيت رسالة من العلامة المؤرخ محمد شفيق غريال ، وهو مدير المعهد ، يدعونى فيها الى القاء محاضرات عن ادب المغرب العربى على طلبة قسم الدراسات الادبية واللغوية ، ويرغبونى فى ذلك بما كبر على ان ارفض الدعوة . فكتبت اليه استفسره عن بعض النقط ، وقلت له ، وانا احاول التملص من هذه المهمة : ان الامر اذا كان يتعلق بالمغرب العربى كله فليس فى استطاعتى القيام به . وتوفى رحمه الله ولم اتلق منه جوابا .

ولما سافرت الى القاهرة لحضور المؤتمر الثانى والعشرين لمجمع اللغة العربية ، فى مارس سنة 1962 وجدتهم ينتظروننى فى المعهد للقاء هذه المحاضرات واستغربت الامر لانى لم ارتبط معهم ببوعده ، بل لم اعرف ما يقصدون بالذات من ادب المغرب العربى ، ولقد استفسرت عن ذلك ولم احصل على جواب . ولكنهم اطلعونى على الملف الذى يحتوى على جواب من العميد الدكتور طه حسين الذى تولى ادارة المعهد بعد وفاة الاستاذ غريال ، وفيه بيان ان المقصود هو المغرب الاقصى ، وهذا الجواب ارسل

بطريق رسمية فلذلك لم يصل . وعلى كل حال فقد وجدت انه لم يعين الادب الحديث مع انه المراد . فقلت انه حتى لو كان الجواب وصل لبقيت في حيرة من امرى لانه لم يوضح جميع النقاط التى استفهت عنها .

وتواعدنا على العام المقبل : انهم لم يجدوا فى الملف جوابا منى بالقبول ، فسلموا . وانا خجلت من كثرة التملص فقبلت على ما فى الامر من معصية وما يقتضى من مجهود .

لقد بينت للصدى الدكتور عبد الرحمن البزاز وهو المدير الجديد للمعهد بعد تولى الدكتور طه حسين عنه . ان الادب المغربى الحديث غير مدون ، وغير مدرّس . فالذى يريد ان يتحدث عنه ، عليه ان يقوم بعمليتين اثنتين : عملية التدوين اولا وهى جد شاقة ، لان عليه ان يكتب الادباء ويسافر الى لغاتهم ويتصفح آلاف الجرائد والمجلات التى نشرت شيئا من هذا الادب فى فترة تزيد على نصف قرن ، وعملية الدرس ثانيا ، وهى لا تقل من الاولى مشقة مع ما فيها من المسؤولية المعنوية التى تعرض متحملها لكثير من القيل والقال . وانه ليس كالادب فى اى قطر آخر من الاقطار العربية الذى نشرت فيه عشرات المجموعات والمنتخبات فضلا عن الدواوين الشعرية والتخصص التى تعد بالمئات ، واخرجت فيه دراسات وبحوث نقدية كثيرة باقلام مختلف الكتاب ، فاصبح مناله سهلا بخلاف ادبنا الذى ما زال خاها لم يخدم من ناحية الجمع ولا من ناحية التقييم ثم قلت له ان اهتمامى بالادب المغربى كان دائما منصبا على القديم منه ، وقد وفقت بفضل الله الى وضع كتاب فيه يلقى الى جنب كتب تاريخ الادب العربى للزيات والاسكندرى وغيرهما التى لم يجيء فيها سطر واحد عنه . . وانى اعمل على تعزيزه بكتاب فى تراجم المغاربة الذين ينون كالادب المغربى بتجاهل كبير . لذلك لا اريد ان اصرف وجهتى عما انتعلمت اليه لئلا ينخرم هذا العمل الذى اعدته من قبيل الاحياء للتراث العربى فى بلاد المغرب .

وكان جوابه وجواب الاصدياء الذين سمعوا منى هذا الكلام هو الالاحاح على وجوب الاعتناء بالادب الحديث ايضا ، والا وقع له من الاهمال ما وقع للادب القديم .

والآن ، وقد قبلت القيام بالمهمة ، ولم يسعنى الا النزول عند رغبة هؤلاء الافاضل ، ها هي ذى الاحاديث او المحاضرات المطلوبة عن الادب المغربى الحديث ، لم آل فيها جهدا ان اوضح العوامل التى اثرت فى تكوين هذا الادب والاتجاهات الجديدة التى اتخذها . ولم احد قيد شعرة عن نهج الانصاف فيما حكمت او علقت فلا تبجح ولا دعوى يكذبها الواقع : ولا بخص ولا اجحاف بحق من الحقوق . وقد آثرت ان ادرس الادب — او اقدمه على الاصح — فى آثار اعلامه ، بدلا من ان ادرس الادباء فى آثارهم ، ولذلك فانا لم اذكر من الاسماء الا ما اقتضاه الموضوع او تطلبه الشاهد ولو ذهبت اقدم الادباء بشخصياتهم لما وفيت بواحد منهم ، ولطال الامر جدا من غير ان يمكننى الالمام الا بعدد محدود منهم فهذه الطريقة التى جعلتنى انصرف بحسب الموضوعات المدروسة لا بحسب الاسماء المقدمة ، لم تدع لى اختيارا فى الادباء الذين اذكرهم ، وامتدتنى فى الوقت نفسه باكبر عدد من الاسماء ما كان لى ان استوعبها لو تبعت الطريقة الاخرى .

ولا اخفى اننى من اول وهلة اعتزمت ان لا اتصل بأحد لا بالكتابة ولا بالشخص ، تخفنا من المتاعب وتجنبنا لضياع الوقت الذى غالبا ما يكون بغير طائل ، وان اكتفى بما عندى من مواد ومراجع اكثرها من الجرائد والمجلات التى صدرت فى المغرب منذ بداية هذا القرن . وفعلنا فقد نفضت ما لا يقل عن عشر آلاف صحيفة وانتقيت منها ما يلزمى لهذا العمل ثم صنفته كما يجب ، وراعت الاكثار من النصوص والنماذج لانى رايت بعضها اذا طالت المدة سوف يدخل فى خبر كان . ولانى ايضا اردت ان اتول بالحجة واحكم بالدليل .

وفى خصوص النشاط الفكرى والكلام على حركة التأليف والبحث لم اشر الا الى ما صدر بالطبع ، ونشر اما استقلالا على شكل كتب ونشرات واما بشكل مقالات وابحاث متتابعة فى الصحف الدورية ، لانى وان كنت اعرف لبعض الكتاب والمؤلفين موضوعات وبحوثا شتى فان ما لا اعرفه من ذلك اكثر ، ولا معنى لتخصيص البعض بالذكر دون البعض . على ان هناك كثيرا من الاعمال انما هى اسماء بدون مسميات ، ومشروعات ما زالت لم تدخل لحيز التنفيذ ، فلم اشأ ان اتورط فى الحديث عن الغيب ،

واخترت الانتصار على ما هو موجود ومشاهد وواقع بين يدي كل واحد من غير ان يحتاج الى من يوقفه عليه . وهذا الموجود نفسه لا ادعى انى استوفيته . فقد يكون فائتى منه شئ وان يكن فى ظنى شيئاً قليلاً . وواضح ان ما كان من تبيل الكتب المدرسية والفقهية والحديثية الخاصة بتحقيق بعض المسائل الجزئية ، لم يكن من مشمول ما ذكرته فى الحديث عن هذا النشاط لانه شئ كثير ، وهو بطبيعته بعيد عن مجال هذه الاحاديث

واملى ان اكون وضعت مخطط هذا البحث ، ولم يعنى التوفيق فى بناء هيكله على الاقل . فعلى الباحثين الذين هم اكثر اطلاعا واوسع ثقافة ان يعملوا على سد هذه الثغرة ويؤدوا للحركة الادبية فى المغرب الخدمة التى تستحقها فى مجال التعريف والتاريخ . وكل يعمل على شاكلته ، وما على من بذل جهده من ملام .

والشكر لمعهد الدراسات العربية العالية على ما اتاح لى من هذه الفرصة الثمينة التى لولاها لما كانت هذه الاحاديث ، والدال على الخير كفاعله.

عبد الله كنون

على عتبة العصر الحديث

بقى المغرب خلال النصف الثاني من القرن الماضي واوائل القرن الحالى . يتمثل الثقافة القديمة بعيدا عن كل تيار فكرى جديد . فى حين ان غيره من البلاد العربية ولا سيما الشرقية كمصر والشام والعراق كانت تشهد قيام حركة علمية وادبية نشيطة ، قدح زندها اولاً محمد على فى مصر وثانياً البعثات العلمية الاجنبية التى امت هذه البلاد ، واسست فيها مدارس عصرية من مختلف المستويات

فاذا كان تاريخ نهضة الادب العربى فى الشرق يبدأ من منتصف القرن التاسع عشر فانه فى المغرب قد تأخر الى ما قبل نشوب الحرب العالمية الاولى بقليل .

ذلك ان المغرب كان فى عزلة تامة ، فى تلك الفترة ، عن الشرق والمغرب . اما الشرق لمعلوم ان تبعيته للدولة العثمانية ، ولو بصفة اسمية كما كانت عليه الحال فى مصر أخيراً ، جعلت منه وحدة اقليمية متماسكة الاجزاء بتاثر بعضها ببعض . وتتلاقى فيها الحوادث بما يكون لها من صدى فى جميع الاوساط .

والمغرب حتى لما كانت السيادة العثمانية تمد رواقها على تونس والجزائر ، كان خارجاً عن هذه الوحدة له كيانه الخاص ، ودولته المستقلة ، يبينه ما يجد فيها من احوال حجاب كثيف . وزاد هذا الحجاب كثافة بعد سقوط الجزائر فى قبضة فرنسا سنة 1830 ثم تونس سنة 1881 فاصبح المغرب فى فية عما يجرى فى العالم من تطورات ، برغم ما يربطه به من روابط متينة .

وأما الغرب فإن سياسته الاستعمارية التي كشفت عنها النقاب نسي الجزائر وفي أقطار أخرى ، جطت المغرب يقدم الحذر في علاقاته به ويبتعد عن طريق اللقاء معه ما أمكن ، ولم تكن هذه خطة عملية ، فانها انما منعت الاستفادة من علومه ومعارفه ، ولم تقف في وجه مطامعه وشروعه . وقد كان المفروض ان البلاد التي تتاخم أوربا شمالا وتعد الحد الشرقي لأميركا لا بد ان تجارى هذه في النهوض ، وتقتبس من تلك ما تلقح به تراثها الفكرى والحضارى ، بل ان تكون سبابة في ذلك فلا تتقدمها البلاد البعيدة عن مراكز التمدن هذه كاليابان مثلا ، ولكن مبدا الحيطة الذى درج عليه المغرب في اتصاله بالغرب وأسرف فيه ، هو الذى أضرب به وضرب عليه هذه الانطوائية في التفكير والعمل .

وهكذا نجد المغرب في هذا التاريخ منزلا عن العالم القديم والجديد ، عن اصدقائه في الشرق وجيرانه في الغرب ، ولو انه بقى في عزلته من غير ان يبدأ الدسائس الاستعمارية تنصب حبالها للإيقاع به ، لكان دبر امره في الإتصال باخوانه العرب والمسلمين ، لتبادل الراى ووضع خطة العمل للنهوض والحقائق بركب الحضارة ، او لكان نظم علاقاته بجيرانه الغربيين على اساس الاخذ والعطاء والمصلحة العامة . فلم يكن الشعب المغربى ولا حكومته في يوم ما ، على غير رغبة في العمل باخلاص مع العاملين لرفع مستوى الحياة الانسانية . وحمل مشعل المعرفة ، ولكن تدخل الاستعمار الغربى في شؤونته الخاصة وتحرشه به في غير ما موقف ، لم يفتح امامه سبيل المواجهة مع هذا الغرب الماكر ، ولا اتاح له فرصة التعاون مع الشرق الناهض على ما فيه خير الجميع .

لمقد كان هبوب المغرب لنجدة شقيقته الجزائر في محنتها القاسية ، سببا في اغارة جنود الاستعمار الفرنسى على حدوده الشرقية واشتباكهما مع القوات المغربية في معركة ايسلى سنة 1260 هـ الموافقة لسنة 1844 م وهى المعركة التي دثنت بها فرنسا سياستها العدوانية ضد المغرب وكانت اذانا بفتح باب التناقص الدولى على مصراعيه للحظوة بهذه البلاد الطيبة .

وما لبثت اسبانيا ان اشتهرت الحرب على المغرب سنة 1276 هـ - 1860 م متفرمة بحادث نزاع على حدود سبتة ، وبادرت فاحتلت مدينة تطوان ، فلم تخرج منها برغم ايقاف القتال الا بعد سنتين وثلاثة اشهر ، وكانت هذه الحرب اسوا اثرا مما قبلها في تعزيز النفوذ الاستعماري في البلاد وارهاق الخزينة الوطنية بالديون الاجنبية .

وتلاحقت الحوادث بين مؤتمرات دولية لتحديد الامتيازات الاجنبية ، واتفاقيات سرية لاطلاق يد فرنسا في المغرب الى اقتطاع بعض المناطق الصحراوية من جسم البلاد ، واحتلال بعض المدن الكبرى بالقوة حتى ارغم رئيس الدولة على توقيع عقد الحماية في 30 مارس سنة 1912 .

ان شريط الحوادث التي الجات المغرب الى هذا المصير المجمع اطول من هذا بكثير ، ولكن يكفى من القلادة ما احاط بالعنق كما يقول المثل ، ولعل حق القلادة هنا ان تكون ريقة لينسجم المثل مع الموضوع . نهى ريقة منعت من النصرف في شؤونه كما يريد ، حجرت عليه ان يحيا حرا وان كان بلاد احرار ، لان الذي وضعا في عنقه اراد ان يستأثر بخيرات دونه ، اراد ان يستعبده ، وهو الذي لم يعرف العبودية قط لم يخضع لروما في جاهليته وبربريته فكيف يخضع لرببتها فرنسا في اسلامه وعرويته ؟ ولما لم تجده وسائل القوة والعنف ، عاد الى الخداع والملاينة فزعم انه يحمل اليه رسالته المدنية ، وانه سيلقنه علوم الحياة باجمعها ، ولم يكن ما حمله اليه الا عهرا ونسادا ، وما لقنه الا تجديفا والحادا ، اتراما بقية حرب صليبية ؟ انها كذلك كان آباؤنا في هذا العهد يرونها ، ولقد صدق ظنهم الظهير البربري المعروف الذي اصدرته بنت الكنيسة البكر ، اعنى فرنسا (اللايكية) سنة 1930 وستكلم عليه في حينه .

لكن هل استكان المغرب لهذه المؤامرات الاستعمارية ؟ وهل انهزم امام قوى الشر التي تكالبت عليه من كل جهة ؟

كلا ، انه قاوم جهد المقاومة ، وعمل ما في استطاعته ، وهو محزول من كل صديق وحليف ، ليقنّادى الوقوع في الفخاخ التي كُتبت له تصد اصطباذه ، وصارت المكائد والشدائد بمثابة موقف لشعوره وحالز لهماه ،

فكلما تويت كان رد الفعل عنده اتوى ولا نتكلم عن اعماله فى الميدان السياسى والحرى فانها من اختصاص التاريخ العام ولكن لا بد من الاشارة الى اعماله فى الميدان الاجتماعى كالتعليم والادارة والتجهيز الحضارى الحديث مما له تاثير على الحياة العسكرية والنهضة الادبية المؤرخة .

ففى التعليم كان مما اسفر عنه الاحتكاك المتواصل بالغربيين سواء فى المداولات السياسية او المعاملات التجارية انه لا بد من الاقتباس والنقل عن القوم ، اذ تبين تفوقهم فى العلوم الكونية والفنون والصنائع وذلك كما فعل اجداننا فى نقل علوم اليونان والاقتباس من حضارة الفرس والهند وكما فعل الغربيون انفسهم فى 'الاقتباس والنقل عنا اول عصر الانبعاث فى اوربا .

وكان اول ما توجهت اليه عناية الدولة الفنون العسكرية والطب والهندسة واللغات ، واختير لذلك من اول وهلة ، نظام البعث ، فكان الشبان يكونون تكوينا سريعا يتلقون فيه على الخصوص دروسا فى مبادئ العلوم الرياضية والتاريخ ولغة البلد الذى سيتوجهون اليه ، باستثناء من كانوا يوجهون الى الشرق ، فقد كانت هناك بعض البعثات وجهت الى مصر اول الامر ، ايام السلطان محمد الرابع وفى مدة الخديوى سعيد باشا وولده اسماعيل ومن اشهر المتخرجين فى هذا العهد من مصر الطبيب عبد السلام العلى والجغرافى احمد شهبون وكلاهما ممن اسهم فى الحياة العلمية بالتعليم والتأليف ، ويعدان من الطلائع الاولى للنهضة الحديثة ، لان تعليمهما كان بالعربية .

اما البعثات الاخرى فقد وجهت الى اوربا ، وكانت البلاد التى اختيرت لها هى انكلترا وفرنسا والمانيا وايطاليا وبلجيكا واسبانيا ، فضلا عن جبل طارق الذى كان المبعوثون اليه يتلقون فيه تدريبات عسكرية بالخصوص وتكررت هذه البعثات فكان كلما تطلعت جماعة خلفتها جماعة اخرى . واتصلت ايام السلطان مولاى الحسن وولده مولاى عبد العزيز (1) ولم يمنع من

(1) بقصر المزارع على فكر البعثات التى توجهت فى ايام السلطان مولاى الحسن كانها توقفت بعده لكننا نعلم ان افرادا آخرين توجهوا فى ايام ولده مولاى عبد العزيز ولا سيما من طنجة .

استمرارها الا ما نشب بعد ذلك من الفتن الداخلية والاصطدام بقوة الاحتلال الفرنسى وبلغ عدد افرادها في الجملة بضع مآت انتفع بهم في الادارة والجيش والديبلوماسية ، وكان من بينهم من ارتقى الى اعلى منصب في الدولة كالوزير الصدر محمد الجبالى .

واذا كان مما يلاحظ ان هذه البعث لم تتم بنشاط مهم في ميدان التعليم بعد رجوعها وان الانتفاع بها كان قاصرا على الميادين التى ذكرنا ، فان ذلك لسببين مائعين : احدهما ان التعليم الذى كان يلقاه غالب افرادها لم يكن تعليميا كاملا وانما كان تدريبا او تكوينا عاما ، واكثره مما يتعلق بالفنون العسكرية . وثانيهما انه لم يقع التفكير على ما يظهر في فتح مدارس لهؤلاء المتعلمين ليعلموا فيها ما حصلوا عليه من المعارف الجديدة لغيرهم من المواطنين حتى تعم الفائدة بذلك وينتشر العلم على اوسع نطاق كما كان يقع في مصر وفي غيرها من البلاد الناهضة كالاليابان التى يقال ان حركة ارسال البعث العلمية الى اوربا فيها كانت مقارنة لحركة المغرب ، ولكنها جنت ثمار هذه الحركة في اقرب مدة ، وبقي المغرب محروما من نتائج حركته لهذا السبب .

ولا ننسى الظروف العصيبة التى كان المغرب يمر بها ، فانها لم تدع له مجالا للعمل بحرية في هذا الصدد ، ولم تزل به حتى شلت حركته فاقف هذه البعث في النهاية .

وفي الادارة اهتم كل من السلطان محمد الرابع ومولاي الحسن بتنظيم الحكومة وتحديد اختصاصات الوزراء فحدثت وزارة الخارجية والمالية والحربية والعدل ، وبقي الوزير الصدر يترأس الحكومة ويلى وزارة الداخلية وكان من هم وزارة الخارجية ان تنظم علاقات المغرب بغيره من الدول ، وتوجه التنافس الدولى القائم حول المغرب لصالح البلاد والحد من الامتيازات الاجنبية . اما وزارة المالية فقد كان اهتمامها منصبا على تنمية موارد الدولة التى كانت تنحصر في الاعشار ومعاليم الجمرک ، لان الشعب كان يمتنع من اداء اية ضريبة ، ولاتى المغرب في هذا العهد صعوبات جمة في تنظيم مالهته وموازنة الدخل مع الخرج تجنباً لعقد اى سلف خارجى وان

لم يجد بدا من ذلك في الأخير ، حيث انشئ مصرف للدولة فواجه الازمة بما يقتضيه الحال ، واهتمت وزارة الحربية بتنظيم الجيش وامتداده بالمعدات الحربية ، فزيادة على التدريب العسكري الذي كان يتلقاه افواج المتعلمين في الخارج استقدمت الوزارة بعض الضباط الاجانب للمعاونة في هذا التنظيم ، ولم تكف بما تقتنيه من السلاح والعناد الحربي من الخارج ، بل انشأت معملا حديثا لتزويد الجيش بما يلزمه من ذلك في كل الظروف وعملت على تكوين قوة بحرية جديدة تعيد بها ماضي القوة البحرية المغربية النسي اضمحلت بسبب الاهمال ، فاوصت على صنع بعض المراكب الحربية في معامل اوربا ، واشترت غيرها مما كون لديها نواة لاسطول مغربي حديث .

وكذلك كانت اصلاحات الجوهرية تتناول جهاز الدولة شيئا فشيئا فتحوه من جهاز قديم فقد فعاليته بتاثير الحوادث ، الى جهاز جديد اكثر ما يكون انسجاما مع تطورات العصر . وكانت مظاهر الحضارة الحديثة تستهوي افئدة الناس وتغزو المجتمع المغربي بكل الوسائل فيصطنع الكبراء والمترفون منها كل ما له لمعان وبريق ، ويفغفون عما له تاثير في تطوير الحالة المادية والمعنوية للشعب ، على ان بادرتين عظيمتى الاثر في البعث الادبي والاصلاح السياسي كانتا من اهم ما انبثقت عنه حركة التجديد والمقاومة في هذا العهد ، وهما الطباعة والادسنور .

فالطباعة دخلت للمغرب في اول هذا العهد ، وقصة دخولها شبيقة ، فان السيد الطيب الروداني قاضي تارودانت رآها بمصر فاعجبته ، وكان ذهب الى الحج ، فاقفنى آلتها وتعاقد مع فنى مصرى للعمل فيها ، فصحبه الى المغرب ، ولما راي ان الدولة احق بها اهداها للسلطان محمد الرابع فقبلها منه واكرمه بان ولاه عليها ، وشرع في طبع الكتب المهمة وخاصة الكتب الدراسية مما يستعمل في القرويين ولمروعها . وكان يعفنى بالتصحيح وينتقى الخطوط الجميلة ، اذ كانت مطبعة حجرية فاكسبت مطبوعاته سمعة طيبة ، واشتهرت باسم السلطان ، فكان يقال لها مطبوعات المطبعة المحمدية ، وانتشر من الطباعة بعد ذلك ، وصار من عمل الافراد وكثرت المطبوعات المغربية المعروفة بالفاسية ، لان المطابع التى تصدرها كان مقرها فاس واشتملت على جميع الفنون من عربية وفقه وادب وتاريخ

وعلوم ، وكانت حافزا لكثير من اهل العلم على التأليف والنشر فنزحرت
المكتبة العربية في كل مكان بنتاج هذه المطابع

على ان مطابع اخرى من ذوات الحروف المركبة ما لبثت ان عززت
المطابع الحجرية في فاس وغيرها . واهم ما يلفت الانتظار في نتاجها هو
ظهور اول جريدة عربية تحمل اسم المغرب ، وكان ذلك في طنجة سنة
1889 وهي جريدة اسبوعية حرة اصدرها بعض اللبنانيين ولم تمر طويلا ،
ثم صدرت بعدها في طنجة ايضا جريدة المغرب الاقصى سنة 1900 فجريدة
السعادة سنة 1905 فمجلة الصباح سنة 1906 فجريدة لسان المغرب
سنة 1907 وكلها لصحفيين لبنانيين نزحوا الى المغرب في هذا العهد ولم يبق
منها الا السعادة التي اصبحت فيما بعد لسان حكومة الحماية

وكان حدث الدستور حريا ان يقلب الاوضاع في المغرب راسا على
عقب ، لولا انه اتى متأخرا جدا ، على اثر مبايعة السلطان مولاي عبد
الحفيظ 1325 هـ — 1908 م ، وكانت مبايعته ثورة على الفساد والاستغلال
وامتداد النفوذ الاجنبى في ايام اخيه مولاي عبد العزيز ، ومع ما يمكن ان
يقال في اصاله هذه الحركة وتعبيرها عن الراى العام المغربى الذى لم يفتأ
السلاطين يعيرونه كل اهتمامهم ، ويصدرون عنه في جميع المواقف الحرجة
التي يرون انه لا بد من الاخذ باشارته فيها ، فان صدى الحركة الدستورية
التي كانت قائمة في المملكة العثمانية ، في هذا الوقت بالذات ، لا بد ان يكون
بلغ الى المغرب ، وان يكون هو المحرك القوى للمطالبة بالدستور

يدلنا على ذلك هذه الفقرات (1) التي جاءت في مقال لجريدة لسان
المغرب التي كانت تصدر بطنجة آنذاك والتي تقول :

« بما ان الوقت قد دعا الى الإصلاح ، والشبيبة المصرية تد هلت
قلوبها وانشرحت صدورها له وجلالة سلطاننا الجديد يعرف لزومه ، فنحن
لا نالوا جهدا في المناداة بطلبه على صفحات الجرائد من جلالاته وهو يعلم
اننا ما قلناه بيعتنا واختراناه لامتنا وخطبنا وده رغبة منا وطوعا من غير

(1) نقلها عن مجلة المغرب الجديد المجلد 6 السنة الاولى .

ان يجلب علينا بخيل ولا رجال ، الا املا ان ينقذنا من هوة السقوط النسي اوصلنا اليها الجهل والاستبداد ، فعلى جلالته ان يحقق رجاءنا وان يبرهن للكل عن اهليته ومقدرته على ترقية شعبه ، وعلى رغبته في الاصلاح وجدارته بادارة ما قلدته امته ، والذي نرجوه منه اولا قبل كل شيء هو فتح المدارس ونشر المعارف ، وان يكون التعليم الابتدائي اجباريا ، وان يولى ذوى الكفاءة والاستحقاق والاهلية ، ويقرب اليه ذوى العقول الراجعة والانكار الحرة الراقية ، وليتحرز من الوشاة والجواسيس الذين يشوهون له رعاياه ويحولون بينهم وبينه ، وفي بلاطه الشريف من هذه المكروبات القتالة جيش كبير ، فان لم يحترز منها ويقاومها نقلت اليه جرائم موبنة معدية ، وبما ان يدا واحدة لا تقدر على انهاض شعب من وهذه ستوطه ولا على اصلاح ادارة مخلة كادارة حكومتنا ، نيجب ان تكون الايدى المنصرمة والعقول المفكرة ، والامكار المدبرة كثيرة متكاتفه على العمل ، وعليه فلا مناص ولا محيد لجلالته ان يمنح امته نعمة الدستور ومجلس النواب ، وان يعطيها حرية العمل والفكر لنقوم باصلاح بلادها اقتداء بدول الدنيا الحاضرة المسلمة والمسيحية ، والدول الحاضرة يوم كانت مستبدة وسلطتها مطلقة لم تكن لها كلمة مسموعة ولا ما يدل على انها قديرة . وحيث خلص الله تلك الارواح من شبكة الاستبداد والرق نهضت تلك الدول من وهدة سقوطها ونقلت في اطوار الكمالات حتى وصلت اليوم الى ما وصلت اليه ، وكفى حجة على هذا امة اليابان تلك الشمس في آفاق آسيا النى كانت في مؤخرة الدول قبل الاربعين سنة واصبحت اليوم في مصاف الدول العظيمة وانتصرت ذلك الانتصار العجيب على دولة من اعظم دول العالم (روسيا) .

وغير بعيد عنا الانقلاب العجيب الذى حصل في دولة تركيا العلية اثر منح جلالة امير المؤمنين لشعبه الدستور وامره بجمع مجلس البعثان ، فعسى ان نقضى بهم ونقوم بخدمة بلادنا ونسمى جهدا في اصلاح حالنا .

هذه صيحة مدوية تنذر بما كان يتهدد المغرب من اخطار ، وتعلن عن راي النخبة المفكرة والطبقة الواعية في الاصلاح الذى يتركز في وضع دستور للبلاد يكفل لها حياة العزة والكرامة والحرية والتقدم ، وهى كما ترى تعكس الاحداث التى كانت تجرى في البلاد العثمانية من اجل الدستور

والحصول عليه في نفس سنة 1908 .

وقد وضع الدستور المغربي بالفعل وكان يحتوى على قانون الحريات العامة ونظام مجلس النواب والانتخابات العمومية الخ ، ولكن مصره كان الى الاهمال لان تتابع الاحداث التي ادت الى فرض الحماية الفرنسية على المغرب شغل السلطان وعقل الشعب عن كل عمل يهدف الى اصلاح المنشود .

نلك هي حالة المغرب العامة اثناء النصف الثاني من القرن الماضي واوائل القرن الحالي ، وهي حالة مهما قلنا بخضوعها للتطور الحديث ، فانها نظرا لبطء هذا التطور واقتصراره في الغالب على الشؤون المادية دون الامور المعنوية ، لم تكن لتخلق جوا ادبيا يختلف عما عهده الناس ولا لتحديث تحولا فكريا يصب في غير المجرى المألوف . ومن ثم فان الحياة الفكرية والادبية بقيت على حالها من تمثل الماضي واحتذاء حذوه سواء في المادة او القالب ، في المعنى او الاسلوب ، المؤلفون يضعون تاليفهم على غرار الذين من قبلهم ، والادباء يصوغون ادبهم نفس الصياغة التي توارثوها عن تقدمهم ، والانتاج في الواقع كثير ، والمطبعة تخرج من الآثار القديمة والجديدة في العلم والادب ما يدل على نفاق سوق المعرفة ، ولكن عنصر التجديد وروح الابتكار كانا يعوزان هذه الاعمال ، فميزانها بالنسبة الى النهضة الفكرية الحديثة ميزان خفيف وان كانت في حد ذاتها ذات تيمية لا تنكر . . نعم كان هناك مؤلفون وادباء ولكن صلتهم باهل العصور الخالية اتوى من صلتهم باهل العصر الذي يعيشون فيه ، فنتاجهم يعد من صميم النتاج القديم لا فرق بينه وبين ما وضع قبل ثلاثة قرون وان كان منه ما وضع في اواخر العهد الذي نحن بمصده ، ولا نقول انه لا يمثل عهده هذا ، فالواقع انه اصدق ممثل له ، لانه وقفنا على مناحى التفكير ومناهج التفكير التي كانت سائدة اذ ذاك ، وهي كما نعلم منحصرة في ضروب المصارف الاسلامية وعلوم العربية واثارة من فلسفة وحساب وفلك ، اى ما كان يدرس في جامعة القرويين بفاس وفروعها المنتشرة في انحاء المغرب ، ولا رائد ، من غير ان تمسه يد اصلاح او تدخل عليه مادة تلقيح .

ولئن كان العصر قد خطا خطوات عظيمة حتى في البلاد العربية بالنظر الى تقدم العلوم واتساع دائرتها فان المغرب الذى كان في عزلة ، لم يستشعر شيئا من ذلك في نشاطه الفكرى اطلاقا ، وبذلك تلقا ان نتاج هذا العهد يمثل صدق تمثيل ، فالمعبرة بما وقع لا بما كان ينبغي ان يقع

ومع ذلك فان حركة التأليف والنشر التى كانت نشيطة جدا في هذا العهد ان لم تدل على بعث فكرى ، فهى تدل على حيوية عظيمة في اهل العلم الذين تركوا لنا تراثا حافلا لم تخرج المطبعة بعده الى الآن ولا مقدار ربعه ، ناهيك بمؤلفات المهدي بن سودة (ت 1294) ومحمد كنون (ت 1302) وعلى الديناني (ت 1309) واحمد بن الحاج (ت 1310) وابراهيم التادلى (ت 1311) وعبد السلام الطمى (ت 1313) واحمد ابن خالد الناصرى (ت 1315) وماء العنين الشنقيطى (ت 1328) ومحمد ابن قاسم القادري (ت 1331) والمهدي الوزاني (ت 1342) واحمد بن الخطاط (ت 1343) ومحمد بن جعفر الكتاني (ت 1345) واحمد بن المامون البلغيني (ت 1348) والمكى البطاورى (ت 1354) وغيرهم ممن يطول تعدادهم . ان هؤلاء كانوا حملة مشعل المعرفة وقادة الفكر في البلاد والآثار التى خلفوها من ورائهم ما زالت تنير السبيل امام الباحثين في تاريخ الحياة الفكرية بالمغرب . ولعل هذه الآثار على تشبعها بروح القدم كانت اربابا بين يدي النهضة الادبية الحديثة ، لانها لا تعدو ان تكون بحثا عن الحقيقة ، ونظما لمستقبل زاهر .

ومهما عمينا في الحكم على هذه الآثار بأنها خالية من التجديد والابتكار ، فاننا لا نفعل منها بالخصوص آثار الفقيه محمد كتون والطبيب عبد السلام الطمى والمؤرخ احمد بن خالد الناصرى . ان الفقيه كتون قام بدعوة اصلاحية ترد صداها في المغرب من انصاه الى ادناه ، دعوة تتركز في محاربة البدع التى شوهمت جمال الدين والرد على اهل الطرق الصوفية اصحاب الدعاوى الباطلة ، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لا يحجم في ذلك ان يتعرض لاحوال الولاة وما يرتكبونه من المخالفة لاحكام الدين وظلم الرعية حتى نالته بسبب ذلك اذاية السلطان ولكنه لم يتأثر ولم يضعف بل زاد قوة وثباتا ، وكان الى ذلك دؤوبا على نشر العلم ، وبذل النصح للخاصة

والعامة من غير تكلف ولا تصنع ، بل تعزيره في ذلك حال ريبانية فمنفع الله به من لا يحصى عددا من الطلاب وجمهور الناس وبذلك انتشر تلامذه في جميع انحاء البلاد داخل المغرب وخارجه ، وانتشرت دعوته معهم ، وكانت كتبه التي تحمل طابع الجد في العلم والعمل مما يقوى نفوس اتباعه ويحملهم على التمسك بدعوته وزيادة التبصر في الدين .

واما الطبيب العلمى فاته كان اول طبيب مغربى تعاطى الطب على الطريقة الحديثة ، والف فيه تأليف ناعمة تشتمل على تعريف المواطنين بنهضة الطب في هذا العهد ، في اوربا والشرق ، وتحتوى على مصطلحات طبية جديدة باللغة العربية بسبب كونه درس الطب في مصر كما قدمنا ، وذلك ما لم يكن في استطاعة الاطباء الاخرين الذين درسوا في اوربا .

والناصرى كان مؤرخا متفتح الذهن ، اكسبته خدمته للسلطان خبرة باحوال عصره ، فكتب احسن تاريخ جامع للمغرب لا يقتصر على سرد الحوادث فقط ، بل يتضمن اجكاما وآراء اصلاحية سديدة ، وينتقد سياسة الدولة وما آل اليه امر المغرب من الضياع . وكان هو المؤرخ المغربى الاول الذى لم يستنكف من النقل عن المؤرخين الاجانب لبيان وجهة نظرهم على الامور ، واستتمام المعلومات عن بعض المسائل التاريخية ، مما كان موضع تذمر عند بعض المحافظين ، وزاد في قيمة تاريخه انه كان عالما ادبيا منهرسا بصناعة النظم والنثر فحرره بلغة سليمة واسلوب متين .

ان هذه الآثار تفتح اعيننا على بصيص من النور كان ينبعث من خلال هذا العهد في مجال الإصلاح الدينى والتطور الفكرى ، وهناك آثار اخرى تكتسى صبغة الصحافة السياسية كان نخبة من الشبان المتحمسين للنهضة الوطنية في اواخر هذا العهد والعلماء الواعين وعلى راسهم الشيخ محمد الكتانى (ت 1327) يصدرونها بشكل رسائل صغيرة يبينون فيها تدهور سياسة الحكومة ودساتنى الدول الاجنبية ولا سيما فرنسا التي لغرت ناهيا لابتلاع المغرب ويلفحون مناورات العملاء وصنائع الاستعمار الذين كانوا يمهدون له بمختلف الاموال والاعمال ، مما يدل على وعى هذه النخبة وبخطتها .

على أن الصحف التي كانت تصدر بطنجة ، وإن يكن أصحابها لبنانيين ، لم تكن تخلو من اسهام المغاربة فيها فالفقرات التي نقلناها آنفا من مقال لجريدة لسان المغرب تكاد تنطق بأن كاتبها مغربي ، وهي تعطينا فكرة واضحة عما كان يطالب به هؤلاء الشبان والعلماء من اصلاحات ، وما كانوا يوجهونه للجهاز الحكومي من انتقادات .

هذه لمحة عن جانب من الانتاج الفكرى فى هذا العهد ، نتمرف منها حالة الكتابة العلوية والكتابة السياسية التي تعتبر نواة للكتابة الصحافية الناشئة فيما بعد . ونتخلص منها للكلام عن الانتاج الادبى الخالص الذي هو فى الحقيقة المقصود بالبحث ، ربطا للنتائج بالمقدمات .

ونبادر فنقول : اننا وقد عرفنا ان اى تطور فعال لم يطرا على الحياة الفكرية عموما فى العهد المؤرخ ، فلا ننتظر ان نجد عند الادباء غير ما وجدناه عند العلماء من تغفل روح المحافظة على الماضى والاتباع لآثار القدماء فالاعمال الادبية تتمثل فى الرسالة والمقامة والخطبة والتاليف بطريقة الكتابة الفنية نثرا ، وفى موضوعات الشعر العربي المعروفة نظما ، والمعانى والامكار هى ما يوحى به التراث الادبى المشاع بين العرب كلهم ، لانه الرصيد الذى ينفق منه الجميع ، فلا عنصر جديد فى الشكل ولا فى المضمون ، وان كان هناك من ميزة تسجل لادب هذا العهد فهى انه ادب متين الاسلوب قوى التعبير ، برىء من التكلف ، بعيد عن الضعف الذى يشيع فى عهود الانحطاط ، لان العهد وان كان كذلك بالقياس الى النهضة الحديثة ، فهو فى الثقافة العربية لم يكن متخلطا ولا قاصرا ولكن هذا الادب بكل اعتبار لا يعدو أن يكون صفحة منبهة لتاريخ الادب المغربى القديم

ولناخذ باب الرسالة ، سلطانية او اخوانية ، فاننا نجدها لا تخرج عن الطريقة المألوفة فى التزام السجع وتضمن الامثال السائرة ، والاقول الماثورة ، واعتماد الجار والاستعارة والكتاية فى اداء المعنى المراد فضلا عن ارتكاب وجوه التحسين اللفظى المتعددة التي تدخل فى نطاق الصنافية البديعية . اما المقامة فهى هى . من عهد الحريرى الى اليازجى ، انما يراد منها اظهار البراعة الادبية والتمكن من ناحية اللغة ، لذلك فان

اسلوبها المهود يعد من عناصر تصويبها ، والتحوير الذى ادخله عليها المولى من كتاب مصر فى هذا العهد ، فى كتابه حديث عيسى ابن هشام ، لم نر من اقتفى اثره فى الشرق العريس ولا فى المغرب .

ولا نقول فى الخطبة شيئا لانها كانت مقصورة على الخطابة الدينية وسبيلها معروف وكذا التاليف بطريقة الكتابة الفنية فانه بقى ينهج الفتح ابن خاتان فى قلائده والعماد الاصفهاني فى خريدته وما الى ذلك المنحى ، فى غير فسولة ولا ضعف ومن غير تطور ولا تحرر ايضا .

والنتيجة التى نخلص بها انه لم تكن هناك اية محاولة للخروج بالنثر عن دائرة الموضوعات التقليدية فيما عدا بعض البوادر الملح اليها فى اصلاح الدينى والسياسى ، وان طرق التعبير المتبعة هى الطرق المتعارفة قديما وخاصة فى الانتاج الادبى البحت .

ولعل هذا الحكم لا يكون تاما الا بايراد بعض النماذج لهذا الانتاج ولو فى بعض الابواب ، لفرى كيف سار من الكتابة على الوئيرة التى ذكرنا ، ولئلا يخلو الكلام على هذا العهد من اعطاء صورة للنثر توضع فى مكانها من الاطار الجامع لادب المغرب .

من رسالة ادبية لحمد الفاطمى الصقلى (ت 1311) يعرض بشعراء وقته : (انه لما رخص الثمر ، بعد ان كان غالى السعر ، ودخل الكساد سوقه . تعاطاه بعد ذهاب اعيان ملوكه سوقه ، فمنهم قاطع فى سبله وسارق ، ومنهم مدع انه فرد ، وهو لصرى منه مارق ، ومنهم من يؤلف بين المفردات فقط ، ومنهم من على تدبيح الالفاظ سقط ، وكل هؤلاء لم تحل لهم عرائس المعنى ، بسفى ، ومن دون هؤلاء ببادق تطاول الفزازين ، بكونها تحسن الموازين ، بيد انها على غير القسطاس ، وآخرون غايبة مقدورهم تسويد القسطاس ، ومن هذه الفرقة شعبة تتمسك ، وتدين بطلب الاعراض وتترندق ، والكل اخطأت اسنه الحفرة ، ولم يجد محزا للشفرة) .

ومنها فى وصف روض : (بروض طوق جيده بالنهر ، وروص بساطه بالزهر ، واختالت اشجاره ، وانهارت انهاره ، وتفتح موسنه وشقيقه ،

وتطلع من خد الورد عقيقه ، وغض النرجس من الحياء طرفه ، ومد المنثور
اصابعها اذ فتح الفسرين كفه ، وابتسم ثغر اقحوانه ، وانصت الريحان
بأذانه ، وابدى الجلتار صبغ ارجوانه ، والبنفسج احد سنانه ، والخبور
ارخى عنائه ، والباسمين ترمى بالدرهم على الروابي ، والبطاح مفروشة
من ديباج الربيع بزرابي ، والخصام يدير الراح ، والحمام تثرى الامراح ،
والنسيم لاعطاف الغصون ثاقى . والاطيار تثقر وتغنى على العود فتزرى
بريات المثانى ، وبه منتزه يفوق الخورنق والسدير والزاهى ، والابلق وتصر
الرصانة والباهى ، والثمانينى والبديع والاويان . تكاد أبراجه تزاحم كيوان ،
لولا ان بانيه امك العنان ، لطاول راسه العنان) .

ومن مقامة لعبد السلام المحب (ت 1323) ، حكى الضحاك بن
بشير قال ضمنى يد الرفقة والعشرة ، مع اصحاب بفاس كالنجوم عشرة ،
بلوت شجرهم مرا وحلوا ، وخطبت صحبتهم فوجدتها من الموانع خلوا ،
رضعوا من الادب الاخلاق والاتواق ، وفطموا عن ضرعها الخلاف بالوماتق ،
طالما حنكتهم التجارب رغبة ورهبة ، وساقتهم الايام فرقة وغربة ، حتى
الدهم الاسنة والفوارب ، واختصت فيهم المشارق والمغارب ، وصارت
جميع البلاد لهم اوطانا ، والمنازل كلها اعطانا ، وكان لى فيهم صاحب
هو واسطة عقودهم ، وجة عنقودهم ، امتزجت روحى بروحه امتزجا ،
واعتدل طبعى بطبعه مزاجا ، اخلص كلانا لصاحبه جهره وسره ، ووثقنا
بخير موثقا فلم يتق شرى ولم اتق شره ، وحينما القينا عصا الترحال بفاس ،
وتخلصت الرحال بوضع ثقلها من مرة النفاس ، اصبحت الطرق بالقطاع
شاغرة ، وعوادي الفساد لاقوا الفتن ماغرة ، وامست السهول وهى
وعرة ، واعثرت الخيول بعرة ، واستنشرت بغاث الطير ، وانتشرت بغاة
الضير ، وذلك بشغب شيطان زعم انه من الملائكة ، واشداقه لحنظل الباطل
لائكة ، فاعوزتنا السيوف فزعنا للاقلام ، وارفعنا بصحائف الكلام صفائح
الكلام ، ماذا نحن جعنا ، لاقراص الاوراق رجعنا ، واذا نظما ، نظمنا نظما ،
وترانا لمرى ، اذا نقرنا نقرأ) .

ومن كتاب مواصل الجمان فى انباء وزراء وكتاب الزمان لمحمد فريط
(1364) وهو وان تاخر عهدده حرى ان يعد من ادباء هذا الجيل - يصف

الحالة الاجتماعية في المغرب قبيل اعلان الحماية : « وحسنت الاحوال ، بعد زوال تلك الاهوال ، فالوى الناس الى خضراء الدمن ، ومكتوا في هدنة على سخن وامن من تقلبات الزمن . وذهب بعضهم في اللهو والبطالة كل مذهب ، وركب في ميدان خلاعته الكميث والاصهب ، وتواخوا على الفحشاء ويبس ذلك الاخاء ، وسخوا ولكن فيما يحرم فيه السخاء ، وربما افسد النفوس الرخاء ، وصاروا في يوم الجمعة كما كان اهل الاندلس يوم السبت ، يفعلون معائل اصحاب الطاغوت والجبت ، من البروز الى خارج المدينة باطعمة واثربة وزينة ، ورنع الاصوات بالمواليات والازجال ، واختلاط النساء بالرجال متعطرات متبرجات ، كانهن بكل ناظر متزوجات ، وشكاية غرام ، واستنقضاء مرام ، ومعاطاة الكؤوس على المقابر ، كأنما اعيد لهم عمر الجاهلية الغابر ، وغير ذلك مما لم تحمد عواقبه ، وناحت به على حق المروءة والانسانية نواديه ، وعمت مصائبه ونوائبه ، كأنما ابيع لكل منهم فعل ما يحبه ويهواه ، وارضاء نفسه باسقاط من خلقه وسواه ، ولا ناهى عن معصية الله ولا آمر بتقواه . ولم يزل اولئك الشباب ، يلجون من الشهوات كل باب ، الى ان بلغت المهلة مداها ، فنبهتهم صيحة طبى المصور صداها) .

ان هذه الامثلة فيما نظن كافية لتصديق الحكم الذى قدمنا على النشر في عهدنا هذا من كونه يجرى على الاسلوب القديم وانه مع ذلك متين الحوك مما يدل على ازدهار الثقافة العربية على انه من وجهة النظر العامة يعطينا فكرة عن الحالة النفسية التى كان الشعب يعاني من اضطرابها ما يعاني نظرا لعدم استقرار الامن وانتشار الفساد فالصقلى اول من يبدأ في تصنيف الشعراء المزيفين يشبههم بقطاع الطريق والسراق . والمحب في مقامه يذكر كيف تعدد هو ورفقته عن الاسفار مع ولوعهم بها لكون السبل أصبحت مخوفة ، وغريط يندد بندهور المجتمع وينذر عاقبة السوء لماذا قلنا ان هذه القطع النثرية تمثل واقع المغرب ولو من بعض النواحي لم تكن مبعدين .

واما عن الشعر في هذا المهد فانه كان اغزر مادة واغوى انتشارا وذلك لان هذا الجيل من الادباء كان ينظر اليه نظرة خاصة ويعتبره الدليل

المعلى على صحة دعوى الادب . فمن لم يمارسه كان مزجى البضاعة
الادبية ، وربما كان مشكوكا في ابيه بالجملة ، ولهذا كثر الشعراء حتى
راينا الاديب المقل يزرى عليهم ويسخر من تطفلهم على مائدة الشعر
ولكن في زحمة هذه الكثرة من الشعراء المدعين كان يوجد شعراء مجيدون
لهم بصر بصناعة النظم وتصرف في المعانى الشعرية واقدام على القول في
جل ابواب الشعر المعروفة ، ولبعضهم ديباجة رقيقة تذكرنا بديباجة الشعر
الاندلسى الرقيقى .

سركنا قلنا في النشر انه لم يخل من نظرة الى احوال العصر ولو من بعض
الجوانب نقول في الشعر انه كذلك لم يغفل عن تمثيل الاحداث الكبرى
والتعرض لجريات الاحوال ، وان كان على طريقة الاقدمين التى لم يجد
الادب عنها في هذا العهد نثرا كان او شعرا

فمن تسجيلاته الاولى لحادث احتلال الجزائر قول الوزير محمد بن
الدريس (ت 1264) يحض المواطنين على النفر للجهاد :

يا اهل مغربنا حق النفر لكم	الى الجهاد فما في الحق من غلط
فالشرك من جنباث الشرق جاوركم	من بعد ما سام اهل الدين بالشطط
فلا يغرنكم من لسن جانبه	ما عاد قبل على الاسلام بالسخط
فعنده من ضروب المكر ما عجزت	من دركه فكرة الشبان والشطط
فواتح المكر تبدو من خواتمه	فعنده المكر والمكروه في نمط
وانتم القصد لا تبقن في دعة	ان السكون الى الاعداء من السقط
(من جاور الشر لا يعدم بوائقه	كيف الحياة مع الحيات في سبط)
قد يغبط الحر في عز بخلده	وليس حى على ذل بمفتبسط

لهذه الابيات البليغة في مبناها ومعناها تبرز عمق الشعور بالناجعة
عند الشامر ، وتصور مكائد السياسة الاستعمارية التى وهو وزير يلاى
منها الشدائد ، وان خرج ذلك كله مخرج العداوة الدينية والحرب الملية
لانهم كذلك كانوا ينظرون الى التوسع الاستعمارى الاوربى في القرن
التاسع عشر .

ولهذا الشاعر قصيدة طويلة قالها لما سقطت تلمسان في يد فرنسا
وهي على غزار القصائد التي كانت تقال عند سقوط مدن الاندلس في
البكاء على المعاهد والديار وتحويل المساجد الى كنائس وهتك الحرم
وسفك الدماء ونكسة الدين اولها :

يا ساكني الغرب الجهاد الجهاد فالكفر قد شارككم في البلاد
والشرك قد نصب اشرাকে متمعبدا بكيده للعباد

ويقول فيها :

واسطة المغرب تد حازها حوى الجزائر ووهرائها
مصائب صبت على معشر يكاد يقضى المرء من حرها
اخوانكم دينا وجيرانكم ساموهم هونا وازروا بهم
وطبعوا فبكم فكونوا يدا اضحوا رعايا الشرك بين اعاد
في الدين حتى ركنوا لارنداد فان تقاتلتم فانتم مراد

وكان لهذه النكبة المروعة سدى مماثل عند غير ابن ادريس من
الشعراء ، فلا تطيل بنقل اقوالهم .

وسجل الشعر كذلك وقعة تطوان بلسان اديبها المفضل ابيلال
(ت 1304) في قصيدة مشهورة

يقول في اولها :

يا دهر قل لي علامه نصبت له للدواهي
خففت قدر مقام ملكته لاعاد
للمدين يكي بدمع كسرت جمع السلامه
ولم تخف من ملاه للرفع كان علامه
ليست تماوي قلامه يحكيه صوب الغمامه

على مساجد أضحت تباع فيها المداخن

والملاحظة الوحيدة على هذا الشعر هي انه في غمرة الحزن وهول المصائب لم ينس النكت البديعية والمحسنات اللفظية ، لانها كانت من المقاصد البلاغية لأصحابه ، حتى صارت من وسائل التعبير عند بعضهم ، أما الضرب على وتر الدين فانه يمثل وجهة نظرهم الى انطلاقة الاستعمار الاوربي في القرن الماضي التي لم يكونوا يرون فيها الا استمرارا للحروب الصليبية ، وهي وجهة نظر لم تكن بعيدة عن الصواب ، ألم يقل الجنرال كورو لما دخل دمشق بعد الحرب العالمية الاولى وهو واقف على قبر صلاح الدين ! نحن هنا ؟ وكذلك اللورد اللنبي ألم يقل حين دخل القدس اثناء الحرب المذكورة : الآن انتهت الحرب الصليبية ؟ ان ادباؤنا ليسوا باقل غيرة دينية من هؤلاء الضباط الكبار الذين يمتلئون أعرق الامم حضارة في القرن العشرين ، ولذلك فان هذا الشعور الديني امام الاكتساح الاوربي كان يلزمهم حتى أننا نجد شاعرا مثل محمد المشرقي (ت 1334) يقول في مطلع رجزية مؤثرة يبكي بها المغرب عند قيام الحماية :

دع عنك داعي السرور والمزاح واسلك سبيل من بكى الدينوناح

يبكي الدين وهو يبكي المغرب :

وكذلك يقول طاهر الابفراني (ت 1374) حين توالى ارهاصات الحماية داعيا الى نصره الدين باعلان الجهاد في سبيل الله من تصيدة :

لقد انشعب الكثر المداخن نابه	ومد الى سرح الهدى كف ملسد
وكاد بأنواع المكائد اهله	لمصار ينادى خامسى وتبلدى
اسر احتساء في ارتقاء وماله	سوى الدين من مرمى برامومتصد
وتد بلخ السيل الزلى بظهوره	وان لم يداو العر بالكي يزدد
فقد طبق الصحراء بالنخس ثوبه	واعدى نواحي التل بالغبث الردى
وجاس على هاذى السواحل كلها	بيهر سفين بالقوارب مزيد
ولمسه به الدين الحليلى لماكسى	لما يشتكى من بقه ثوب مكمد
شجاء الاسى من لقد حر يهيمه	مكك فماه من يد المنرد

للحم العدا مخشوشن متعدد
باتقدام لبث في الكريمة محرد
وكف بصر بالطمان ممود
وتصميم عهد في الجراءة فرهد
عروس تهادي بين خود وخرد
قوى القرى عبل كصرح ممرد
مزلزلة ان يبرق السيف ترعد
صبى مع الولدان بالجوز مستد
تسطرها خيل اللقا بالنطود
ويكتب ربح الخط خط مجود

يقود اليه كل اصيد قارم
يجاهد في الله العظيم عدوه
يشب لظى الهيجا بقلب مشيع
واطراق ثعبان وكيد ثعالة
ويختال ما بين الصفوف كانه
على كل طرف سابح ومطهم
ببيض سيوف او بسمر مدافع
يلعب اطراف الرماح كانه
يخال مجال الحرب وجه صحيفة
فينتظ مدافع ويشكل صارم

وقد تجاوزنا من التصيدة محل الشاهد قصد تقديم هذه الصورة
البارعة التى صور بها الشاعر الحرب ، ويزداد اعجابنا اذا علمنا انه من
بادية سوس في صميم بلاد البربر .

وفي موضوعات الشعر الاخرى كان لشعراء هذا العهد جولات موفقة
تدل على براعتهم الادبية وحسن تفننهم في ضروب القول فمن ذلك نرى
النسيب قول الوزير محمد بن احمد كنسوس (ت 1294) :

وان كنت اتضى منه في بعض احيان
خماثل اثل في اجارع نمان
وفي طى احشائي نوتد نيران
بالحافظ مقروح الجوانح ولهان
على تلعات الحى ارواغ ثعبان
الى ساكن البطحاء وجدى واثجاني
فواها لهاتيك النواسم والبان
بكل سكوب اوطف الحصن هتان
وعيش تضيناه كهبة وسانان
على ما عراه من تقادم ازمان
فكيف هداك الله في الحب تلحاتي
اذا استحكت يوما بمهجة انسان

اذا عن تذكاري الاحبة احبائي
حنينا الى القوم الذين تلياوا
احن اليهم والمدامع وكف
منازل لا انك ارنو لشرطها
يذكرنيها البرق بهو كانه
وان صدح الورق السواجع هيجت
وان صاغت ابدى النواسم هياتها
سقى الله مصطفى هناك ومربى
فيا حبذا تلك العرامس واهلها
لمحبى لها ما زال يزداد جدة
خليلي ان الحب ليس بهين
وما هو الا لوعة عز برؤها

لما كان عراف اليمامة شافيا لجنة مجنون وغلة غيلان

وقول الكاتب ادريس بن محمد العمروى (ت 1296) :

ونارهوى المحبوب فى القلب لا تطنى يكر على صبرى فيهمزه زحفا ودمع مأتى العين قد ساجل الوطفا فهل ترتجى مما عرا بكم كشفا تجدد للصب المصاب بكم لهفا انار باحثائى لذكر اكم وجفا ورقوا لتهيامى فقد جاوز الوصفا وان اتم لم تسمحوا فابعضوا الطيفا فما نام طرقي بعدكم لا ولا اغنى	علامة اضرار المحبة لا تخفى وجيشى الصبايات المروع للحشا وكيف اوارى الحب او اكتم الهوى عريب النقا ماذا لقينا من الضنى اذا باكرت من بطن نعمان نسمة وان لمع البرق اليمانى موهنا بحق هواكم بالفؤاد ترفقوا اذا لم يكن وصل فوعد بزورة على انكم مذ غبتم هجر الكرى
--	---

فلى هاتين القطعتين نرى فنا رائعا وصناعة مستحكمة ونحس عاطفة مشبوبة وذوقا مهذبا ، مما يحملنا على القول بأن صاحبيهما ممن له الرسوخ فى الادب العربى ، والبذ الطولى فى نظم الشعر ، على اساليب القدماء من كبار الشعراء ولذلك فان اية قطعة منهما ، يصح ان توضع بجانب المختار من شعر النسيب ، فى اى ديوان عربى ، ولا تكون متخللة عما فيه

ومن شعرهم فى الوصف قول ادريس السنانى (ت 1319) فى روض :

روى يروق الناظرين بهيج فكلاهما فى بهجة وثنوع ان جلته تبنى انتشاق اريج قد عريدت اشجاره بمدامة والطير تشدو فى الفصون بنغمة لنسابه عند الصباح مسرة ابقاه روى زاهرا فى لخرة	سبان فيه الزهر والزليج يحسب النفوس بحسنه ويهيج واقاك دون الباب منه اريج شبه اللجين بديرها الصريج فى شدوها التفريح والتفريج والفصن غص والخليج يوج ما ييم الحرم الشريف حجيج
---	---

وهذه الابيات مما تلوح عليه آثار المغربية ، فان لفظ الزليج من
الأوضاع التي لا تستعمل الا في المغرب ، وكذلك الصهريج في الغالب ،
وهي من الشعر الرائق الذي يطابق الوصف فيه الموصوف حسنا وجمالا

ولحمد الفاطمي الصقلي في وصف خطيب متفامح :

خطيب فسى ترقيه خطوب	به الدنيا محياها تطوب
يذكر باتلا من عسى نطق	ترض به السامع والقلوب
يروم محسنات من بديع	وما حسناته الا ذنوب
يظن بانه يهذى بوعظ	نعم يهذى فتجتمع الكروب

وهو وصف بليغ لهذا الصنف من الخطباء الذين ابتليت بهم الامة
في عهود التأخر ولا تكاد تخلو منهم مدينة او قرية حتى وقتنا هذا . وينفى
ان يتببه الى ما في قوله « يروم محسنات من بدائع » من طغيان الزخارف
اللفظية واعتبارها مقياس البلاغة حتى عند الخطباء الذين فقدوا التأثير
بحرارة ايمانهم وقوة شخصيتهم فطلبوه بزور القول وسخف الكلام . وعليه
فلا غرو ان راينا ادباء هذا العهد يعنون العناية التامة بصناعة البديع
ويبتلون بفنونها الجميلة ، فمرصعون بها كلامهم ويجعلونها له كالحلبة
الغالية للحسناء الفانية . وذلك كما في ابيات الصقلي نفسها ، التي تبث
بمضمونها على السخرية وبشكلها على الاعجاب :

ولعل فيما ذكرناه من الامثلة كناية ، وان بقى موضوع المدح والثناء
وغيرهما . ولكن تتبع ذلك بطول والمقصود اعطاء نظرة عن الشعر في جملته
لا في تفصيله ، وهي حاصلة بما ذكرناه .

فجر النهضة

لم يكن ما طرا من تطورات على الحالة العامة في العهد الماضي الا تباشير بنجر النهضة الذي انبثق منذ العهد الثاني من هذا القرن ، فانبار السبيل امام العاملين في مختلف الميادين . وبما لا شك فيه ان حادث الحماية قد رج المغرب رجة نهيت الغافل ، وايقظت النائم ، ولكن سير الحوادث كما عرضنا له ، يدل على ان البلاد كانت تنلمس طريقها الى النهوض ، وان نخبة واعية من شباب الامة كانت تأخذ اهبتها لتسلم مقاليد الامور ، كى تدعم كيان الدولة وتحقق اصلاح المنشود ، وما خلع السلطان عهد العزيز والمطالبة بالدستور الا مظهران من مظاهر الانبعث واليقظة التى سبقت الحماية ، وكانت حرية ان تجنب المغرب ويلاتها ، لولا ان كلمة الدول الاستعمارية اصفقت عليه وقرفته من مصرعه .

واذن فنحن بازاء عوامل مختلفة لانبثاق فجر النهضة ليست الحماية الا واحدا منها ان لم نقل انها كانت باعنا على تعزيزها وانتشارها . وهذه العوامل هى :

اولا - التعليم الحديث وقد راينا ان المغرب بذل جهدا غير قليل في سد حاجة الدولة من المتعلمين في العهد الماضي ، بارسال البعثات العديدة الى بلاد اوربا وتوظيفها في المصالح الحكومية المختلفة ، بعد عودتها وانمام تحصيلها . وهذه البعثات وان لم يكن لها اثر في التعليم العمومى الا ان تأثيرها في توجيه الانظار الى التعليم الحديث وضرورة تزويد البلاد به ، كان كافيا لقيام نهضة تعليمية حقيقية . فاهتم الناس بتعليم ابنائهم تطيما حديثا بادخالهم الى المدارس الاجنبية ، وارسلهم الى كليات اوربا والشرق العربى . واهتمت الدولة كذلك بتأسيس المدارس المصرية ، ولكن سلطات

الحماية كانت تضع العراقيل في هذا السبيل ، فلا تسمح الا بقليل منها ناهيك بأنه الى انقضاء عهد الحماية لم يكن في المغرب الا ثلاث ثانويات حكومية ، ولم يكن في مجموع مدارس الحكومة اكثر من خمسين الف تلميذ وهذا الى فرنسة التعليم التي فرضها المديرون الفرنسيون فرضا ، سواء في المدارس الابتدائية او الثانوية . لذلك عول الشعب على نفسه ، وقام بانشاء عدد عديد من المدارس الحرة ، لاستيعاب اكثر ما يمكن من التلاميذ الذين لا يجدون مقاعد في المدارس الحكومية ، ولقاومة الفرنسية المفروضة في تعليم ابنائه . واما التعليم العالي فلم يكن اليه من سبيل الا في الخارج ، باستثناء التعليم الديني الذي تقوم عليه جامعة القرويين . ولم كان يلاقي الطلبة من صعوبات في الحصول على جواز السفر الى الخارج وفي التوصل بالنقود التي تلزم لنفقتهم ، ومع ذلك فقد كانت المهمة التي تحدد بالمواطنين الى التعلم ورفع راية العلم ، تتغلب على جميع تلك الصعوبات .

ثانيا — الاصلاح الديني المتبلور في الدعوة الى السلفية . فقد كان من رد فعل السيطرة الاستعمارية وظهور امر الاجانب ، ان العلماء قاموا بذكور الشعور الديني في العامة ، ويندبونهم الى الجهاد ويحضونهم على النسك بالكتاب والسنة ، وهجر البدع والاهواء التي انحرفت بالامة عن سبل المؤمنين ، وهدى السلف الصالح . وقرئت كلمتهم وجعلتهم طرائق قددا . وقد ارتفعت هذه الدعوة ، من منابر الخطباء ، وحلقات المدرسين ، وكتب فيها الكتاب وحاضر المحاضرون وكان الذي يتزعمها بجدارية ويضفي عليها الصفة العلمية الخليفة بالقبول ، هو الشيخ ابو شعيب الدكالي (ت 1356) ذلك العالم المصلح الذي تفيضه الله للمغرب في هذه الفترة ، فجدد سند العلم ، واقام للسلفية منارا عليا بما اوتى من التبحر في علوم الكتاب والسنة ، وما كان له من الفصاحة والمعرفة بطرق الاقتناع ، فضلا عن خبرته باحوال العالم الاسلامي التي اكتسبها في جولاته بالشرق ، وكان يلي وزارة العدل فزاده الجاه هبة في النفوس ، وتأثيرا على الخاص والعام . ووجدت هذه الدعوة قبولا لدى الشباب المتعلم ، فناصرها ، وتطور امرها عنده الى الوقوف في وجه اصحاب الطرق الصوفية ولا سيما الزيلون منهم . ونشأت معركة عنيفة بين الطرفين

كانت تجد لها متنفسا في صحافة تونس والجزائر ، اذ كانت الصحافة بالمغرب قليلة وغير مكنولة الحرية . وفوق ذلك كانت السلطات الاستعمارية تعضد الطرقتين وتحارب الشباب وثة الإصلاح . واستشرى الخلاف حتى انقسمت البلاد الى معسكرين ، معسكر الطرقتين ، ويرمى الشباب بالمروق من الدين ومعاداة اهل الخير والصالح . ومعسكر الشباب ، ويتهم الطرقتين بمالاة الاستعمار واستغلال الدين لبلوغ المآرب الشخصية . وهذه الحركة خلقت نشاطا فكريا عظيما الا انها تجاوزت الحد ، فلذلك لما قدم الامر شكيب ارسلان رحمه الله الى المغرب في زيارة خاصة سنة 1930 وكان يحظى بتقدير عظيم في جميع الاوساط المغربية ، الح على الشباب العامل في ايقافها او سلوك سبيل الاعتدال فيها ، والاهتمام بما هو اوجب منها من المطالب السياسية والحقوق الوطنية . وبين ان الطرق الصوفية ليست كلها على ضلال وان بعضها يقدم خدمات عظيمة للاسلام في افريقية السوداء ، كما سجل ذلك بعد في تعليقه على كتاب حاضر العالم الاسلامي

ثالثا - النهضة الشرقية التي بلغت في هذا التاريخ الى طور النضج والانتاج ولا سيما في مصر ، وكانت آثارها ما بين علمية وادبية وفنية ، في الكتب والمجلات والصحف تصل الى المغرب فتلتفحها الابدى بتلهم عظيم . ومنها آثار الشيخ محمد عبده وتلميذه الشيخ رشيد رضا واستاذهما السيد جمال الدين الافغانى ، في العلم والإصلاح والمنفعة عن الاسلام وآثار الكاتب مصطفى لطفى المنفلوطى والاستاذ محمد فريد وجدى والعلامة محمد كرد على والمؤرخ جورجى زيدان في الادب والاجتماع وآثار الشعراء شوقى وحافظ والزهاوى والرفاق في الشعر الجديد وغيرهم من اعلام الفكر والسياسة كمصطفى كامل وسعد زغلول وتلك الطبقة . انها كانت مدرسة تخرج فيها الجيل الاول من رجال العلم والادب والوطنية الصحيحة الذين بثوا انكارهم في النثر الجديد ومهدوا السبيل للنهضة المغربية العتيقة فكانوا صلة الوصل بين الماضى الفابر والحاضر الزاهر ومن طريق هذه المدرسة عرف المغرب اتجاهات الفكر الحديث في الفلسفة والادب واطلع على تاريخ الحضارة وتقدم العلوم في اوربا ، لمانها كانت تخاطبه بلفته ، وفي الوقت نفسه تقدم اليه احسن آثار المفكرين

والادباء الغربيين مترجمة الى العربية ، فيطلع منها على ما لم يتح له الاطلاع عليه لانصاف المثقفين باللغة الفرنسية ، الذين كان الاستعمار يحرص على ان يجعل منهم موظفين صفارا وحسب . وفي دنيا الفنون كان للفناء الشرقي ولا سيما الحان الاناشيد الوطنية المدرسية اثر عميق في الاوساط الموسيقية وزارات البلاد بعض الفرق التمثيلية من مصر وتونس ، فتعرف المغرب منها على فن المسرح ، وتنشط شباب هذا الجيل في محاكاة ما عرضته من القطع المختارة ، وكان ذلك سبب نشوء المسرح في المغرب وبالجملة فان تاثير النهضة الشرقية على تطور الحياة الفكرية بالمغرب كان عظيما جدا

رابعا - وقبل كل شيء وبعده ، الحماية ومقدماتها ونتائجها التي كانت حافزا لجميع طبقات الشعب على المقاومة بحد السلاح في المدن والقبائل ففى فاس بمجرد اعلان النبا المشؤوم اندلع لهيب الثورة ، التي عرضت المدينة لهجوم جيش العدو وقذفها بالقنابل حتى استسلمت . وتبع ذلك وقوع حروب شديدة بين جيش الاحتلال والقبائل المغربية ، في الاطلس المتوسط والاطلس الكبير وتافيلالت والشاوية والناحية الجبلية في الشمال والريف واستمرت المقاومة في بعض هذه الجهات الى سنة 1936 وكانت الحرب الريفية ضد اسبانيا اولا ثم فرنسا ثانيا بقيادة البطل محمد بن عبد الكريم الخطابي . اعظم حروب المقاومة للحماية . واشتهرت وقائعها في الداخل والخارج ومنها واقعة انوال التي سحق فيها المجاهدون الريفيون جيشا اسبانيا يتكون من عشرين الف مقاتل ولما رأى الفرنسيون ان خطر هذه الحرب . يتهدد منطقة نفوذهم وانهم يوشك ان يطيح بالحماية اصلا ، لفرنسية واسبانية هبوا لمساعدة الاسبان وتكالبت قوات الدولتين على بطل الريف العظيم فاضطر الى التسليم سنة 1926 ان المقاومة المسلحة تكون الى جانب العوامل المتقدمة عاملا قويا في النهضة . ولئن كانت تلك العوامل سببا مباشرا في البعث الادبي . فان هذه تسببت بواسطة تنمية الوعي القومي في مضاعفة الجهود العاملة لذلك البعث . ومن ثم قلنا ان الحماية ، والمقاومة انما نشأت عنها ، لعلها ان تكون من البواعث على تعزيز عوامل النهضة وانتشارها اكثر من ان تكون عاملا بذاته

وبستطيع الباحث ان يضيف عوامل اخرى الى هذه كالحلولة الاولى
التي جرت لاصلاح القرويين ، وذلك في ميدان التعليم . واتساع حركة
المران وما ادى اليها من التجهيزات الضرورية كوسائل المواصلات
الحديثة ، وهذا في ميدان النطور الحضارى ، والاختلاط بالاجانب الذين
انتشروا في اطراف البلاد ، انتشار الجراد ، وكان له اثره البالغ في الميدان
الاجتماعى . الى غير ذلك من الاسباب الجزئية والكلية التي اثرت في الحالة
العامة للمغرب ، ولكنا نعتبرها داخلة فيما ذكرناه من العوامل الاساسية
ومندرجة تحتها ، لا سيما وبعضها قد كان له اثر سىء في فساد الاخلاق
وتدهور المجتمع . وهو هذا الآخر ، نذكره انما يكون لتسجيل ظاهرة
من ظواهر التأخر لا التقدم .

واذا نظرنا في النتائج الاولى لهذه العوامل ، وما كان لها في الحياة
الفكرية من اثر عاجل ، نجد ان تحولا فكريا عظيما ظهر في الاعمال العلمية
والادبية التي اُنجزت في هذه الفترة . فبينما كانت المحافظة هي طابع العهد
الماضى اذا بالتبار التحررى يسرى الى الافكار والمنشآت ، ويصبح هو
القاعدة المحكمة . فالعلماء صاروا يعولون على البحث والنظر اكثر مما
يعولون على الحفظ والرواية ، والادباء يحرصون على التجديد والابتكار
ويتخففون من التقليد والاتباع واصبح الاتجاه العام لدى الجميع ، هو
مسايرة ركب التقدم ، والتكيف بروح العصر . عكس ما كان عليه الحال
قبل من عزلة عن العالم وبعد مما يجد فيه . والحقيقة ان الانقلاب الذى
حصل ، نتيجة للعوامل السابقة ، كان من السرعة بحيث يكاد يعد من
الطفرة ، وهو امر يدل على ما يمتاز به الشعب المغربى من قابلية للتطور
واستعداد للنهوض . وقد شهد بذلك حتى الاجانب ، ففى التقرير السرى
الذى رفعه المارشال ليوطى الى الحكومة الفرنسية سنة 1920 يقول
« اننا وجدنا هنا دولة ووجدنا شعبا . واذا كانت الدولة المغربية قد مرت
بازمة فانها ازمة حديثة وحكومية اكثر منها اجتماعية . ان جمهرة الشعب
المغربى ليست مصابة بالخمول الذى يوصف به المسلمون في الشرق ، بل
هى بالعكس نشيطة عاملة متلهفة على طلب العلم ، مستعدة للتجديد
اننا لسنا امام سكان مطربين همجين ، بل نحن امام شعب يمتاز عن بقية
شعوب الشمال الامريكى بالاستعداد للتطور وبرد الفعل السريع الذى

يكلف ثمنًا غالبًا لاى تصرف غير حكيم يرتكب ضده « ولعل فى هذه الفقرات ما يبنى عن القول بأن المغرب شق طريقه بنفسه الى النمو والازدهار وان كانت الحماية تقف فى وجهه حجر عثرة ، وذلك لما اوتى من ذكاء خارق ، وطرح نادر ، يحفزانه الى مواصلة الكفاح من أجل اثبات وجوده وابرار شخصيته .

ولقد كان الشعار الذى عمل تحته فى هذا الطور كل المخلصين ، هو العلم ، لانه اعتبر سفينة النجاة . فمكنت لا تسمع ولا تقرا الا ما يركز فكرة العلم ، وانه الوسيلة الوحيدة للانتقاذ ، والقى احد الفئز محاضرة جعل عنوانها (العلم والا الموت) فاصبح هذا العنوان على كل لسان ، وصار هو الكلمة المعبرة عن ارادة الشعب

وتام العلماء بدورهم فى المعركة ضد الجهل ، وفى تنوير الراى العام فكان الشيخ ابو شميب الدكالى ، كما معنا اليه ، رائد الجماعة التى حاربت الخرافات والبدع والشعوذة والتدجيل ، واحيت السنة واعلمت منارها وارتفعت بالمفهوم الدينى عن المستوى العلمى والمثبولوجى الى الحقائق الثابتة والقيم المثلى . وسار على اثره فى ذلك تلميذه الفقيه محمد ابن العربى العلوى الذى حظى باعجاب الشباب ، لمشاركته فى الحركة الوطنية وتحمله نصيبه من الاذى فى سبيل ذلك . وكان للاستاذة الكبار محمد السائح (ت 1367) ومحمد الحجوى (ت 1376) والمدنى ابن الحسنى (ت 1378) يد طولى فى نشر علوم الفقه والحديث والتفسير والعربية والادب ، فى دروس جامعية من المستوى الربيع ، الى جانب غيرهم من عشرات المشائخ ، الاساتذة فى القرويين والمعاهد الدينية الاخرى فى مختلف انحاء المغرب ، الذين لم يفتأوا قباما على اداء هذه الرسالة المقدسة ، رسالة العلم والثقافة الاسلامية العربية وقد كان عمل هؤلاء العلماء مفيدا جدا فى تصحيح الفكرة الدينية لدى العموم ، وتكميل النقص الذى بدا فى حركة التعليم الحديث ، من حيث خلوه من دروس العربية والدين . وبذلك تلاتى المنقنون الجدد ومشيخة العلماء على صعيد العمل الموحد للنهضة العلمية فى البلاد .

وكما تطورت أساليب العلماء في التدريس تطورت أساليبهم في الكتابة والبحث . فتناولوا شتى الموضوعات بروح علمية عالية ، وأخرجوا الدراسات المنوعة المستوفية من حيث الفكرة والمنهاج للشروط المطلوبة ، فنشر محمد الحجوى كتابه القيم الفكر الساسى في تاريخ الفقه الاسلامى . ونشر محمد السائح اول كتاب للمنتخبات الادبية يشتمل على تراجم لادباء مغاربة واندلسيين ونماذج من انتاجهم ، وذلك للاستعمال المدرسى . كما نشر محمد اقصى (ت 1364) اول كتاب مدرسى لتعليم القراءة والكتابة على الطريقة الحديثة . وفى خصوص المباحث التاريخية كتب محمد بوجندار (ت 1345) تأليف محررة مثل شالة وآثارها ومقدمة الفتح لتاريخ رباط الفتح . وكتب النقيب عبد الرحمن بن زيدان (ت 1365) تاريخ مدينة مكاس فى عدة مجلدات نشر منها خمسة وكذلك نشر العباس بن ابراهيم (ت 1378) خمسة مجلدات من تاريخه لمدينة مراكش . ونشر عبد الحى الكتانى (ت 1383) كتاب فهرس الفهارس فى مجلدين وكتاب التراتيب الادارية كذلك . ونشر احمد الرهونى (ت 1371) كتاب تقريب الانصى من تاريخ الاستقصا واللؤلؤ الحطيب من كتاب نفع الطيب وكتبا اخرى تعليمية ، وله كتاب عمدة الراوين فى تاريخ تطاوين فى مجلدات الا انه لم ينشر ونشر محمد المير كتاب الابحاث السامية فى تاريخ المحاكم الاسلامية فى مجلدين ونشر عبد الحفيظ الفاسى كتاب المدهش المطرب فيمن لقيمهم من شيوخ المغرب . ونشر احمد الرجراجى كتاب الشمسوس المنيرة فى اخبار مدينة الصويرة وهو جزء لطيف فى اعمال اخرى لغير هؤلاء العلماء لا نقل عن هذه وزنا وقيمة .

والواقع اننا اذا اعتبرنا دلالة اعمال العلماء من الناحية العلمية الصرف ، حكمنا بأن العهد عهد نهضة متكاملة لا فجر نهضة لمقط كما يقضى عنوان الحديث . ولكنا نستطيع ان نؤكد ان هؤلاء النوابغ كانوا ممن سبقوا زمانهم بكثير فجاءت اعمالهم على قدر همتهم لا على قدر زمنهم . ولا ادل على ذلك من انهم لم يخلقوا مثلهم الا فى القليل

ولم نحظ بالحركة الادبية بمبائرة يتخطون بها مراحل التطور ، فسارت فى طريقها الطبيعى ولكنها مع ذلك قطعت شوطا بعيدا نحو

النمو والازدهار ، ونزعت نزوعا بينا الى التجديد والابتكار والظاهرة الاولى التى تلفت نظر الباحث ، هى تحليل الكتاب من قيود النثر الفنى الذى كان اسلوبهم المفضل للتعبير فى كل موطن ، من الرسالة الاخوانية الى تاليف الكتب بل كان دليل التفوق عندهم وعلو الكعب فى صناعة الكتابة فبعد ان كنت لا تعثر على اثر نثرى كتب بطريق الترسيل الا نادرا . صرت لا تجد من يكتب بطريق السجع الا فئة قليلة بقيت محتفظة به كما يحتفظ بأحد الآثار الجميلة . وهى الى الجيل الماضى اقرب منها الى هذا الجيل . ومن خصوص افرادها محمد غريب الذى نزلنا نموذجا من نشره فى الحديث السابق ومحمد بن موسى الذى هو البقية الباقية من اعلام هذا الفن

وليس العجب ممن احتفظ بأسلوبه من هؤلاء ، بل العجب ممن انقلب فى فترة قصيرة كهذه من كاتب راسخ القدم فى التسجيع ، الى كاتب بارع فى الترسيل . ونعطى مثالا على ذلك احمد بن المواز (ت 1341) فان من يقرأ كتابته فى الرسائل السلطانية والاعراض الاخرى فى العهد الماضى ثم يقرأ كتابه حجة المنذرين الذى وضعه فى هذا العهد ، يجد البون شاسعا بين الاسلوبين ، اسلوب الالتزام البديعى واسلوب النثر الحر المتدفق تدفق ينبوع الثرى . ومضلا عن ذلك فانه يجد فى هذا الكتاب تنوعا فى الموضوعات التى طرقتها يتجاوز حدود ما كان الكتاب قبله يعنون به . ويجد كذلك تعمقا فى تناول هذه الموضوعات ، وخاصة منها موضوع سياسة الحكومة بعيد مرض الحماية ، مما يقرب من الكتابة السياسية التى ظهرت فى الصحافة الوطنية بعد ذلك . وكان اكثر ما يهدف اليه من هذه الكتابة التوجيه والارشاد ، وربما قصد الى الانتقاد ما فرغ ذلك فى شكل مذكرات عن احاديث جرت بينه وبين احد رجال الحكومة ، او مواقف لبعض ابطال التاريخ ، معززا ذلك بالنصوص التشريعية من القانون الدولى وغيره ، فالرجل كان شخصية ادبية وسياسية مذة : وقد تولى المناصب العالية فى العهد الماضى وكان هو الذى حرر البيعة الحفيفية التى قيدت السلطان الجديد عن التصرف المطلق فى مقدرات الدولة .

ومن هذا يظهر ان التطور الذى اصلب النثر لم يقتصر على الشكل

بل اصاب المضمون ايضا . فقد اقدم الكتاب على طرق الموضوعات الاجتماعية والادبية والفلسفية والسياسية . وحلت المقالة في ذلك محل الرسالة وظهرت الخطابة الاجتماعية والسياسية بعد ان كانت الخطبة دينية فقط . وظهرت كذلك المحاضرات العلمية والادبية ونشطت نشاطا ملحوظا . وهذا الى تجديد اسلوب التأليف الذى اشرنا اليه آنفا .

ولعل تصديق هذه الاحكام انما يتم بايراد الشواهد عليها فلنقدم بعض النماذج لكل ما ذكرناه من ضروب النثر التى نشأت في عهدنا هذا .

من ذلك في النثر العلمى ما كتبه محمد الحجوى في فصل الفقه قبل الاسلام من كتابة الفكر السامى في تاريخ الفقه الاسلامى قال « اعلم ان الاسلام وجد الامة العربية امية لا تقرا ولا تكتب ، ولم يكن لديها علوم مدونة في الكتب ، تدرسها في مساجد او مدارس . وان وجد لديهم معرفة بطوم تدعو اليها ضرورة حياتهم البدوية كعلم النجوم والقبانة والعيانة والاتساب وغير ذلك مما نسب المؤرخون لهم معرفته وحفظ بعض تواعده . ومن هذه الانواع ما كان لهم من الالمام ببعض ضوابط فقهية يفصلون بها خصوماتهم كقولهم في القصاص القتل انفى للقتل ، والدية على العاقلة في الخطا ، وكما يؤثر عن عمرو بن العاص احد حكام العرب قوله في الخفنى القضاء يتبع المبال ، وفي النسائى وغيره ان القسامة كانت في الجاهلية وتضى فيها بين اناس من الانصار ادعوه (اى القتل) على يهود خيبر ومن ذلك معرفتهم بعض مناسك الحج . وكانوا يصومون عاشوراء كما في الصحيح ، بل كانوا يتحنثون في رمضان بالصوم كما يدل عليه حديث بدء الوحى وقوله تعالى : « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم » وقد ثبت اغتسالهم من الجنابة واختتانهم . وكان لهم نكاح بخطبة ومداق كما يدل له خطبة ابى طالب لخديجة زوج النبى (ص) وهى مذكورة في السير محفوظة فلا نطيل بها . ولهم طلاق وظهار ، فقد ثبت في النسائى وغيره ان خولة زوج اوس بن الصامت اتت النبى (ص) فقالت ان زوجى ظاهر منى فامرها بفراقه فلما نزل قوله تعالى : « قد سمع الله قول الذى تجادلك في زوجها وتشكى الى الله » الآية نسخ الطلاق بالكفارة تخفيفا من الله ورحمة . ويظهر ان تلك الاحكام كانت عند العرب من بقايا شريعة اسماعيل وولده ابراهيم عليهما السلام ، فلما جاء الاسلام اقر ما اقر

ونسخ ما نسخ . ومن جملة ما نسخه القرآن نذر الجاهلية لغیر الله المبین فی قوله تعالى فی الانعام : « وقالوا هذه انعام وحرث حجر لا يطعمها الا من نشاء بزعمهم وانعام حرمت ظهورها وانعام لا یذکرون اسم الله علیها افتراء علیہ ، سيجزيهم بما كانوا یفترون . وقالوا ما فی بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم علی ازواجنا وان یکن میقة فهم فیہ شركاء » وقال تعالى : « ومن الانعام حمولة وفرشا کلوا مما رزقکم الله ولا تتبعوا خطوات الشیطان الی قوله ام کتتم شهداء اذ وصاکم الله بهذا » وقال فی سورة المائدة : « ما جعل الله من بحیرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ، ولكن الذین کتروا یفترون علی الله الکذب » فهذه الآیات بینت نظام الانتاج فی الحرث والانعام الذی کان عند مشرکی العرب ، جعلوا نصيبا منه لاوائنهم یاخذوه مدنتها ، ونصيبا للفقراء . وما هو للاوائن انفسام ثلاثة الاول حجر لا یطعمه الا من یشامون الثانی انعام حرمت ظهورها والثالث انعام لا یذکرون اسم الله علیها وهی السائبة والبحیرة والوصيلة والحامی . فالفی الشرع ذلک وترر نصاب الزکاة فقال وآتوا حقہ يوم حصاده . وترعهم بقوله ام کتتم شهداء اذ وصاکم الله بهذا الآیة .

لهذا مثال ما کان عند العرب من الفقه ، وهو ضوابط قليلة الاهیة لیست کانبیة فی بابها ولا رادعة لاهل الفساد والدعارة ولا وانبیة بالنظام الاجتماعی لهذا بقیت الامة العربیة متفرقة الاهواء ، فاقدة النظام ، تخوض بحار الحروب لقتل نفس بل لضربة او سبة . لمتقطع السبل وتذهب الحقوق وتنقطع المواصلات والمعاملات ، الا فی الاشهر الحرم لمكانوا فی جاهلیة جهلاء یفنفخون فی اشعارهم لادی منتدیانهم ، یقطع السبل وقتل النفس وسلب الحقوق وغیر ذلک من الاعمال الشنیعة ، وانما وازعهم الذی امکنهم من الحیاة وبقاء الجنس العربی هو العصبیة القومیة ، فمن کانت له عصبیة فی قومہ دافع بها عن حقوقه ، والا حالف قوما آخرین فکان تحت ذمتهم یدافعون عنه علی اصول معلومة عندهم ، حتی ان الحلیف کان یرث حلیفه ، الی ان جاء الاسلام فعند ذلک عرمت الحقوق بمعرفة الفقه وصار لها المقام الاول فی الاعتبار ، والرکن الاعظم فی الازهان ، ونسخ حکم التحالف بوجوب التناصف »

ففى هذا النص دراسة منهجية لموضوع الفقه قبل الاسلام محبطة به من جميع جوانبه ، تدل على ما كان لعلماء هذا العهد من بعد نظر وسعة اطلاع . وهو الى ذلك نموذج من النثر العلمى قوى الاسلوب واضح الدلالة خالى من التكلف والفضول . ونكتفى به فى هذا الباب فلكثر نشر هذه الطبقة من هذا الطراز .

ومن النثر المسجوع ، وتد صار لندرته كالثمامة فى وجه الحسناء ، ما كتب به محمد بن موسى عن الخليفة السلطانى مولاى الحسن بن المهدي وكان يلى وزارته ، تقرظا لمؤلف اهدى اليه « انسان عين الفضل والنجابة ، ولسان صدق الاحسان والاصابة ، الفقيه العلامة الاديب السيد فلان ، وصل الله حبلك باعنة الصواب ، وايد فضلك بطرائف الحكمة وصل الخطاب ، تلقينا من طرفتك الضاربة فى الابداع بسهم مصيب ، والاخذة فى طول الباع بالفرض ومن قوة العارضة بالتعصيب ، متحفا بعنت به آثار ملوك المغرب وامرائه من مراقدها ، وجمعت فى آفاته من نتفهم الادبية بين اوانسها وشواردها ، فكان لك الفضل فى احياء هذا الضرب من الادب العربى بعد اندراسه ، والترويح عليه بصدق العزيمة حتى تحرك بعد خلود انفاسه ، ولا غرو فقد ناسبت براعتك بين رؤسه ومناكبته وناسقت بين درره الثمينة وكواكبه ، وشارنت به اندية الادب فى طراوة انائه وبهجة مواكبه .

كالغواذى اظهرن كل جنى مستتر فى زهرات الرياض

شكر الله سميك المبرور ، وخلد عملك غرة فى جبين الدهور ، والسلام عليك ورحمة الله .

ان الملاحظ يرى فى هذا المثال ملكة راسخة تتصرف فى الكلام كما نشاء ، حتى ان السجع لمطاوعته للكاتب يدخل فى صميم الفكرة التى تعبر عنها الفترة او الفقرات . ويرى صور المعانى كما تعرض المثلثات القديمة ، تسجل احداثا جديدة ، فبجانب الصورة المتزعزعة من علم الفرائض ، صورة متحف الآثار الذى هو من مثشات الحضارة المصرية ، وبذلك يكون التجديد شمل حتى هذا الفن الذى اصبح يعد من الآثار القديمة .

ومن الكتابة السياسية ما جاء في حجة المذنين لابن المواز ، متعلقا بموضوع امتناع الحكام عن مشاركة الرعية في اسباب المعاش : « ومن الاساسات التي اتفقت عليها حكماء السياسة ان من لوازم السلطان ونوابه في حفظ المملكة ، ان لا يشاركوا الرعية في تجارة ولا فلاح ولا غيرها من التكبس لما في ذلك من الالآت التي تنفض الى الخراب ، لقوله (ص) ايها وال اتجر في رعيته فقد هلك رعيته وكان لعمر بن عبد العزيز سفينة يكثرها لحمل الطعام وبيعه بالمدينة ، فلما اخبره محمد بن كعب القرظي بهذا الحديث ابطل ذلك وتصدق بذلك الطعام قال علماء السياسة الشرعية ، ان المتولى اذا زاحم الرعية في التكبس لا بد ان تحصل امور ، منها المضايقة لهم مع ما هم مطلوبون بادائه ، ومنها انه يؤثر نفسه باغراضه في ذلك ، ومنها انتزاع الشيء منهم بشئ يسير ، ، ومنها الزام الرعية بشراء مبيعاته بالفلاء ثم يبيعها المشترون بخوسة فيخسرون ، الى ان قالوا وهذا كله يعود على جباية الرعية بالتلاشي ، لانه اذا تعد التاجر وتلاشى الفلاح اضمحلت الرعية وذهبت الثروة جملة ، فجاحت الجباية ، وفي الحديث تهلك هذه الامة بالحرص كما هلك من قبلها بالطمع وجناب مولانا المنصور بالله اول من يعرف بهذه الارشادات واكثر اهتماما بالمحافظة على قواعد الامدادات والحمد لله »

ومنه في سبيل النصح للسلطان والدفاع عن حرية الامة المغربية ، « ومن واجبات الجلالة السلطانية ايمان النظر في كتب القوانين الدولية ، وتواريخ المعاهدات ومنشأ التضمينات الحربية ، التي كان اول من اخترعها نابليون الاول ، والامور التي كانت ترتكب في الحروب قديما زمان التوحش ، وما تقرر به قانون الدول الناسخ لذلك بعد تقرر المدنية فكل ذلك مما نجب معرفته على من استرعاه الله ، ليعرف المقاصد الموافقة والمباينة فمن ذلك ما الصبح منه كتاب حقوق الدول في القسم الثاني منه ، وملخصه انه منذ تقرر قانون التحكيم لم يبق موجب للحرب قال وكذلك لم يبق وجه للقاعدة الظالمة وهي كون القوة تتقدم على الحق . ثم قال وبذلك تامن ارواح البشر والاموال من التبدد ، وانما كان يرتكب ذلك في زمان الوحشية . وقال ايضا في مادة (390) ان الاهالي الذين لم يدخلوا حربا لا يجوز سوء المعاملات والتعديت عليهم لانه من حيث ان امنية الاهالي وحريتهم الذاتية واغراضهم

وناموسهم معدودة من الحقوق الشخصية فلا يمكن أن تختل أو تنقص رعايتها ولو بسبب الحرب . وصرح أيضا في مادة (369) بأنه لا تجوز محاربة اقوام عائشين في العالم لسبب توسعة دائرة تقدمهم ومع اجتنابهم الاضرار بغيرهم وقال ايضا ، ان المتغلب في مملكة بوجه الثورة لا تعتبر معه معاهدة ولا معاملة الا بعد ايام الاعتراف به من الدول واتفاق الامم . وكذلك صرح في مادة (441) بأن قانون الجنود اذا استولوا بالقوة على قوم واحتاجوا للمؤن فلا يحمل على الاهالى الا ما يطبقونه ، ومن اللازم ان يكون ذلك بالاعتدال . ونص على ان القوة يجب ان تكون على نسبة المستولى عليهم ، ولا يرتكب فيها مالا يطاق من الدواهي الماحقة والا فهم من خوارق القانون . فهذه القرارات التى سجلها قانون المدنية والانسانية توجب الوقوف مع حفظ حقوق الاهالى ولو بعد الحرب . وعليه فالمحميون لمقط يكونون احق بها ذكر من كمال الرعاية ، واولى بمراتب في جميع ذلك ، حتى لا يغشاهم من النوائب غيب ذلك » .

ولا يخفى ما في هذين النموذجين من افكار سياسية صائبة ، ونوجيهات صحيحة في الحكم والادارة — الى ما يتضمنانه من نقد للوضع القائم بعد الحماية وتعريض بتممرنات المسؤولين ، مما يدل على يقظة فكرية عظيمة وغيرة وطنية كبيرة . والمهم هو الاسلوب الذى اديت به هذه الافكار ، فهو اتسبب بأسلوب الصحافة السياسية التى يكون وكدها وضوح الفكرة وقوة الحجة ، لا تنبيق الالفاظ وزخرفة الكلام ، والمجيب ان يكون هذا اسلوب كاتب تعود منذ نشأ على تحجير الرسائل والمنشورات بطريقة النشر الفنى المثلل الحوائى بالمحسنات والبديع ولكننا نعرف ان ذلك أحد مظاهر التطور الذى طرا على الحركة الادبية في هذه الفترة من الزمن ، وان ابن المواز صاحب هذين النموذجين من اصدق امثلة ذلك التطور

ومن المقالات في الشؤون الاجتماعية وغيرها ما كتبه محمد السليمانى (ت 1344) في موضوع التبذير والاسراف ، « علمتنا الشريعة السحاء طرق الانتصاد وهذان الكتاب العزيز والسنة النبوية اليه ، وبرهنت اقوال السلف الصالح عليه ، وذلك ان الانتصاد مركب من بذل وامسك ، بحيث لا ييسط المرء يده كل البسط حتى لا يبتى فيها شيئا ولا يقبضها كل القبض حتى لا يخرج منها شيئا ، بل يقيم البنية بحسب وفره ، على قدر غناه

وفره ، مع حفظ حصة من كسبه يعدها للعوارض الغير المنتظرة ، فاذا جمع الانسان بين الامساك عما لا يلزمه والبذل فيما هو احوج اليه ، فقد حاز فضيلة الاقتصاد المدحوق على لسان صاحب الرسالة العامة (ص) بقوله الاقتصاد نصف المعيشة وبيانه ان المعيشة تقوم بأمرين الكسب والاقتصاد في انفاق ثمرته ، فمن حصل على المال فقد حاز احد الامرين ، فان لم يحز الامر الآخر وهو حسن التدبير فقد نصف معيشته

وبما ان الانسان ولوع بالتنوع في مقتنياته ، لا يقف عند حد في تنفيذ شهواته ، صار يظن ان التنوع في الاحتياجات البشرية من ضروريات الحياة فمهما توفر لديه الكفاف من الغذاء واللباس طمحت نفسه لتنوع الماكل واقتناء ما لا يحتاج اليه من الملابس وغيرها . وقد قيل من اشترى ما لا يحتاج اليه اضطر لبيع ما يتوقف عليه ثم اذا نالت نفسه متمناها ترقى الى عمارة المسكن وتنميقة بأحسن الرياض وما يتبعه من مظاهر البذخ والابهة وبذلك تتصل مقتنياته في تتابعها وتعددها وتصر سلسلة متصلة الحلقات مع انه لا يستفيد منها الا بقدر احتياجه . نعم لا ننكر ان الرجل حر في ماله يفعل فيه ما يشاء وينفق منه كما يريد ، لكن ينبغى ان يكون ذلك بما يناسب حاله لان المناسبة بين الثروة والنفقة اصل من اصول الاقتصاد الذى هو وصف كل عاقل يتأسف كلما رأى الامة على ما هى عليه من القلة وتعذر اسباب نمو الثروة ، ومع ذلك فقد فتحت على نفسها بابا من الفقر تلجه باختيارها وارادتها بدون قاهر ولا قاسر ، وهو باب التبذير والاكتثار من لوازم الرفاهية وضروب الزينة وما يكسبها الظهور الكاذب بلا نفع ولا طائل .

يرى مرتكبوا الاسراف والتفنن في الانفاق ان سيرتهم تجعلهم من ذوى النعمة واليسار ، والعزة والفخر اعتمادا على انها سنة الامم المتقدمة والشموب المثرية ، مع انها بالنسبة لحالة البلاد داعية الفقر . ومجلبة الشر فان الامم المتقدمة وان انفقت الاموال الكثيرة في تشييد التصور ، وتنميق الابنية والدور ، واقتناء فاخر الاثاث وبديع الرياض ، فان ذلك على نسبة مخصوصة من ايراداتهم الحائزين لها بالكد والاجتهاد ، وانقائهم اسباب المكاسب العديدة ، والمصنوعات المفيدة التى تكسب صاحبها في

اقرب وقت لروية واسعة . على ان هؤلاء المتحنين نراهم يجيزون الاتفاق من راس المال الا اذا مست ضرورة لا محيص عنها ، ومع ذلك فان نفقاتهم لا تتجاوز حد اللزوم ولا تخرج عن دائرة احتياجاتهم . اما نحن فقد ركبنا متن الشطط وحملنا انفسنا مالا نطبق . يصرف الواحد منا في كل يوم اضعاف مخوله في زوائد الشهوات وفضول المتاع . ما ذاك الا لاننا راينا ابواب الاتفاق مفتحة فولجناها قبل ان نجد عقلا يقدر لنا ما يلزم منها وما لا يلزم ، وطلبنا التملى بها بدون ان تجوز ما يوصلنا اليها من انفسنا ، ولينا قبل ان نشيد بيوتنا بالارتفاع الشاهق والتنميق المحكم ونزينها بأنواع النقوش والفرش والاثاث شيدينا في عقولنا الافكار وزينا انفسنا بالفضائل من رحة بالضعفاء ورفق بالملهوفين ، واسننا الشركات التجارية والصناعية التي يعم نفعها الوطن ويستفيد منها اهله . فلو قدمنا هذه الزينة الجهرية على ذلك الرونق الصوري لكان العالم بآسره ينظر الينا نظر المعظم المبجل ولكانت معيشتنا البسيطة اوقع في نفسه من المعيشة الرخيصة التي لا تناسب حالنا بوجه من الوجوه »

ومنها مقالة في الرياضة البدنية لمحمد الاوروى (ت 1350) .
« الرياضة البدنية من فنون التربية وحفظ الصحة ، وقد عنى بها قدماء اليونانيين وعدوها قسما من اقسام التربية الاولى ، لجعلوا الموسيقى لترويح النفوس وتهذيبها والنحو لاصلاح الالسة وتقويمها ، والرياضة لتقوية الاجسام وحفظ صحتها ، وكانوا يعتنون بأمر الرياضة اكثر من غيرها فشيّدوا لها الاماكن الضخمة وانخذوا كل وسيلة لتعميم مبادئها بين الناس ، حتى يكثر الاتبال عليها والاهتمام بشأنها . والغاية الوحيدة التي كانت تبغهم على ذلك هي حفظ صحة الجسم وتهئية قواه الحسية والحسوية .

ثم لما سقطت دولتا اليونان والرومان وانطوت ايامهما على ما كان لهما من مجد وعلم ، تقلص في جملة ذلك من الرياضة ، وانزوى في ثوب الاغفال والاهمال الى ان جاءت دولة العرب فاحيت مع ما احيت من علوم القدماء ولما جاء دور الحضارة العصرية وبزغ نجم العلم باقى اوربا كان لهذا الفن رواج كبير وانتشار رائد تأسست بسببه الجمعيات والمنتديات

الخاصة به في سائر الاماكن والجهات .

اما نحن معشر المغاربة لقد أهملنا الرياضة البدنية بكل أسف أهلا
كلبا حتى انك تجد الواحد منا في عنفوان شبابه ومستقبل عمره ، وهو
يفتكي من ضعف قوته وخور همته وقلة نشاطه وتكرر جو صحته ، كأنه
في طور الشيخوخة والهرم . والسبب الوحيد في ذلك هو ترك الرياضة
البدنية . . . وتجد الواحد منا اذا سار يوما لضرورة ما مسافة بعيدة نسي
الجملة على رجله ، بات ليلته ينن مما لحقه من التعب ويتقلب على فراش
الالم ، كأنه سار من شرق الارض لغربها وقطعها من شمالها لجنوبها ، ولا
موجب لذلك سوى ترك الرياضة البدنية .

مدننا صغيرة المساحة متقاربة الاطراف ، ويخرج الواحد منا من
منزله الى متجره او مصنعه او مكتبه ، فلا يقطع بينهما مسافة كبيرة تكون
له فيها بعض الرياضة بل ينتقل من سكن الى سكن ويظل مقيدا في محل
اشغاله بقيود الاعمال فاذا كانت اشغاله داعية الى القيام والتعود والتزول
والصعود فان ذلك ربما يقوم في الجملة مقام الرياضة ، واذا كانت بخلاف
ذلك تقتضى سكونا وقلة حركة فان ذلك مما يضر بجسم المرء وصحته لان
ترك الرياضة البدنية يؤثر في سير الدورة الدموية ويمحق الهضم ويجعل
الانسان في ضعف زائد وخمول دائم . ولذلك ترانا دائما كسالى نقوم من
النوم كسالى ونرجع كسالى ، كأننا مصابون بمرض مزمن ولا علة الا ترك
الرياضة البدنية

ان الجسم البشرى اشبه بسيارة بخارية واعضائه بمنزلة آلاتها ،
ولا شك انه اذا مضت عليها ايام فضلا عن اعوام بدون استخدامها
واستعمالها فانها تصدأ طبعاً وتطرا عليها علة التعمل والفساد ، وكذلك
اعضاء الجسم اذا طال سكونها ولم يستعمل كل واحد منها في وظيفته ،
فانه يلحق الجسم اعتلال واختلال على نسبة اهمية ذلك العضو من مجموع
هيكل الانسان . ومعلوم أن لكل عضو رياضة تخصه فاذا لمقدها فقد صحته
الطبيعية : وللقارئ ان يأخذ مثالا لذلك حالة اسنان اهل الحواضر
والبوادي فان هؤلاء تدوم لهم اسنانهم واضراسهم صحيحة قوية ، وان

طعنوا في السن واشتعلت رؤوسهم شيئا . وأولئك تاكل أسنانهم وتنساقط
أضراسهم في شبابهم وأول كهولتهم ، وما ذلك الا لان أهل البوادي ياكلون
خبز الشمر والذرة وغيرها من المأكولات الجاسية فتقروض بذلك
أضراسهم ولا بصيها التلف . وأهل الحواضر حين مالوا الى الترفه والتنعيم
اختاروا من المأكولات اليها والطفها تفقدت أضراسهم بذلك الرياضة
الواجبة وأسرت اليها الآفات .

فلنعن بالرياضة البدنية على العموم وليخصص كل واحد منا لنفسه
يوما وقتا معلوما يقوم فيه بنوع من الرياضة لجسمه ، فان ذلك مما يغيد
أفاده محسوسة في حفظ صحته وتجديد قواه .

ان هذين المثاليين كافيان فيما نظن لاعطاء فكرة عن المقالة التي كان
ميلادها من مظاهر التطور الذي طرا على النثر في هذا العهد . وهو تطور
يشمل الشكل والمضمون معا ، بالنسبة اليها خاصة . لدى الشكل نجد
الكاتب لم يبق معنيا برصف العبارات وتكرير الجمل بل وجه عنايته الى أداء
المعنى وبلوغ القصد من غير لف ولا دوران ، فالعنوان يحدد الموضوع
ويمنع الاستطراد ، والأدلة منتزعة من صميم الواقع لا من نسج الخيال .
وبلاغة الفصل والوصل لا تتحكم في سياق الكلام فقد صار من المألوف
الوقوف عند عدة مقاطع واستئناف الحديث بان أو غيرها مما يجيء في
ابتداء القول تنشيطا للقارئ وهذا الى استعمال بعض التراكيب القلقة
التي شاعت في انشاء المحدثين كتركيب (العوارض الغير منتظرة) وتركيب
(فنداهلنا الرياضة بكل أسف) بله الالفاظ والمصطلحات الجديدة كدور
الحضارة العصرية والدورة الدموية وغير ذلك . وفي المضمون لا يخفى أن
موضوع المقالة الأولى وهو التبذير والاسراف موضوع قديم ، ولكن الطريقة
التي تناوله بها الكاتب فيها كثير من التجديد نشأ عن تطور الأفكار واختلاف
وجهة النظر عما كان عليه الحال قبل ، في تناول مثل هذه الموضوعات
الاجتماعية . فهو لم يسلك الطريقة الخطابية ويجعلها أساسا لزم التبذير
والاسراف ، وان ابتدا كلامه بالاستشهاد بالشرعية والكتاب والسنة ،
ولكنه ركز موضوعه على بيان فوائد الاقتصاد في النفقة ومضار الاسراف
ومقارنة حال الأمة بأحوال التمدنين وأظهر الفرق العظيم بينها وبينهم في

عظيم ثروتهم وحرصهم على الاقتصاد ، بعكس ما هي عليه من الاقلال والتبذير . ثم زيف رأى الذين يظنون ان العظمة والمجد في التظاهر بالثروة والانفاس في الترف ، وبين ان العظمة الحقيقية في الجد والعمل والتمسك بالفضائل وخدمة الوطن بما يعود نفعه على العموم . هذا هو الجديد في الموضوع وهو الذى يناسب ما كانت تتخطى فيه الامة عهدئذ من مشاكل اجتماعية ولا تهتدى الى التفصى منها طريقا .

اما موضوع المقالة الثانية وهو الرياضة البدنية فهو موضوع جديد بلحمته وسداه ، ولا شك انه يمس واقع الامة من ناحية اخرى وهى الناحية التربوية وان كان انها لم بذلك الماهما ظاهريا لضعف مادته ولكنه على كل حال يشهد بما قلناه من تطور النشر في ضمن المقالة .

وكان بوجدنا ان نعرض مقالات اخرى في موضوعات مختلفة ، الا ان ضيق المقام يمنعا من ذلك . ولكن نوعا آخر من انواع المقالة وهو المظم بلقاج من الثقافة الحديثة لا بد لنا ان نعرض مثالا منه لتتمة الحديث عن نشأة المقالة في الادب المغربى ، لا سيما وقد كان هذا النوع عزيزا في هذا العهد لان جل المثقفين ثقافة حديثة انها تفتحت براعمهم في العهد الذى يليه . والمقالة التى نقدمها الآن هي من انشاء عبد القادر الزانى ، وهو من الطلائع الاولى للكتاب المزدوجى الثقافة . وموضوعها الاقتصاد السياسى، تعاريفه ، آراء العلماء فيه :

« قال الاستاذ سميث في كتاب ثروة الامم ان الاقتصاد السياسى باعتباره فرعاً من علم يختص برجال الدول وارباب الاستثمار ، له فرضان، الاول ان يهىء للامة دخلاً وافراً ويمهد لها طرقاً واسعة للكسب والتحصيل الثانى ان يوفر للدولة والجماعة دخلاً معيناً يكفى لتسديد نفقات مصالحها العامة ، فيكون غرضه حينئذ انماء ثروة كل من الحكومة والرعية معا فالاستاذ سميث لا يعتبر الاقتصاد السياسى علماً بالمعنى الذى يؤديه مدلول هذه اللفظة بل انه يعده فرعاً من السياسة كما يشف عنه قوله باعتباره فرعاً من علم يختص برجال الدولة وارباب الاستثمار .

ويذهب غيره من علماء العصر الى ان الاقتصاد السياسى هو مجموعة

تواعد الادارة المالية في المملكة . وهذا الاستاذ روسيت سماه (علم الثروة) وقد اكثر العلماء الفرنسيون القول في المباحث الاقتصادية وبالاخص ما كان منها في الاقتصاد السياسي ، وعنوا بتدوين وجميع التواعد المنطقة بالثروة العمومية ، وهو ما حدا بالبعض منهم اعنى الاستاذ باتيست ساى الى التفريق بين السياسة والاقتصاد السياسى قائلا ، ان السياسة علم ترتيب الجماعة البشرية ، والاقتصاد السياسى علم كيفية تحصيل الاموال اللازمة لحاجات الاجتماع وتوزيعها وانفاقها اذ ان الاموال مستقلة بجوهرها عن مسألة نظام الاجتماع البشرى . ومن هنا يمكن القول ان الاقتصاد السياسى هو العلم الذى يبحث في منافع الجمعية البشرية ففى اية دولة عاشت الاقوام وتحت اى سماء تسكنت فهى تتعاملى اسباب المعيشة بحسب تواعد طبيعية ، الانعال فيها مرتبطة بأسبابها ونتائجها فهذا التسلسل الذى يتعلق بطبيعة الاشياء هو ما يرمى هذا العلم الى التعريف به .

هذه خلاصة اقوال الاستاذ باتيست ساى فيها انتهجه من التعريف بهذا العلم وابداء رايه فيه ، بيد انه اخذ عليه في ثلاث نقط من مادة هذا التعريف نلخصها بغاية الإيجاز .

المادة الاولى — ان تعريفه غير مقرر كون احوال العمل والكسب بل والاخذ والعطاء ذات تواعد ثابتة مرتبطة بهذه الاشياء نفسها بل انها احوال قابلة للتغير بتغير هيئة الاجتماع وحالة الاقليم وعوامل الظروف . فالاقتصاد السياسى لا ينفك الا بمزيد الصعوبة عن علم نظام الجمعية البشرية وان المبادئ الاقتصادية التى يقررها علماء الاقتصاد هى فى الامم متعلقة بشؤوننا المدنية واحوالنا الاجتماعية .

المادة الثانية — ان هذا التعريف مبهم جدا وقاصر من جهة المنع مان الكسب والتحصيل والانفاق والتوزيع كلمات متسعات المصانئ ككثيرات المناهى متفاوتات للفنون الصناعية والزراعية والعلمية . والاقتصاد السياسى لا تطلق له بوسائل الاكتساب ووجوه التحصيل بل يبحث لى كيفية الحاصلات

المادة الثالثة — ان التعريف المشار اليه لا يعرق بين الثروة الطبيعية

والثروة الصناعية والاجتماعية فان المواد الطبيعية التى يستمدّها الانسان وتفيضها الطبيعة على المجتمع البشرى ليست من غرض علم الاقتصاد السياسى لان موضوعه البحث فى الكمية لا فى مقادير النفع بل فى القدرة ودخولها تحت المبادلة التى هى وحدها موضوع هذا الفن لان العلم من حيث هو لا يبحث فى احتياجات الانسان بل فى نتيجة الاحتياجات التى يحكم الانسان بتميينها ويندلع طالباً لها .

على ان هناك من رام تعريف العلم بانه نتائج عمل الانسان . وعرفه الاستاذ كونديلياك بانه فلسفة التجارة او علم المبادلات ، فاحتذى البعض هذا التعريف ظاناً انه يصير به علماً مستقلاً ، لكنه الفى غير واف بالمعنى تماماً

وخلاصة القول ان الاقتصاد السياسى لم يكن وضعياً بل كان ولم يزل عبارة عن مجموعة معلومات اولدتها الخبرة ودل عليها التحقيق الفلسفى ، ثم استنبط منها قواعد متعلقة بالكسب والمبادلة فى التجارة والصناعة ، مع التعريف بحقائقها لاجل هداية الدول والرياسات اليها وتيسير حصولها عند ما تدعو الظروف اليها على ان كثيراً من هذه النتائج المستفادة من مادة علم الاقتصاد السياسى والمفيدة لرجال السياسة لا تكاد تنبذ الفائدة المرجوة الا فى الوسط المتحدن او بين الشعوب الراقبة كالثعوب الاوربية التى يجرى كل ما فيها من التعاليم والاضاع على اساس التنظيم والترتيب فى كل شئ كيلاً كانت حيثيته او مثابته ، حتى لكان هواه تلك الاماق تنظيم وترتيب وحتى لكائه اليها بشر ابو الطيب المتنبى فى توليه :

اذا تهب الرياح النكب من بلد لها تهب بها الا بترتيب

وبما ان قواعد هذا العلم ادبية اكثر مما هى مادية فان من خصائصه عدم امكان الحصر لا فى شئ من تعاريفه او حدوده لانه من حيث تعلقه بكثير من الفنون اخصها علم النفس يطرا على موضوعاته من الامور ما لا يمكن الرجوع اليها الى تقدير بقيمة او كمية الا حسب رغبة شخصية ومن البديهي ان هذه الرغبة حالة نفسية لا تدخل تحت حصر او تحديد كما

ان اكثر المعاملات يكون على الاغلب عائدا الى الثقة ، والثقة الى اعتقاد الشخص وهذه امور تختلف بحسب اختلاف الظروف خصوصا ما دار منها على الاشياء الكمالية التى تكاد تكون مدار التجارة العصرية .

ومع ما تقدم فان الاقتصاد السياسى يحتوى على اصول وقضايا اجتماعية ومبادئ فلسفية ومناخ سياسية ، غير ان كيفية ربط هذه الفنون وترتيبها تحت دائرة تعريف مادة الاقتصاد السياسى مما لا يمكن جعل اصوله مطردة على وضع خاص ، وان يكن الفن من حيث هو دليلا عظيما على قوة مادة فكر الانسان فى التوليد والاختراع . ولا خلاف ان الجمعية البشرية قد جنت من ورائه فوائد جليلة ومبادئ مهمة وان الفضل الاكبر لتعاليمه فيما حله علماء العصر من مشاكل معضلة لم يكن لمن تقدمهم قبل حلها »

ولسنا فى حاجة الى المقارنة بين هذه المقالة واللتين قبلها فانها بمادتها الخصبة واسلوبها العلمى الذى تفرضه الترجمة لاقتوال علماء الاقتصاد الاجانب ، قد تحدد فيها التعبير عما تضمنته من معان وافكار فلم يزد شيئا ولم ينقص عن المراد ، وهى فوق ذلك تدل على طواعية اللغة للكاتب الذى استطاع ان يؤدى حقائق الاقتصاد السياسى بهذه السهولة فى وقت مبكر جدا من الاطلاع على هذا العلم لا فى المغرب فقط بل فى العالم العربى اجمع . وان كنا لا ننكر ان بعض التعابير خاصة فيما يتعلق بالترجمة غير دقيقة ، ولكن يكفى ان نعلم ان الوقت الذى نشرت فيه هذه المقالة وهو عام 1921 كان اول مجمع لغوى عربى - وهو مجمع دمشق - ما يزال فى طور التأسيس والمصطلحات العلمية والفنية ما يزال امرها فى غاية الاهمال ، فالكاتب الذين يطرقون موضوعا جديدا مثل هذا سواء فى المشرق او المغرب انما كانوا يعتمدون على اجتهادهم فى ايجاد اللفظ المطابق للمعنى الجديد ، وقد يوفقون فى ذلك وقد يخطئهم التوفيق ، وموق جهدك لا نلام .

ومن نماذج الخطب فى الشؤون الاجتماعية هذه الخطبة لمحمد السائح وقد القاها فى حفل مدرسى : « ابناء وطنى الكرام . ان المغرب اليوم غير بالامس ، وان ما يرسم فى برنامج مستقبله لمومىء الى مرام بعيدة وان النظر فى العواقب ثمرة العقل ، وانه يتمثل امام عينى مستقبل ليست الحياة

فيه بالامانى التى هى احلام المنيقظ ، وانما هى بنتيجة واحدة قد اندرجت فيها كل المقدمات ، ويمتصد واحد قد انطوت تحته كل الوسائل ، الا وهو العلم فعلى كل فرد منا ان يجعل هذا نصب عينيه ، وان يبذل النفس والنفس في تغذية ابنائه بلبان العلم حتى يتعزز جانبهم ويقووا على حفظ كيانهم ودينهم ولغتهم وجميع تراثهم فالعلم يحرس الدين ويسهر على حياة اللغة ويصون المال والولد ، والولد اذا لم يشب على العلم لا يلبث ان ينفذ يده من تراث ابيه قبل ان ينفضها من ترابه وقد اثالث علينا العلوم في هذا العصر بكل سبب ، وانسلت الينا من كل حدب ، وما كنا لنوليها انحرافا ولا لناخذها جزافا ، فعلينا بتقديم الاله منها فالاهم بسبب مقتضيات الظروف ، واستنبات ما تكرر اثماره وتتسم لاول الربيع ازهاره ، وليس من الراى ولا من الحزم الاشتغال بما تقل جدواه منها ونترك مالا نهتدى الى سبيل الحياة الا به .

وهنا نقطة يحق الالتفات اليها وهى ان كثيرا من الناس يرمون المغاربة بوصمة الجهل الذى لاداء ادوا منه ، وليت شعري لماذا ؟ فنحن اذا نظرنا بعين الانتقاد فيما لديهم من العلوم والمعارف تجلت امامنا امة ريا من الفقه والعربية والتاريخ والحساب وغير ذلك ، ولديها كفايتها من الصنائع والحرف المهمة ولكن يعوزها شيء واحد وهو العناية بعلوم العصر من الطب والهندسة ومزاولة العلوم الصناعية والميكانيكية ولا ارتاب في ان هذه العلوم تصيرة المدى تربية المحيط من المركز بالنسبة الى علومهم الجمة التى تنقطع الاعناق دونها . فبمجرد ما نجعل لانفسنا سهما منها نصبح وقد شاركنا امم الارض في علومهم وفضلناهم بمعلوماتنا الاخرى لا تقل ان هذا الامر يحتاج ويحتاج لان له طرقا تفضي اليه واسبابا تدنى منه وراى ان كل ما كانت له وسائل فهو سهل التناول سيما وليس شيء من تلك العلوم بدخيل فينا ولا بأجنبي عنا ، بل هو والله من علوم آبائنا الاولين طالما استغلت به افكارهم . ودونته اقلامهم ولكم كان في الاسلام ، من علماء اعلام برزوا في الجغرافية والفلك والطبيعات والهندسة وسائر العلوم الرياضية ولقد اصلحوا واستدركوا على الاوائل من المخترعات ما استدركوا ثم قدموا علومهم الى العالم طعمة شهية ، فعنهم اخذ الامرنج ارقام الحساب وعلم الجبر والمقالة الذى هو من وضع العرب ، واخذوه

باسمه ومسماه . ولقد كانت لهم اليد الباسطة في علم الطب والصيدلة والكيمياء ، ومنهم اخذها الاوربيون وبرعوا في الجراحة حتى كان النساء بالانجلس يباشرن كثيرا من العمليات الجراحية لامثالهن من الاناث املا نسترجع سالف مجدنا ، وآثار اجدادنا ، بهمتنا وجدنا ، واليكم معشر التلامذة يساق الحديث ، فانتم رجال المستقبل ، وعليكم نعلق الامل ، ماجهدوا في تحصيل العلم ، واجعلوه اهم مطالبكم ، فان قيمة كل امرىء ما يحسن ، وان كل عز لم يؤبد بعلم ، على الدل يصير .

وهذه خطبة سياسية لمحمد بن عبد الكريم الخطابي بطل الثورة الريفية يستحث فيها هم المواطنين الى الجهاد .

« اخواننا المسلمين ، ندعوكم باسم الرابطة الدينية ان تهبوا جميعا الى مك رقابكم من عدوكم الذى يريد ان يستعبدكم بالكيد والعدوان ، انه والله لخرى عظيم ان يخضع المسلم لعدوه وعدو دينه ، وان يحتمى بحماه ، فان كان هذا طمعا في رضاه بالله عز وجل يقول : « ولن نرضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » وان كان خوفا من سطوته « بالله احق ان تخشوه ان كنتم مؤمنين » . وانكم تعلمون ان اللوز والنصر للحق وهو في جانب المسلم الذى يحامى عن دينه ووطنه ، وان كلمة الله هي العليا ، وحزب الله هو الغالب لا محالة ، طال الزمان ام قصر ، فقوموا قومة رجل واحد واعدوا الخناصر على مناجزة العدو فقد اصبح على شفا الهلاك ، ومما قليل ينخذل الخذلان الاخير ، ويسقط السقوط الابدى الذى لا نهوض له منه ، وينسحب مطرودا عن هذه الارض الشريفة التي ما بقى له فيها مقل ولا مقر .

ولولا اعتماده على بعض اخواننا الذين باعوا شرهم ودينهم بثمن بفس نراهم معدودة لاصبح من زمان هشما تذروه الرياح على هائه الجبال والبطاح . لكنهم وقعوا عقبة في وجهنا وحاجزا يمنع وصول ضربتنا القاضية اليه ، وای مقت اكبر من ان يقف المسلم بجانب عدوه وعدو دينه يحارب اخاه المسلم ؟ لعمر الحق ان هذا هو الشتاء العظيم والعار الشنيع ومع ذلك فاننا نود لهم الخير ونرجو ان يراجعوا بصيرتهم ، ويلتمسوا واجبهم

الدينى والوطنى ، فيؤثروا ما يبقى على ما يبنى ، ويستبدلوا رضا الله بسخطه ورحمته بفضبه من قبل ان يفوت الموت ، ويعضوا اصابع الندم ولات حين مندم .

اخواننا المسلمين ، ان كنتم تريدون الخلاص والنجاة حقا ، وانتم اولئك المؤمنون الصادقون المصدقون بوعد الله . فتحركوا وانتهوا من نومكم الطويل . وكونوا انصارا لله مجاهدين فى سبيله بكل قوة . وقوة الايمان ما فوقها قوة . واغتنموا هذه الفرصة فقد ازنت ساعة النصر ، وجاء الفرج يشر كل مؤمن . جاهد ابتغاء مرضاة الله بالسعادة فى الدنيا والآخرة . ولا تكونوا من الذين خسروا انفسهم وسودوا تاريخهم بالخضوع للعدو من اجل الحصول على راحة موهونة ، والتمتع بعرض زائل ، فسحقا لها من حياة ينزل فيها المؤمن من سماء عزه وشرفه الى درك الذل والعبودية لخصوم للماء لا يرمون فيه الا ولا ذمة . ولا يرون لسلم حقا ولا يقبضون له وزنا ، اما كنانا موعظة واعتبارا ما وقع لآخواننا بالاندلس وما آل اليه امرهم من العز الى الذل ومن الايمان الى الكفر . ففى مثل هذه الحالة يستعذب المؤمن الموت ويفضل العدم على البقاء . هكذا عهدنا اسلافنا وعرفنا من تاريخهم المجيد انهم لا يرضون الخضوع والمسكنة ، ولا يبتغون من الحياة الا ان يعيشوا احرارا ، ويموتوا احرارا . ولذلك فان آخوانكم فى الريف على بكرة ابيهم يقاتلون عدوهم اللدود الذى كان يطمع فى بلادهم قبل اليوم ، واما الآن فقد ذاق وبال امره ورأى عاقبته خسرته مع انهم لا يبلغون عشر معشار قوته « وما النصر الا من عند الله » فكيف يليق بمن يروم العز والغور ان يتقاعد عن الجهاد ، ولا يسارع الى نصره آخوانه ، وانقاذ وطنه من ايدى الطامعين العابثين الذين يسعون فى الارض لمسادا ولا يصلحون ؟ ما ذاك الا من ضعف الايمان وموت الهمم والرضا بالهوان ، والواجب على العلماء والوعاظ والخطباء الذين هم قادة الامة وهداتها ان ينصحوا العامة ويرشدوهم الى ما فيه صلاحهم ونلاحهم ويبينوا لهم ان الواجب عينى يطلب من كل فرد القيام به ولا يقضى فيه زيد عن عمرو ، والله المستعان ، وهو حسبنا ونعم الوكيل »

نرى فى هاتين الخطبتين كيف تطورت الخطابة اسلوبا وموضوعا ،

فقد كانت الى قريب من هذا المهد لا تكاد تخرج عن نطاق الخطابة الدينية، وكان المثال المحتذى فيها هو السجع والاستشهاد بالآيات القرآنية والاحاديث النبوية وهذا ان يكن من شروط الخطبة الدينية ، فان السجع لم يكن قط من متطلباتها . لا سيما والمراد منها هو الوعظ والارشاد . موجب اداؤها بعبارة اقرب ما تكون الى افهام العامة . ليس فيها تعقيد معنوى ولا اغراب لفظى . ولذلك فان اول ما درجت عليه الخطابة في عهدها الجديد هو نبذ تلك الزخارف اللغوية والقصد الى الوضوح والبيان . ولا ننكر ان في الخطبتين بقايا من هذا التفاسح . ولكنها قليلة وغير متكلفة . وهى من سرته الطبع وغلبته على التطبع . وقد راينا امثالها في النماذج النثرية الاخرى التى قدمنها من المقالة وغيرها . ونلاحظ تركيز الخطبة الاولى على الاشادة بفضل العلم والحث على طلبه . مصداقا لما قلناه سابقا من انه الشعار الذى كان ينادى به جميع العاملين ، في فجر النهضة وامازت هذه الخطبة باثارة نخوة الامة وعدم جرح كرامتها . وذلك بنفى وصمة الجهل المطلق عنها واثبات ان لها سهما صائبا في العلم ولا ينقصها الا ان تضرب بسهم آخر في العلوم الحديثة التى هى من آثار آبائنا الاولين . وذلك من لباقة الخطيب وحسن تاتية للامور . اما خطبة الامير ابن عبد الكريم فهى تشد عن قوة ايمانه وصدق جهاده وتنبيه من واقع الثورة الريفية وارتفاع علمها على رغم المثبطات الداخلية والخارجية بما لا ينبىء عنه حديث ولو طال وهى على صراحة لهجتها فيها كثر من الدبلوماسية التى تليق بقائد حرس وزعيم سياسى في نفس الوقت . ولعل اعتمادها على الجانب الدينى نارة والوطنى اخرى كان لقصد اثارة شعور القبائل وعموم المخاربة الذين يجعلون الدين في المقام الاول من الاعتبار . على ان المستعمرين انفسهم كانوا يعتبرون القتال في المغرب حريا صليبية مقدسة . والاسبان منهم بالخصوص كانوا يعملون في احتلال المغرب على تنفيذ وصية ايزابيلا الكاثوليكية . وقد ساندتهم في حرب الريف طيارون متطوعون من ايطاليا وامريكا . واخيرا دخلت فرنسا الى جانب اسبانيا في هذه الحرب حتى انتهت بما هو معلوم من تسليم بطلها صاحب هذه الخطبة . فلا جرم ان يستغل هو ايضا الجانب الدينى من الشعور العام عند المواطنين ، وعلى كل حال فان اسلوب الخطبة مؤثر وانشاءها متدفق العاطفة الوطنية التى املتتها . وهى حرية ان نعد من الخطب التاريخية في ادبنا العربى .

وتد اطلنا فى الاستشهاد وايراد النماذج المبينة لتطور النشر فى فجر النهضة على اختلاف الابواب والموضوعات وبقى من ذلك باب المحاضرات. وهو باب واسع يضيق المجال عن استيعابه . وقد كان مما قامت له سوق نافقة فى هذا العهد . وادى نادى المسامرات الذى انشئ بفاس ومعهد الدروس العليا بالرباط خدمة عظيمة للنهضة الفكرية عن طريق المحاضرات العديدة التى القيت بهما من مختلف الشخصيات العلمية والادبية البارزة فى الوقت وبعضها مطبوع كمحاضرة عبد السلام السرغيني (ت 1354) فى السنة والبدعة ، ومحاضرة احمد النميثى عن تاريخ الشعر والشعراء بفاس ومحاضرة احمد الشيبى فى العلم والعمل وغيرها ، فنكتفى بالاحالة عليها

فجر النهضة

- 2 -

وننتقل الى الكلام عن الشعر ، وقد تطور هو بدوره في هذه الحقبة تطورا ملحوظا ولا سيما في محتواه ، فاصبح الشعراء يتناولون موضوعات جديدة مما يتعلق بالنهضة واحداث السياسة والمجتمع ، ويعبرون عن تجاربهم الذاتية بما يبرز مواطنهم وافكارهم على حقيقتها من غير تعمل ولا تقليد . وهذا الى التوسع في شعر المناسبات بما ادخل عليه من معان ومبان وصور مبتكرة تطلقا بالتجديد ومجارة لاحوال العصر ونصورات اهله . واذا كان الشعر من هذه الناحية قد تضخم وزخرت مادته فان الملاحظ انه من الناحية اللغوية قد جنح الى السهولة ، واخذ سبيل البساطة فلا غموض في كلمة ولا ابهام في تعبير ، حتى بلغ الامر ببعض الشعراء الى الاجحاف بحق الصياغة الفنية احيانا ، وليس ذلك من ضعف المادة اللغوية، وانما هو من تمل روح العصر في السراحة والتيسير . وكثر لذلك الشعر وطال نفس الشعراء واستعملوه في كل غرض حتى كانت بعض الصحف تنشر اعلانات منظومة . وجمع النقيب ابن زيدان دبوانا ضخما في خصوص ما قبل من تصائد المدح في السلطان مولاي يوسف .

ولا نقول ان الشعر نهض نهضة حقيقية ونحن نرى ما بلغه في الشرق العربي من التفنن والابداع ، ولكننا نقول انه تحول من المجري الذي كان يصب فيه ، فلم يبقى قاصرا من جهة المعنى على اغراض القدماء بل اضاف اليها اغراضا حديثة ، ولا من جهة المبنى على القوالب الموروثة ، اذ يخفف من ثقلها كثيرا ، من غير ان يلور على الاوضاع التقليدية للشعر العربي او ياتي ببديع في مآثوراته وهو في ذلك يثائر خطأ الشعر في الشرق العربي الذي كان ما يزال محافظا على المود الثعري وان بلغ غاية النمو والازدهار

وهذا يعنى انه سار في الطريق العام للنهضة الحديثة التى كانت تغزو بلاد العرب الواحدة تلو الاخرى ، ولا يعنى مطلقا اى مفهوم تقليدى كما يحلو لبعض الكتاب ان يجرح النهضة في هذا الشعب او ذلك من الشعوب العربية فيجعلها تقليدا محضا لما سبق ان قام في احدها من الدعوات والاتجاهات ، ذلك ان هذه الانتفاضة التى نعبر عنها بالنهضة العربية كانت منبعثة من اسباب وعوامل متشابهة في كل بلد عربى ، وكانت انطلاقة للقوى الفكرية والعملية المذخورة في نفس الفرد العربى اينما وجد ، وبالضرورة لا تنتجر العناصر في آن واحد ، فذلك تيار النهضة كان يدفع الشعوب العربية بعضها قبل بعض ولكن في اتجاه واحد ، ولكم جهد دعاة القومية الضيقة ومعهم اصحاب النظرية الانقلابية في الادب ان يميزوا كل قطر عربى عن اخيه بميزات لا وجود لها الا في خيالهم ، واستحدثوا من المذاهب الفكرية والنقدية ما زعموا بأنه سيكون توام هذا التمييز ، غابت تلك المذاهب الا ان تتلاتى على صعيد وحدة الامة العربية والادب العربى النابع من صميم تلك الوحدة وكما كانت المذاهب والآراء في هذا الادب تنتقل قديما من عاصمة العباسيين في المراق الى عاصمة الامويين في الاندلس فاذا نبغ هناك متنبىء يقال له ابو الطيب نبغ هنا متنبىء آخر يسمى ابن هانئ ، واذا قيل هذه طريقة البحرى قيل بجانبها وهذه طريقة ابن زيدون ، فكذا كان لادب المهجر والمهجرين حديثا صدها في مصر وتونس والمغرب ولادب العقاد وطه رواده في سوريا ولبنان ، ولا تقليد في القديم ولا في الحديث ولكنه تجاوب ونداع وتائر وتائر متبادل .

وقد سار المغرب في نهضته الادبية على هذا الدرب ، وخطا خطوانه الاولى نحو التطور الفكرى حسبما بيناه وراينا نتائجها بالنسبة الى الفكر في النماذج التى قدمناها ، ونرى الآن نتائجها بالنسبة الى الشعر في نماذج تتضمن المعانى والاغراض الجديدة التى عرض لها وتبرز ما استحدث فيه من اساليب وصيغ تعبيرية لم تكن معهودة من قبل ، فمن ذلك في الحث على البقطة والاخذ بأسباب التقدم وطلب العلم والاصلاح الدينى تصبده لحمد السليمانى يقول فيها :

حماة الدين هبوا من سبات فمركزنا يؤول الى الخراب

ولم نترك لنا غير انتصاب
كتابهم ويا حسن الكتاب
وينذرنا مفاجأة العذاب
تعود المسلمين الى الصواب
ويا لحياتنا يوم الحساب
اذا ما قال شرك في الجواب
يقيم لسانه عند الخطأ
وهل تغنى القشور عن اللباب
الى ان اوتعتنا في تباب
ولا عضد يساعد في الصباب
فاصحت الفائع في اضطراب
فراس المال منخرم الحساب
جنوا من ريعها عجب العجاب
بانفسنا بأحضان المرابى
وان كثروا ذئاب في ثياب
من الالباب فارغة الجراب
عطاء الله من اهل التباب
فكيف جوابكم يوم المآب
فان الشاة في وسط الذئاب

تركنا الدين خلفا لا نبالى
يقول الشامتون هم اضاعوا
كتاب جاءنا للحق يدعو
اما ترك الرسول لنا وصايا
فطال العهد واخترنا سواها
رضينا النى حتى لا نصيح
ولا احد من اهل العلم منا
ونفخخة المعمم كيف تجدى
نوا اسفا على حال حدثنا
فلا مال يصون لنا حياة
مصانعا الم بها فساد
وباد على تجارتنا كساد
وزاحم في فلاحتنا اناس
ونحن ازاءهم فقراء نلقى
زعانفنا ولا اخشى ملاما
هم شبه الرجال ولا رجال
وما زالوا يرون بلا حياء
وهذا يا حماة الدين منكم
بنى العلم الرعاة الا افيقوا

هذه الصرخة الداوية لعلها ان تكون خطبة مهدان اكثر من ان تكون
قصيدة شعر ، ولكن اذا عظم الخطب وعم البلاء فان كل الجهود يجب ان
تصرف الى ما يقى الامة عاقبة السوء وشر المصير ، فالكتاب يجندون
اقلامهم والشعراء يشحذون قرائحهم لتجسيم الخطر والتنبية على طرق
اجتنابه ، وهذا هو الالتزام في اوضح صوره والادب المتلزم في اصرح
مواقفه ، وان تكن دعوته لم تخرج بعد الى حيز الوجود في هذا الوقت
فالشاعر يخاطب حماة الدين وهم اهل العلم واصحاب الفضيلة ، مهيبا بهم
الى النهوض لدرء الضرر وعلاج المرض ، وتذكير الامة بسيرة السلك الصالح
التي تتمثل في التمسك بالكتاب والسنة اللذين هما سبيل التقدم وممرج
الرقى ، فان سلفنا لما كاثوا بهما متمسكين بلغوا الغاية من القوة والعظمة

والعزة والمنعة ، ونحن لما امرضنا عنهما ونبذنا العمل بهما حل بنا التمس والشفاء ومنينا بالذل والهوان ، ثم يلتفت الى الحالة الاجتماعية فيرى آسفا — الفقر ضاربا اطنابه في البلاد وذلك من اختلال امر الصناعة والتجارة والفلاحة ، ولا ينسى ان ينبه الى ما احرزه المعمرون الاجانب من نجاح عظيم في فلاحه الارض لما زاولوها بالعلم والخبرة والجد والاجتهاد ، والى استغلال اصحاب رؤوس الاموال من المرابين الاجانب لجهلنا وتدهورنا الاقتصادي ، ويعرض بعد ذلك بما عليه الجمهور المغربي من جهل وغباوة وطلب النفع من غير وجهه وتعلق بالموتى واهل القبور من اصحاب الاضرحة والقباب ، ويحمل المسؤولية في ذلك على اهل العلم الذين من واجبهم ان ينصحوا الامة ، ويدلوها على ما فيه صلاح امرها معاشا ومعادا ، فان ضيعوا هذا الواجب لم يكن لهم عذر ولا جواب امام الله والناس .

ونظن اننا لسنا بحاجة الى التنويه بصراحة لهجة الشاعر واللوعة التي تشيع في كلماته معبرة عن اخلاصه وغيرته واشفاقه من الواقع الاليم الذي تعيشه امته فان ذلك مما تفيض به ابيات القصيدة وتنضح به كل متاطعها ، ولكن الذي لا بد ان نشير اليه هو هذا الاسلوب السهل المنحدر والالفاظ الواضحة الدالة على مراد الشاعر من غير لى ولا تمسّدق، فانه عرف ان الامر اهم ، والمقصود اعظم ، فنكب عن سبيل المجاز الى الحقيقة ، واخذ اللب وترك القشور رغبة في الافهام ومبالغة في اداء رسالته حتى لا يحول بينها وبين من وجهت اليهم حائل ما ، وهذا الى جانب الموضوع الجديد هو من التطور الذي طرا على الشعر في فجر النهضة كما لاحظنا ذلك صدر هذا الكلام

ومن قصيدة اخرى في الموضوع لمحمد بن عبد الصمد كنون :

انبقوا من سبات طال جدا	وصونوا واحفظوا للمجد عهدا
كفاكم ما احاط بكم كفاكم	فركن فخركم والله هذا
انبليخ ما نروم من المعالي	وما في الشعب من برضيك تصدا
انرقى ذروة العلياء يوما	ولم نقدح من الاصلاح زندا
الا لا يبلغن الجدد من لا	يكابد عمره تعباً وجهدا

كفى هذا النكاسل والتواني كفى كم تنكر الإصلاح جحدا
نرى اسم التمدن في ارتقاء ونحن كأننا ننحط عمدا
فأه ثم أه ثم أه لشعب المغرب الاتمى المفدى

ومن ثالثة لحمد النيشى خطبا للشباب :

العلم اجمل حلية الانسان فاسموا اليه معشر الشبان
وردوا بشوق مترعات حياضية متسابقين تسابق الظمان
وتنافسوا في نيل كل فضيلة وتشبنوا بأوامر القرآن
فالدين اس صلاحنا ونجاحنا والدين اصل سعادة الاوطان
فان اتخذناه دليلا هاديا سلمت تجارقتنا من الخران
لكن فقدت العاملين هو الذى ادى بنا لتواكل وتوان
ومنى وجدنا عاملا موجوده لرقيننا اذ ذاك كالعنوان

انهما دعوتان مخلصتان للنهوض والعمل ومجارة الاحياء والاخذ
باسباب التقدم وطلب العلم الذى هو وحده سبيل النجاة ، مع الحضى على
التمسك بالدين والاخلاق والاسف لما آلت اليه البلاد من الانحطاط والتاخر
بسبب غشو الجهل بين ابناءها ، وتكاسلهم عن السعى فيما يورث المجد
ويكسب الحمد من اصلاح حال المجتمع ، والاهتمام برقى الوطن ماديا
وادبيا حتى يبلغ الشعب ما يصبو اليه من الحياة الكريمة والعز والشرف
وقد كان لهما ولامثالهما المفعول القوى في نفس الجمهور وحركة البعث
التي عمت جميع المرافق ، فلم تقتصر على الناحية الادبية بل شملت
النواحي الاجتماعية والسياسية والاقتصادية تصريحا وتلويحا ، وكل ذلك
مما لم يكن الشعر يتناوله قبل وخاصة بهذا الاسلوب المعرب المبين المتراوح
بين الذكرى والاعتبار والمقارنة بين ماضى الامة وحاضرها ، واستنهاض
الهمم الى استرجاع ذلك المجد المفقود ، فالتطور الذى المعنا اليه مما
لا خفاء به في هاتين القطعتين ايضا .

والشعر في هذا المعنى كثير وهو متقارب النفس مما ذكرنا ، ومنه
ما خص الدعوة الى التعليم وتعداد فوائد العلم وعجائب مخترعاته ، ومنه
ما عنى بالاصلاح الدينى ودم البدع ومهاجمة الخرافات ، والاثيبه منه

بالشعر هو ما خص وعم ، وكان دعوة الى النهضة الشاملة كالأمثلة السابقة ، فتكفى بها وتعرض الى موضوع آخر وهو اهتمام الشعر بتسجيل الاحداث الكبرى والقضايا السياسية وطنية وغيرها مخترقا بذلك الحدود والسدود التي كان الابداء يقيمونها حولهم فلا يحتفلون الا بالمعاني الذاتية وما كان من قبيل المناسبات العادية .

ومن اول التسجيلات في هذا الباب قول ابن المواز متنبأ بوقوع الحرب العالمية الاولى قبل نشوبها

وقائلة ما في طوايا زماننا ؟ فقلت لها قولا لمن ينفرس
اراه بطول السلم قد ضاق صدره فهم بزغرات بها يتنفس

وهي نظرة فلسفية للحرب تنبئ عن تفكير عميق ، وسبق الواقع فيها هو من زكاة الشاعر واطلاعه على احوال العالم فلم يبق ذلك الشخص البوهيمي المنقطع عن الناس والذي لا اعتبال له الا بالكأس والطاس كما يحلو لبعضهم ان يتصور الشاعر ولبعض الشعراء ان يكونوا بل صار انسانا يهتم بحياة الانسانية فيالم لما يؤلمها ، ويسر لما يسرها ويميش في مجتمعه عضوا عاملا بل رائدا من رواد امه وخيره وسعادته .

ومن تصيدة لحمد الجزولي في انتصار الاتراك على اليونان :

ضراغية الاسلام اربعتم العدا	واسقطتم شيخا وراهم ترصدا
صددتم بكف الحزم صدمة جيشهم	واصلتم سيفا صقيلا مهندا
طمعتم بكف الحزم صدمة جيشهم	تداعى لها من جيشهم ما تشبدا
وصار هباء رغم انف متاده	وانف عدو جاوز الحد في العدا
عدو اتى الاسلام من خلف ظهره	نبئت فيه سيف بغيه مفهدا
وانزله من فوق عرش جلاله	واوثقه خوف النهوض وقيدا
وتقدمه هديا على مذبح القضا	وهم ولم يقدر وعاد لماوعدا
تراجع يرنو للضحية ضاحكا	وقد يضحك الجزار من فتكة المدى
ترأى له في فرصة غض جسمها	فانشب فيه الظفر حتى تفصدا
والهى بجزء كل طالب قسمة	وبالقسمة الكبرى اغتينا نافردا

عليها عدا كالذئب يعدو شراسة
 فحين اتى الاوداج يغرى وكاءها
 نمر بكف الرعب فوق جبينه
 وقال اعاد الميت ينفض كفيه
 نعم قد راي الرئبال ابرز مخلبا
 راي الاسد الضارى الذى كان رابضا
 وانشب فى اليونان نابا ومخلبا
 ومزتهم شطرين شطرا لسيفه
 ثمان ليال بعد سبع تتابعت
 ترائع فيها الترك والروم للوغى
 وقام على الخصمين يخطب مدفع
 فذابت جيوش الروم حينما كانها
 فهل سمع التاريخ قبل بمخل
 وهل سمع التاريخ عن دولة هوت
 لعالة اليونان عدتم لجحركم
 على حتكم انتم بحتكم بظللنكم
 ظننتم بان الحرب يوم وليلة
 وما الحرب الا ما رايتم وذقتم
 فعودوا لاجار البحار فلستم



ولكن سيف الله يتصم من عدا
 تبدى له شخصا سويا منهددا
 وقد جحظت عيناه خوفا وارعدا
 وهل شبح الاثراك عاد مهدها
 واظهر نابا كالسنان محدها
 تجمع ثم امتد وانحط مزيدا
 وعاد لما قد كان فيهم معودا
 وشطرا باغلال الهوان تقيدا
 غدا جيشهم فيها طريدا مشردا
 وما حكموا فى الفصل الا المهندا
 اذا قال اما بعد ارغى وازيدا
 تماثيل تلج فوق جمر توقدا
 باسرع من لحظ العيون تبددا
 على حين ان جرت من الكبر ابردا
 لروبتكم ارض الاناضول ماسدا
 وبغيتكم والبغى بصرع من بدا
 ونزهة جيش جاءها متصيدا
 وما ذقتموه اليوم تلقونه غدا
 كاسد البرارى قوّة وتجلدا

بنى الترك لا ثلت يداكم ولا نبت
 بنى الترك ذنتم عن حمى الشرق اعصرا
 بنى الترك كم تروى التواريخ مجدكم
 ازلتم عن الاسلام شارة ذلة
 رفعت له بين الممالك راية
 واقترتم عين النبى بفوزكم
 وصيرتم وجه المسالم ابضا
 فمن مبلغ ارواح آبائنا الالى
 ومن مبلغ من مات منا على الظما

سيوفكم عن راس من يكفر البدا
 ولكن فود اليوم صار مخلدا
 وقد زدتوها الان سفرا مخلدا
 والبستموه من شهامتكم ردا
 اذا انتسب النائى اليها تسودا
 وقمتهم مقام الصحب فى نصره الهدى
 وصيرتم وجه المحارب اسودا
 بانا اعدنا المجد صرحا ممردا
 بانا روينسا بعد حشجة الصدى

كان الانتصار التركي على اليونان اعظم حدث وقع بعد الحرب العالمية الاولى بالنسبة للشعوب الاسلامية والدول الاستعمارية على السواء ، فان النكسة التي اصبحت بها تلك الشعوب غداة الهزيمة التي حاقّت بجيوش الخلافة العثمانية واحتلال الاستانة عاصمة الاسلام من طرف جيوش الحلفاء ، كانت بمثابة القضاء المبرم على كل بعث اسلامي لا سيما وقد توزعت الدول الاستعمارية الكبرى بلاد العرب واصفقت كلمتها على اقتسام تركة الرجل المريض كما كانوا يسمون الدولة العثمانية حينذاك ، فلم يبق اى امل للعرب والمسلمين الا في الثورة وامتناساق الحسام.

وقد ثار العرب فعلا في سوريا والعراق ومصر ، وفي المغرب لم تخب نار الثورة في الشمال والجنوب ، وفي قبائل الاطلس المتوسط منذ نزول الحماة البغضاء بأرض الوطن ، ولكن هذه الثورات كانت تخمد بسرعة ، وما لم يخمد منها كان يرى مصيره الى الفشل حتما فلما قامت الثورة الكمالية ، والقّت بجيش الاحتلال اليوناني في البحر وارغمت جيوش الحلفاء على الانسحاب من العاصمة الاسلامية الكبرى ، انتعشت النفوس ، وانشرحت الصدور ، وعم الفرح جميع البلاد الاسلامية والعربية ، وعاد كيد الاعداء الى نحورهم ، وايقنوا ان راية الاسلام لن تنتكس ، وان وجودهم في بلاد العرب الى حين .

والمغرب الذي كان يعاني من الاستعمار الفرنسي وهو في طور استفحاله ، ما يعاني ، لابد ان يترك الانتصار التركي فيه صدى بعيدا ، وان يفهم قلوب اهله غبطة وسرورا لانه بنفس من كربتهم ، ويقوى عزيمتهم في محاربة المستعمر والوقوف بوجهه ، وذلك ما نجد الشاعر يعبر عنه بحماسة في هذه القصيدة التي اول ما بلغت فيها النظر هذا الاطلاع الواسع على خفايا السياسة الاستعمارية ودسائس المستعمرين ، وخاصة منهم الدهقان الانجليزي الذي كان يخلف من وراء الالوية اليونانية ويتخذها ذريعة لاستئلال عزة الاتراك واستباحة حياهم . وقد كان التضامن الاسلامي الذي تجلى في هذه الحرب باجلى صورته مدهشا للغاية مما حمل فرنسا على تسوية علاقتها مع الاتراك خوفا من انتفاض الشمال الافريقي عليها ، وجعل انكلترا نفسها تحت ضغط مسلمي الهند تتراجع عن موقفها العدائي السائر

من دولة الخلافة والعنصر الثانى الذى تتميز به القصيدة هو الشعور
 الفياض المتدفق بهذا التضامن ، وحسبان الحرب التركية حربا اسلامية ما
 يصيب الاتراك فيها من خسارة يسوء عالم الاسلام اجمع ، وما ينالونه فيها
 من ربح يعد مكسبا عاما للمسلمين فى المشرق والمغرب . وصور الشاعر
 المكيدة الانجليزية تصويرا بارعا بما فيها من تأمر على الاتراك وتغريير
 باليونان وما عقبها من خيبة امل الانجليز واحباط لمكرهم الذى كان المدبر له
 هو لويد جورج رئيس وزارتهم وهو المعنى عند الشاعر بالشيخ وكان من
 دهاقين الاستعمار وعدوا لدودا للاسلام ، وقد اثر الانتصار التركى عليه
 وعلى سياسته ، وسقطت حكومته فى الاخير نتيجة لتصرفاته المناقضة
 ومثل تدبيره . ان الغضاضة التى اصبحت كل مسلم مسلم يحس بها بعد
 انتهاء الحرب العالمية الاولى بما هو معلوم من انهزام المانيا وحليفاتها تركيا
 وانزال العقوبات الحربية القاسية بالمظلومين وهى تتسجم بالنظر الى تركيا
 فى تصفية ممتلكاتها وجعلها نهبا مقسما بين المنتصرين واغراء اليونان وهم
 الد خصوم تركيا واحترهم باحتلال ترابها واستعمارها ، ان هذه الغضاضة
 هى التى انطلقت الشاعر بما نقراء فى قصيدته من عبارات التشغى والشماتة
 والفاظ العداء والعدى وهى التى جعلته يصور فتك الاتراك بالجيش اليونانى
 وتمزيقهم اياه بتلك الصورة الواقعية العارية من كل تلوين ، ولا غرو لما
 من مائى تلك الظروف العصيبة وهو يمثل حالة المتنبى « فى احضال الاذى
 ورؤية جانبه » (1) لا يمكن ان يملك عواطفه ولا ان يضبط شعوره ، وكذلك
 كانت حالة الشعوب الاسلامية جميعا بل حال الفرد المسلم فى كل مجتمع
 ولو غير اسلامى ازاء هذا الحدث العظيم ، والشعراء ما هم الا السنة
 شعوبهم المعبرة عن شعورهم القوى ، فشاعرنا لم ينطق الا بما كان يحس
 به هو وكل مغربى من جراء نشوة الانتصار وفرحة الاخذ بالثار ، وقد بدا
 قال الشاعر العربى « ولو ان تومى انطقنى رماحهم نطقت » ونظن ان ما
 اداه الشاعر فى قصيدته هذه من افكار ، وعبر عنه من احساسات هو منتهى
 صدق التجربة الشعرية فى قضية سياسية مثل قضية « انتصار الاتراك لهم
 خاصة المسلمين وعامتهم فهى لذلك من امثل الشعر الذى خضع لعامل التطور

(1) هذا طبع لغول ابي الطيب :

واحضال الاذى ورؤية جانبه — — — — — فضاء فضوى به الاجسام

وجارى الحياة فى تقلباتها اليومية .

ومن اصداء الثورة الريفية هذا النشيد الحماسى الذى يدعو الى
مساندة الثوار ، وهو من نظم ابنى بكر بناتى :

يا بنى المغرب يا هذا الرقاد	ما لكم صرتم كالمثال الجماد
فدعوا النوم وقوموا للجهاد	واسألوا الله انتصار المسلمين
يا بنى المغرب ما هذا الفتور	اولستم ذلك الشعب الغيور
طهروا الاوطان من كل كفور	واسألوا الله انتصار المسلمين
يا بنى المغرب ان الوطننا	يرتجى من جمعكم طرح الونا
فاحملوا الصمصام مع سمر القنا	واسألوا الله انتصار المسلمين
يا بنى المغرب سمروا للامام	وارفعوا راية غازينا الهمام
فخرنا عبد الكريم ابن الكرام	واسألوا الله انتصار المسلمين
يا بنى المغرب هيا للقتال	واستعدوا للوغى قبل النزال
انتم والله شجيمان الرجال	واسألوا الله انتصار المسلمين
يا بنى المغرب هبوا هبة	واضربوا وجه فرنسا ضربة
ذكرها يبقى عليها سبة	واسألوا الله انتصار المسلمين
يا بنى المغرب موتوا شهدا	لا تعيشوا تحت اذلال العدا
مزنوا الكفر واشراك الردى	واسألوا الله انتصار المسلمين

لقد كان هذا النشيد يتردد على لسان كل وطنى غيور ، وكان المقصود
منه تمجيد الثورة والتفنى ببطولة الامير ابن عبد الكريم ، والتحريض على
الجهاد ، وتعزيز جانب الثوار . وهو فى صياغته الثورية واسلوبه الخطابى
يحكى خطبة زعيم الثورة التى قدمناها فى النماذج الثرية بل يكاد يكون
نظما لها ، والسر فى ذلك هو ان الروح التى املتها واحدة ، وهى روح
الوطنية الصادقة والايمان القوى بحق المغرب فى حريته واستقلاله مع
الاعتقاد الجازم بان القوة هى السبيل الوحيد لتحقيق المطامح القومية ،
وانها وحدها هى اللغة التى يفهمها المستعمر الغاشم . فمن هنا تماننا شكلا
ومضمونا وضربا معا على وتر واحد هو وتر الحرب والقتال الذى لا يحرك
سواكن الشعب المغربى الابى سواء .

ولحمد بن اليمنى الناصرى مرددا صدى انتصارات بطل الريف على
فرنسا واسبانيا من قصيدة طويلة :

انظر لما تلقى فرنسا منه اذ	قصدت بشامخ مجده استخفانا
جاءت بمعظم جيئها وعتادها	فاستنزفته رجاله استنزانا
وادال دولتها بفراط دهائه	وتمزقت احزابها اطرانا
حتى اثار بمجلسيها ثورة	شعواء نرجو الهدنة استعطانا
واذا (اليوطى) قد تردى ساقطا	متحملا مما جناه اكافا
وحليفه (دى ريفيرا) قد فر لا	يلوى على شىء به يتلاقى
وتنافرت آراء دولته بما	اضحت رعوس مجنديه قطانا
سل عنهم بلب المروج وتازة	وسلاس والبييان والاجراما
وسل البرانس والتسول وجابة	والسبت والكيفان والاكتافا
تلك المواقع روعت ابطالهم	وجلت لنا عن روعهم اسجانا

انها نشوة النصر التى انطلقت ابا الشعور ، وهو لقب شاعرنا الناصرى،
بهذه الابيات الحماسية الرائعة ، ممثلا فيها الجو السياسى المكهرب الذى
كان يهيمن على العاصمتين الفرنسية والاسبانية حين ذاك من جراء توالى
الهزائم المروعة على جيئتهما العامل فى المغرب ، حتى ارتفعت اصوات
الاحزاب وكبار الساسة فى كل من الحكومتين بوجوب المفاوضة مع ابن عبد
الكريم وجعل حد لهذه الحرب التى استنزفت قواهما استنزافا كما عبر
الشاعر . وعقد مؤتمر وجدة على ما هو معروف وانفض عن غير طائل ،
واستؤنفت الحرب الى ان تطورت القضية لصالح الاستثمار مع الاسف .

ونتنصرف عن الاحداث الكبرى الى المناسبات الاجتماعية ننجذ الشعر
ايضا مع ماجريات الاحوال يسجلها ويردد منداها موذنا بمشاركة الشعراء
فى مظاهر الحياة الرسمية وغيرها من الشؤون العادية ، ولقد كثرت
الاحتفالات تكررت قصائد التهنئة منوعة بما جد من وسائل الحضارة والتقدم
الطوى ، وكان السلطان يحيى ليلة المولد الشريف كل سنة فكانت القصائد
المولدية التى تنشد فى تلك الليلة تعد بالعشرات ، والكثير منها يتعرض لسمو
الدعوة الاسلامية وما انت به من مبادئ الحرية والمساواة ، الشىء الذى
لم يكن شعر المديح يلتفت اليه من قبل .

ونحن لا يمكننا ان نعطي امثلة من كل ما كان يقال في هذه المناسبات ،
ولا ان نستوعب شعراء هذه الحلبة من تاريخنا الادبي ، ولذلك فاننا نكتفى
بشاعر واحد كان له في هذه المواضيع جولات . وكان يعد امام الشعراء
في وسطه حتى اطلقوا عليه لقب الشاعر المطبوع ، فكان يعرف به كما يعرف
باسمه ، وان كان شعره ليس على قدر لقبه ، لانه لم يكن يعنى بتقنيته كما
لم يكن يعنى بالافكار الجديدة ، وهذا الشاعر هو عبد الله التتاج (1264)
ومن توله في تجديد القصر السلطاني بالرباط :

<p>على الطالع الميمون قد شيد القصر وزاد بطول المد في الانق حسنه بنيت به الدنيا ولم تبني بها وحسبك ان الارض باهت به السما وحن لانق حنت الشمس نحو يسافر في اطرافه الطرف يجتلى هو الدار دارت بالسعود نجومها وقيد مرآها النواظر حيرة رخامية الاركان تبرية الحلى منعة فوق السها اسها استوى وما هي الا للقائد موسم تظل جميع الناس خاضعة الطلى تمرغ ما بين الرجاج خدودها</p>	<p>وقارن ما شيدته الفتح والنصر ومن عجب مد به يحسن القصر فما خص صقعا دون صقع به الفخر ففارق مختارا منازل البدر وودت به لو تطلع الانجم الزهر محاسن يابى ان يلم بها الحمر واصبح فيها بعض خدامك الدهر فما شبت منها ولا روى الفكر مدبجة الارجاء اكناها خضر فلا فرقد يسمو اليها ولا نسر ففى سوقها تغلو المدائح والشعر بابوابها من لثم افواههم اثر وتلقى بايديها الى من له الامر</p>
---	---

ومن توله في التهنئة بعيد :

<p>وهلته يسوم الفخار وجيده اليك وشوق من امام يتسوده واخصب مرعاه واورق عوده وملكا جوادا طبق الارض جوده لباس جمال ليس يبلى جديده وابقت له ذكرا يدوم خلوده</p>	<p>نهنيك عيدا انت لا شك عيده اتاك وشوق من وراء يسوقه فانجع لما ان دنا منك سعيه وعاين ملكا قاهرا وجلالة والبسه من رائع الحسن والسنا لقد بيضت اثوابك البيض وجهه</p>
---	---

خرجت بها نحو المصلى معظما
يود المصلى لو يسير بنفسه
مشيت اليه خائفا متواضعا
ولم يطفك الملك الذى قد حويته
ولا ملت للدنيا عن الدين راغبا
ولكن توليت الكفاية فيهما
ووانيت في ملك عظيم وهيبة
لعمرى لقد اظهرت للملك عزة
فما ملك في الارض من غير يوسف
هو العز للارطان وهو صلاحها
فلا زال للاسلام حصنا وملجا

شعائره كالبدر وافنت سعوده
ليلقاك او يدنو اليك بعيده
لربك حيث الفضل حيث مزيده
ولا الجيش يمشى خافقات بنوده
ولا ضاعت الدنيا لدين تشيده
فكلا توفى حقه وتزیده
ثنت دونك الابصار عما تريده
وشانا عظيما عز قدما وجوده
جبل المحيا ترتضيه جدوده
اذا ما بنا الاصلاح مال عموده
يخاف ويرجى وعده ووعيده

ان في هذين القصيدتين مثلا لما كان يقال في هذه المناسبات من شعر ،
وهو كثير . وقد يحتوى بعضه على افكار في التجديد والاصلاح ، ولا سيما
من كان معروفا بهذا الاتجاه كالسليمانى والجزولى ، ولكن الديباجة هي
هذه . على أن للقباج شعرا في معانى انسانية تدل على انفعاله بواقع الحياة
المر كصيدته في غلاء المعيشة وفقدان المواد الغذائية ايام الحرب العظمى
التي يقول في مطلعها :

ومطريش قد عاف لبس الناج وصبا للبس الخز والديباج

وقصيدته التي تالها في حريق قيسرية فارس ، مواسيا بها التجار
المنكوبين وأولها :

مصابكم به نزل القضاء وليس بنافع فيه البكاء

الا أنه شعر تنقصه حرارة العاطفة ، ويلزمه الكثير من الصقل لتبرز
الفكرة الانسانية التي يصورها في الثوب الفنى اللائق بها . وقد يكون من
الطريف ان نورد قصيدا له مترددا بين الحقيقة والخيال في موضوع كراء
البيت ، ولعله كان يقصد به الى الفكاهة اكثر من شكوى الحال ، وهو هذا :

الى الله اشكو ما الاقنى من الاسى . ومن غزع قد حلبنى من كرا البيت

كرا البيت يعنى كل قلب وفاظر
 كرا البيت مثل الموت ياتى الى الفتى
 اذا قيل هذا آخر الشهر قد اتى
 وان حرك الباب الهواء حسبته
 وان جاعنى يوما صديق يزورنى
 هنينا لكم يا ساكنين بلا كرا
 ولو عنتر العيسى طولب بالكرا
 ولو ان ملك الموت قاساه مرة
 ولو ان بيتا فى الجحيم بلا كرا
 ولو رات المصلوب عيناي فى الهوى
 اقول وعندى من كرا البيت لوعة
 كرا البيت وافاتى الى كل بلدة
 وخمس نجاجات وديكان بعتم
 قلعت بساط الدار عمدا ويعته
 ويهتك سترنا للانام كرا البيت
 ويذكره يوم الحساب كرا البيت
 ترانى ماسوفا لاجل كرا البيت
 مكلف رب البيت يبنى كرا البيت
 فلست اناجيه بغير كرا البيت
 فقلبي لفقرى تد كواه كرا البيت
 لانساه طعنا بالرماح كرا البيت
 لالهاه عن تبض النفوس كرا البيت
 لطابت به السكى لاجل كرا البيت
 لقلت لهم هذا نجا من كرا البيت
 وتلبى جريح موجع من كرا البيت
 لمائى ورمى مهرب من كرا البيت
 وامهم الصنرا لاجل كرا البيت
 فلم يبق للجابى سوى مع البيت

هذه ملامح شاعرية الرجل الذى ملا البلاد شعرا فى وقت ما بهذه
 الحقبة ، وهى فى الوقت نفسه ملامح من شاعرية طبقة من الشعراء كانوا
 لعمده يعدون انفسهم حملة لواء الشعر وخاصة اهل الادب بين تومهم ، ولئن
 كنا وضعناهم فى محلهم مع بيان من كان يستجيب منهم لدعوة الاصلاح ،
 ويجارى جهده تيارات التجديد ، فلان العرض الذى يجب علينا ان نقدمه
 لادبيات فجر النهضة لا بد ان يكون عاما يشمل جميع الطبقات ، وان لم
 يستوعب جميع الافراد ، ولا بد ايضا ان يكون مطابقا للفكرة التى اعطيناها
 مقدما عن التطورات الطارئة على الادب نثرا وشعرا ، وهى كما قلنا لم
 تكن حاسمة بالنسبة الى الشعر ، فلم نقض على كثير من مخلفاته القديمة ،
 وانما تناولتها بين التحوير والتعديل .

وتم شاعر كان مقسما بين الاتجاهين ، له ميل الى التجديد والاخذ
 بالانكار الاصلاحية ، ولكنه استند طاقته الشعرية فى شعر المناسبات
 والتكسب بشعره على طريقة الشعراء المتقدمين ، وكان له كالتباج لقب
 عرف به ، وهو لقب شاعر الحمراء يعنى مدينة مراكش عاصمة الجنوب

المغربى لانها بلده على انه كان نابغة حقا ، ويشبه القباچ فى انه كان شاعرا بطبعه ، وتلما يحتفل بتنقيح شعره فيقع احيانا فى ضرورات قبيحة ، وان كان فى سمة الاتق والخيال الشعرى يفوقه كثيرا هذا الشاعر هو محمد ابن ابراهيم (ت 1375) وقد اضناه الى شعراء هذا الرميل لانه كان الصق به منه بشعراء الجيل الجديد . وكان اوسع مجالاته بعد المدح الخمرات والهزاء ، فمن قوله فى المدح :

وحق الذى فوق السماوات عرشه ويعلم من قلبى المكتم ما اعنى
اذا اختارك التاريخ ابنا مخلدا لقد عرف التاريخ ما اختار من ابن

وله من قطعة خمرية :

لئن فتكت سود العيون بهجتى فكم اوردتنى زرقها مورد الهلك
وكل صنوف الراح عاترت كاسها وما اذهبتفسكى سوى خمرة الوسكى

وله يصف البلز :

لما استقام ولم يفز بهرامه اعوج كى تقضى له الاوطار
وكذا الزمان مستقيم خائب واخو اعوجاج نال ما يختار
بختار من بين الفنان كواعبا منهمن اجساد الظباء تفار
من كل عذراء صموت راسها يعطوه من فرط الحياء خمار
وعليه فض خناهما قسرا وان علقت بوصمة فعله الانتظار

وله من قصيدة يصف بها نفسه ويهجو ابناء زمنه :

بها بيننا من حرمة ابها المحب دعونى وما يقوى على حمله القلب
فانى مدهى بخطب يسؤنى وعيشى فى هذا الزمان هو الخطب
فلا تنكروا منى دموعا سكبتها تخلف احزانى دموع لها سكب
وابناء هذا الدهر الا اقلهم ظواهرهم سلم وباطنهم حرب
فمالى واتوام بليت بحقدهم وليسوا بالكفائى وما ضمنا سرب
ومالى ارب عندهم متطلب ولا لهم عندى — فاعرفه — ارب

لسانى اذا جردته صارم غضب
 فان سمر الحقدن القلب لا يخبو
 تطاول راس منهم وانبرى السب
 ليخبرنى خب بما قاله خب
 مخازيهم انهوا تملكهم رعب
 اذا هو عن انيابه كثر الكلب
 وبغضهم والله عندي هو الحب
 فقربهم بعد وبعدهم قرب

أضرهم منى الذى يعرفونه
 الا دع سمر الحقد يغلى بقلبيهم
 نواكس ابصار امامى فان اغب
 ويضحكنى منهم الى مسابق
 كذلك ارباب المخازى اذا هم
 اما يضحك الكلب المهتم نابيه
 وابغض ما عندي التحجب منهم
 فافقدنى مراهم كل راحتى

ان نفس الشاعر يظهر من هذه الابيات ، ولا شك انه كان سيال
 الطبع طلق اللسان ، والمعانى الشعرية تنثال على خاطره انشبالا ، ولكنه
 لا يعنى بالبأسا الحلل التى تليق بها من حيث جزالة اللفظ ومتانة التركيب .
 ثم هو لا يعود الى شعره ينتحه فيطرح منه السقط ويقيم المناد ، لانه كان
 يعيش عيشة بوهيمية تبعد ما بينه وبين الاهتمام بذلك ، وقد اشتهر من شعره
 قصيدة هزلية فى فندق بطنجة كان يسمى المطعم البلدى ، نوردها هنا
 لنواخى بينها وبين شبيهتها التى للقباج فى كراء البيت ، وهى هذه :

فان طنجة فيها المطعم البلدى
 بعكس اخلاق رب المطعم البلدى
 وكالضباب ذباب المطعم البلدى
 لما ترى حجما بالمطعم البلدى
 يا مرحبا بضيوف المطعم البلدى
 نمشه فى سرير المطعم البلدى
 ان نبت فوق فراش المطعم البلدى
 اذا اكلت طعام المطعم البلدى
 كالقبرنى الضيق بيت المطعم البلدى
 والقلب فى حلق بالمطعم البلدى
 فقلت من قال رب المطعم البلدى
 يهتز منها جدار المطعم البلدى
 فيهم مثيلا لرب المطعم البلدى

ان كان فى كل ارض مائشان به
 اخلاق ابنائها كالمك فى ارج
 باتيك بالاكل والذباب يتبعه
 ما بالبراغيث ان تعايت عجب
 تلفاك راتمة بالباب تائلة
 والبق كالفلو حجما ان جهلت به
 تببت روحك بالاحلام فى رعب
 اما الطبيب فعجل بالذهلب له
 يامن مناه المكان الرحب فى سفر
 المرء فى تلقى والطرب فى ارق
 وليلة زارنى فى الفجر صاحبه
 وكالدافع خلف الباب سطلته
 وكم ثقيل رات عيني وما بصرت

وقلت خيرا مقال الخير اعرفه
 ان كان عندك قل لى من ملاحظة
 فقلت مالى ارى هذا الذباب غدا
 فقال ان فضول الناس يقلقنى
 فقلت والبق قال البق ليس به
 فقلت هذى البراغيث التى كبرت
 فمزى كصديق لى يداعبنى
 يامن غدا يفتوى لطنجة سفرا
 بنى الفتى كل مقدور يمر به
 وتعرف الناس خير المطعم البلدى
 تزيد حسن نظام المطعم البلدى
 مثل السحاب يامق المطعم البلدى
 هذا الذباب ذباب المطعم البلدى
 باس اذا كان بق المطعم البلدى
 ما بالها كثرت بالمطعم البلدى
 وقال تلك جيوش المطعم البلدى
 اياك اياك قرب المطعم البلدى
 الا سبيت الفتى بالمطعم البلدى

وما نحسب اننا نصف برواية مثل هذا الشعر الهزلى ، فان الامر
 فى الادب ليس جدا كله ، وقد روينا من جد الادب الذى قيل فى هذه
 الفترة ما فيه الكفاية ، فلا بد من الاحماض بشيء من هزله ، خاصة وان
 الحديث بهذه الطريقة عن بعض الاشياء معهود لدى الادباء من عهد أبى
 دلالة وبخلته التى ذهبت مثلا فى النقائص والعيوب ، على ان جو الاديب
 اذا كان مرحا طويلا لا يخلو من بعض هذه الالتماعات التى تكشف عن
 جانب من شخصيته ويجب تلحها لمعرفة آفاق أدبه والاهتداء بها لدراسة
 ادب العصر

الجيل الجديد

سواء كان الجيل حصة من الزمن أو طائفة من الناس ، فإننا بعد سنة 1930 أصبحنا نواجه جيلا جديدا حقا لقد استدار الزمان فولى وجهه شطر الشرق ، وكانت حضارة الغرب قد استهوتته . فوقف مشدوها تجاهها لا يلوى على شيء . ان احدانا عظيمة وقمت في بلاد اوربا جعلت توتها تضعف ، والاستعمار يتخاذل فلم يكن بد من انكشاف الزيف وظهور العوار . الثورة الاشتراكية التي تثبت اقدامها في بلاد الروس ، وجعلت ترفع اعلامها في كثير من البلدان الاخرى ، والحكم العائى ثم النازى الذى ذر ثمره في بحبوحة اوربا وزرع القارة بتهديده واستطالته . وجمعية الامم المنهارة لعجزها عن التوفيق بين مصالح الدول القوية وحقوق الشعوب المستضعفة ، كل ذلك مما نشر الذعر في نفوس المستعمرين الاوربيين وحول السياسة الاستعمارية نحو تفهم الرقبات الوطنية لدى البلاد المستعمرة نشدانا للسلام ، وخوفا من تفكك جهازها الدفاعى الذى تعد المستعمرات من اهم دعائمه .

وبقدر تراجع الاستعمار ، واضطراب امر الدول الاوربية كان تقدم الحركات الوطنية في بلاد الشرق وانتظام عملها ، فقد ثارت الهند ثورتها التى لم تنه الا باستقلالها وميلاد دولة باكستان الاسلامية ، وجددت بلاد العرب ثورتها على التدخل الاجنبى في شؤونها الخاصة . وفي المغرب بدأت الحركة الوطنية تبرز للميدان في شكل هيئات سياسية تطالب بالاستقلال وانهاء عهد الحماية . ان ما لم تحققه الثورة المسلحة بدا العمل السياسى يجرب حظوظه للعمل من اجل تحقيقه .

وكان الحافز الاول لظهور الحركة الوطنية بمظهر المقاوم الجاد ، حادثا سياسيا خطيرا اراد المستعمرون به ان يقسموا المغرب الى قسمين ،

تسم يخضع للتشريع الاسلامى وقانون الفقه المالكى المعمول به فى المغرب ، وهو المدن وبعض القبائل التى تتكلم اللغة العربية . وقسم استحدثوا له قوانين مستمدة من بعض الاعراف الجاهلية ومطعمة بالقانون الفرنسى ، وهو ما يشمل جبال الاطلس والبلاد التى تتكلم اللغة البربرية ، وهو معظم الشعب المغربى . وكانوا يهدفون من وراء ذلك الى اذكاء النمرة البربرية والتفرقة العنصرية بين سكان المغرب حتى اذا تم لهم عزل القسم الثانى عن الاول او عزوا اليه بطلب الانفصال عن حكومة السلطان ، وناسبى حكومة خاضعة للنفوذ الفرنسى ، يتاومون بها الحكومة الشرعية للبلاد وما تمثله من مبادئ وقيم ، وفى طبيعتها الاسلام والعروبة ، وقد سميت هذه المحاولة بالسياسة البربرية واستصدر لها ظهير سلطانى اى مرسوم ملكى بتاريخ 16 ماي 1930 عرف فيما بعد بالظهير البربرى . واصدار مثل هذا الظهير يبين الى اى مدى كان تطلغل النفوذ الاستعمارى فى الحكومة المغربية الا ان المعارضة التى لقيتها السياسة البربرية بعامة ، سواء من لدن العرب او البربر ، كانت من القوة بحيث لم يستطيع المستعمرون تطبيق ذلك الظهير الا فى جهات قليلة من موطن البربر . وكان رد فعل هذه السياسة رائعا بالنسبة للحركة الوطنية ، اذ قوى ما بين العنصرين العربى والبربرى من الروابط ، وجعلهما صفا واحدا فى وجه المستعمر ودساتيسه .

وكان من الحركات التى نتجت عن هذه السياسة واثارت حفيظة الاستعمار ان وفودا عديدة من قبائل بربرية جعلت تتوارد على الرباط مطالبة بتعيين القضاة الشرعيين فيها ، ومعلنة انها لا تقبل بحال الخضوع للمحاكم العرفية لمخالفتها لاحكام الاسلام . وان البربر ضاعفوا من جهودهم لفتح المدارس العربية فى بلادهم وارسل ابنائهم لاتمام دراستهم فى المدن ، ولا سيما العوام التى تتوفر على مدارس عليا للغة العربية كمدينة فاس حيث توجد جامعة القرويين ، ومدينة مراكش حيث توجد جامعة ابن يوسف وعاصمة الرباط حيث توجد ثانوية مولاى يوسف وغيرها اما الضجة التى احدثها صدور الظهير فى العالم الاسلامى بسبب الدعاية التى قامت بها الحركة الوطنية ضده فقد كانت عظيمة جدا ، حتى انه لم تبق جمعية اسلامية ولا زعيم سياسى فى بلاد العرب والاسلام لم يحتج عليه او يعلن استنكاره

له ، وتناولته الصحف في أقصى بلاد الشرق بالنقد والتزيف . وكان من
المعقد سنوات عديدة انه كلما حلت ذكره السنوية تقيم الجمعيات المختلفة
والمعاهد الاسلامية والمنظمات الطلابية في الشرق ، مهرجانات خطابية
حافلة تعبر فيها عن تضامنها مع الشعب المغربي في تمسكه بوحدته الوطنية
واسلامه وعرويته .

وغنى عن البيان ان الشعب المغربي على بكرة أبيه كان يقوم في هذه
المناسبة بواجبه الوطني اتم قيام ، فمن اضراب عام ، الى مظاهرات
صاخبة ، الى تجمعات في المساجد والاندية والدور ، وخطب نارية تلقى
في هذه التجمعات مطالبة بالماء هذا الظهر ومطنة عدم الاعتراف به ،
ويكل ما هو منه بسبيل ، في تهكك الوحدة المغربية ومحو الشخصية
الاسلامية والعربية للبلاد . وطبيعى ان هذه الحركة كانت باعثا قويا لنشاط
فكري عظيم تنافس فيه الكتاب والخطباء والشعراء فنشرت عدة كتب ،
والآلاف المقالات ، ونظمت التصائد التي يخطئها العد ، في تحجيس الشعب
للقيام ضد هذه السياسة المشؤومة ، وبيان ما تنطوى عليه من دسائس
استعمارية ، وحض مزاعم الذين وضعوها من غلاة المستعمرين الطاعنين
في عروية الشعب المغربي والقائلين باستغفاته عن الشرع الاسلامي ، بما
له من تقاليد واعراف قديمة في الحكم والقضاء وهذا الجانب الادبي
من النشاط الذي بعثته هذه الحركة هو ما يهمنا في احاديثنا هذه ..

واغتنمت الحركة الوطنية فرصة التضامن الذي مكن له الظهور
البربري بين عناصر السكان ، فاجدت باتفاق مع جلالة الملك المرحوم محمد
الخامس مناسبة جديدة لتجسيم الوحدة المغربية وثبتت السيادة الوطنية
هي مناسبة جلوسه على العرش المغربي في 18 نوفمبر 1927 للاحتفال
به ، فكان عيد العرش الذي صدر به قرار وزيرى في سنة 1934 مظهرة
وطنية تقام كل عام في جميع المدن والقرى ، القصد منها ديمومة حسم
المواطنين للالتفاف حول العرش المغربي والجالس عليه تمسكا بوحدة البلاد
وابرازها لشخصيتها المتمثلة في حكومة السلطان ودولته الشريفة ، وكان
محمد الخامس اذ ذاك قريب العهد بالجلوس على العرش ، وما يزال
في فناء من سنه ، ولكن شعوره الوطني العميق وحصانته السياسية التي

ظهرت بعد بأجلى مظهر كانا من العوامل الأساسية التي دفعت بالحركة الوطنية الى الامام في هذه الخطة الحكيمة وفي غيرها من الخطط والاعمال التي قامت بها لصالح الوطن بتأييد منه ومؤازرة .

ان عيد العرش كان في الاول-مظاهرة وطنية ، ثم صار بعد ذلك موسبا ادبيا تنجز فيه اعمال ادبية رائعة . فمن مقالات في تاريخ الدولة المغربية وعظمة العرش المغربي ، الى خطاب في تمجيد الوطنية وجمع المواطنين على خدمة الاهداف المقدسة التي ترمى اليها ، الى تصاند في مدح الجالس على العرش والتثويه بمشاريعه الإصلاحية ولا سيما في التعليم والنهوض بالفتاة المغربية وانماش الاقتصاد المغربي بحيث لما تقدم الامر بهذه المظاهرة احدثت جوائز مالية تدفع للجبيدين في الانتاج الادبي الذي يصدر عن الادباء شعرا ونثرا في كل سنة بمناسبةها . وحدث بعد سنوات قليلة من وجود عيد العرش ان صار الملك نفسه يحتفل به في القصر الملكي احتفالا يحضره وجوه البلاد وكبار الشخصيات ويلقى فيه الملك خطابا رائعا يتحدث عن اعمال الدولة ومنجزاتها التي تكون في صالح الشعب ، ويطلب بما يراه ضروري التنفيذ من الإصلاحات السياسية وغيرها ، حتى تطور الامر الى المطالبة بالاستقلال والحكم النيابي اواخر عهد الحماية .

وكانت الحركة الوطنية في هذه الاثناء قد حضرت مشروعا للمطالبة بحقوق الشعب المضمومة ، وبانتهاج سياسة اصلاحية تتناول جميع شؤون الادارة والحكم وتقدمت هذا المشروع الى المراجع المعنية بالامر تحت اسم مطالب الشعب المغربي ، وجندت له جميع القوى الشعبية من علماء واساتذة وطلبة وتجار واعيان وملاحين وصناع وعمال وغيرهم ، فابديته جميع الطبقات وطالبت بتنفيذه . وتوالى الضغط على حكومة الحماية من كل جهة ، تصد الدخول في مفاوضات مع الوطنيين من اجل هذه المطالب وبما ان المشروع كان يستهدف بسط يد الحكومة المغربية وجعل حد للحكم المباشر الذي كان يقوم به ممثلو سلطة الحماية ، فان هذه الاخيرة لم تجد وسيلة للتخلص من الحاح الوطنيين الا قمع حركتهم وفتح السجون في وجه الكثرة الكاثرة منهم ، والتطويع بقادتهم الى المناق السحيقة في داخل المغرب وخارجه . وكان هذا التصرف بمثابة اشعال النار في يابس الحطب ،

تزايدت الحركة الوطنية قوة وانتشارا ، وتخطت المطالبة بالاصلاحات الى الاستقلال التام وذلك عقيب الحرب العالمية الثانية وبقيّة قصة الكفاح السياسي معروفة فقد استمرت المشادة بين الطرفين المغربي والفرنسي الى ان ركبت فرنسا راسها وكنتت الميدان من جميع القادة الوطنيين ثم انزلت محمد الخامس عن العرش وابعدته الى جزيرة مدغشقر ، فكان ذلك ايذانا بانطلاق المقاومة المسلحة التي ارغمتها على الاعتراف بحق المغرب في حريته واستقلاله ، وارجعت اليه ملكه الشرعي معززا منصورا .

وغير خاف ان هذا الكفاح السياسي الطويل كان مقرونا بكفاح آخر في الميدان الثقافي لا يقل عنه تأثيرا وفعالية فقد تويت حركة الاقتبال على التعليم وانتشرت المدارس الوطنية في طول البلاد وعرضها ، وكثرت البحوث العلمية الى اوربا والشرق العربي ونظمت الدراسة بجامعة القرويين وادخل عليها اصلاحات مهمة ، مما حصل معه تقدم كبير في الحياة الادبية وتطور في مفهوم الادب، ارتفع معه عن الابتدال الذي كان ما يزال عالقا به الى حقبة نجر النهضة المتقدمة . وكان للصحافة الوطنية التي نمت في هذا العهد نموا ظاهرا وخاصة الادبية منها ، يد طولى في توجيه النهضة الادبية ورعايتها ، لا سيما وقد انبرت الاقلام المثقفة للنقد الانتاج الادبي علنا لاول مرة . وكان النقد قبل ذلك قليلا وانما يقع في المجالس الخاصة . فلما كثر واصبح ينشر في الصحف السيارة ، صار الادباء يعرفون ما يقولون ويحرصون جهدهم على الاجادة وهكذا قل التطفل على الادب ، ولم يبق يدعيه كل من هب ودب .

وكان للاديب محمد بن عباس القباج فضل السبق في هذا المضمار ، فانه الذي افتتح معركة النقد اولا بمقالاته القيمة التي كانت تنشرها له مجلة المغرب تحت عنوان لذعات بريئة . وقد تومت هذه المقالات من زيغ المقاييس الادبية التي كانت متبعة اذ ذاك ، وحدثت ضجة كبيرة بين الادباء المخضرمين الذين كانوا قليلي الاطلاع على الانتاج الادبي الجديد في الشرق العربي . ثم تام هذا الاديب الى جانب ذلك بتأليف كتاب عن الادب المغربي يضم آثار نخبة من الادباء المعاصرين ، شيوخا وشبابا . فوضع بذلك اللبنة الاولى لدراسة الادب المغربي الحديث وقد نشر هذا الكتاب في جزئين لطيفين منذ اكثر من

اما الصحافة الادبية التى كانت تتعهد نهضة الادب والفكر بعامه ، فانها مجلة السلام ومجلة المغرب الجديد ومجلة رسالة المغرب ومجلة الثقافة المغربية وسواها . والاولى كان يصدرها الاستاذ محمد داود والثانية للاستاذ المكي الناصرى والثالثة انشأها حزب الاستقلال والرابعة لحزب الشورى . وتعتبر هذه المجلات سجلا للحركة الادبية فى هذا العهد يحتوى على احسن الآثار التى انشأها ائلام الادباء البارزين من الجيل الجديد

ويتصفح هذه الآثار وتصنيفها نجد ان الحصاد الادبى لهذا الجيل ، اصبح من الفنى والتنوع بحيث يمكن القول انه استتم العنصر الاولى للادب الحى . وانه شق الطريق للحاق ثقافتنا بالبعث الادبى فى العالم العربى . وفى النثر زيادة على نمو المقالة السياسية والاجتماعية والادبية ظهرت البحوث المتنوعة فى الفلسفة والفن والنقد ، وبلغت الخطابة السياسية اوج الكمال ، وبدأت المحاولات الناجحة فى كتابة الرواية التمثيلية والاتصوفة والقصة ، وذلك فضلا عن نشاط حركة التأليف فى الموضوعات السياسية والتاريخية والعلمية . وفى الشعر استفحل النظم فى موضوع الوطنية تبعا لاستفحال حركتها ، فكاد الشعر كله يكون ثورة على الاستعمار ودعوة الى مقاومة النفوذ الاجنبى ، وتذكير الشعب بمجده ، وتاريخه العظيم ، وتحول الشعر العاطفى من نفاهة العبارات الجوفاء الى تجارب ذاتية وانسانية صادقة وجمال الشعراء فى ميدان الطبيعة ، وحلقوا فى مجال الفكر ، وظهر الشعر التمثيلى فى مسرحيات صغيرة تعتبر كنواة لهذا اللون الجديد فى الشعر العربى . الى غير ذلك من مظاهر التفتن والابداع التى اكسبت الادب المغربى منثورته ومنظومه بسطة فى الشكل والمضمون لم يعرفها من قبل . وهكذا لم يبق الادب فنا مسخرا لخدمة الرؤساء والملوك ، ولا تجزية للوقت عند من لم ينزل بأدبه لمستوى الشعراء المداحين والكتاب المتكسبين ، بل صار دعوة ومذهباً ، وفنا رغبيا تمثل فيه الحياة الانسانية باهوائها ومطامحها والكون بجماله ونظامه . واصبح الاديب صاحب رسالة سامية ومكانة مرموقة فى المجتمع بصفته احد قادة الفكر ورائدا من رواد الاحياء والتجديد

ولا نغنى أن الادب المغربى بلغ كماله ، ولا أن الاديب المغربى ادى مهمته كاملة ، وانما نغنى انهما اصبحا على الطريق ، وصارا على ميعاد مع تافلة الادب والادباء فى الشرق العربى . أى أن المغرب طوى مراحل التخلف التى كانت قعدت به عن اللحاق بركب النهضة العربية فى اول هذا القرن ، ولم يبق مع الخالفين .

وحرصنا على تلاقى المغرب والشرق العربيين ، لايماننا بأن الاتجاه واحد ، وأن نهضة الادب الحديث ساهم فيها جميع الاقطار العربية ، فهى منطلق الفكر العربى لا بقيد كونه شرقيا أو مغربيا . ومن الخطأ أن نميز عمل أى بلد عربى فى هذا الصدد ، سواء كان سابقا أو لاحقا ، لأن طابع العروبة لا يوجد الا حيث تلتقى جهود العرب كافة . ولم يتحقق للنظرية الاقليمية فى الادب العربى مدلول خارجى ، برغم ما قيل فى توجيهها والتقوية بآثارها . والذى يتحقق يوميا هو أن الادب العربى يتلاقى على مصيد الفكرة الجامعة والاتجاه الموحد ، وأن انصار الاقليمية ينهزمون دائما فى ميدان السياسة وميدان الادب على السواء . لأن امر العرب الى وحدة وكلمتهم الى جمع . والفوارق الطفيفة التى توجد بين مجتمعاتهم المحلية لا تبلغ من القوة ما يجعلها تغير وجه الادب فى أى قطر عربى عما هو عليه فى قطر آخر شقيق ، كما أن الحدود المصطنعة التى نرست على بلاد العرب لم تستطع أن تحول بين الشعوب العربية والاتجاه نحو الوحدة السياسية الكاملة .

أن الادب العربى وحدة لا تتجزأ ، وأن ما يجد فيه من مذاهب واتجاهات هى فى نظرنا وليدة تفاعل افكار الادباء العرب ، والتيارات الفكرية الحديثة التى طرأت على الادب العربى بواسطة الترجمة عن الآداب العالمية والاطلاع على الثقافات الاجنبية المختلفة . وليس شئ منها متولدا عن طبيعة الاقليم والسكان وخصائص الجنس والوراثة كما يحلو لبعضهم أن يعلل ذلك . ولا نستدل إلا بأن أى مذهب أو اتجاه ظهر فى بلد من بلاد العرب ، لا يلبث أن يتردد صداه فى بقية هذه البلاد وينمو ويزدهر على يد ابناء العرب كلهم . كان الامر فيما مضى حين كانت طريقة المتنبى التى ظهرت فى المشرق تجد من أبى القاسم بن هانىء راعيا لها فى الاندلس حتى سُمى بمتنبسى

المغرب . وكان البحترى يمثل في ابن زيدون ، والمعرى وابن شهيد بكادان يردان من منبع واحد ، هذا في رسالة التوابع والزوابع ، وذلك في رسالة الغفران . ولما ظهر التوسيح في بلاد المغرب وراجت سوقه بين الادباء المغاربة ، لم يلبث ادباء المشرق ان اقبلوا عليه واهبلوا به حتى الفوا فيه الكتب الخاصة . وكذلك كان الامر في العصر الحاضر . فما ان ظهر بعد الحرب العالمية الاولى ما يسمى بالادب المهجري من انتاج الادباء اللبنانيين والسوريين المستوطنين في الامريكيتين حتى انتشر في العالم العربي وتعاظم الادباء هنا وهناك . وفي فجر ظهوره وانتشار آثار اعلامه كجبران خليل جبران وامين الريحاني وسيخايل نعيمة وغيرهم ، كان عندنا في طنجة محمد الحداد يكتب بذلك الاسلوب ويضرب على تلك النغمة ، حتى لنحسبه احد رواد ذلك المذهب .

واليوم تشهد الشعوب العربية جميعا نشوء طريقة جديدة في نظم الشعر ، هي طريقة الشعر الحر ، التي تحمس لها ادباء الشباب ، وتداعوا اليها من كل قطر ، فهل يدل ذلك الا على ان روافد الادب العربي تصب في نهر واحد وان تباعدت اقطار العرب وتوزع سكانها ما بين مشرق ومغرب . والمقصود من هذا اننا لا نقدم ادبا مغربيا متميزا بشيء عن الادب العربي العام لانه جزء من كل . ولا نقوم بدراسة تعتمد على شخصيات الادباء المغاربة اكثر مما تعتمد على الخطوط العريضة التي يتالف منها سجل الادب الحديث في العالم العربي اجمع . ومن اجل ذلك نشير في الفينة بعد الفينة الى تلاقى ادبائنا وادباء الشرق العربي ، اذ كان اتجاه الجميع واحدا

وشيء آخر نريد ان نقرره لنلا نقع في محذور سوء التقدير . وهو اننا لا نرى اخضاع ادبنا لمقاييس النقد الغربية باطلاق ، ولا ربطه بمدارس الادب الاوربي من رومانسية وواقعية وغيرها ، فضلا عن تقسيمه الى اقسامه كتقسيم الشعر الى غنائي وقصصي وتمثيلي . ذلك لاننا من اعدى اعدى التقليد في العقيدة والمذهب ، فاحرى في الادب فكيف نسرف فيه هذا الاسراف ، حتى ناخذ انفسنا بتأثر خطي غرنا فيما نعدده مرآة لشعورنا وتعبيرا عن ذاتنا ؟ لا سيما وبعض هذه الاسماء اجنبى . عن لغتنا كالرومانسية ، لم يستطع مقبسونه ان يترجموه . فبقى موها بنسبته هذه

غير ما يراد منه ، فاحتاج الى التفسير والبيان . وبعضها وان كان مترجما كالشعر الغنائى فانه لا يطابق مدلوله اللغوى عندنا الا بتحمل وتكلف . واذا تبيل ان هذا اصطلاح ولا مشاحة فيه ، قلنا ان ذلك صحيح لو كان الاصطلاح اصيلا لا دخيلا . وما ابعد ما بين معنى الغناء فى العربية وشعر المدح والهجاء مثلا الذى يندرج تحت هذا الاسم . وهل عجزت العربية ان توجد لهذه الابواب من الشعر اسما جامعا يشملها اذا كان لا بد من ذلك ؟

ولسنا كما قلنا فى حديث سابق ننكر الاقتباس من آداب الامم الاخرى وثقافتها فيها تدعو اليه الحاجة ، ويخصب تراثنا الفكرى كالشعر القصصى والتمثيلى الذى كان ادبنا خاليا منه . ولكننا ننكر الاسفاف الذى يبلغ الى حد اقتباس التقسيمات والاصطلاحات التى لا تنطبق على انتاجنا الادبى مطلقا . فاسم الشعر الغنائى اذا كان له ما يبرره عند النقاد الاوربيين حين اطلقوه على هذه الاغراض الشعرية التى ليست بقصص ولا تمثيل ، من أن الشاعر — كما يقال — كان يأخذ قيثارته ويغنى عليها اشعاره لمدوحه او معشوقته ، فان الشاعر العربى لم يكن يغنى اشعاره قط . وانما كان ينشدها فى تعازيم واعتداد بنفسه وهو قائم او راكب على ناقته كالخطيب او القائد الذى يحبس جيشه . بل ان من الشعراء من كان يشترط على مدوحه ان ينشده جالسا كالمتنبى . فليس عدم مطابقة المدلول اللغوى وحده هو الذى يمنع من اقتباس هذا الاصطلاح ، بل واتع الحال ايضا ولو اننا اطلقنا على هذه الاغراض الشعرية المختلفة من المدح والهجاء والرثاء والفزل والوصف اسم الشعر الذاتى ، اذا كان لا بد من هذا التقسيم ، لكننا اقرب الى المعنى الصحيح فانه ما من غرض من هذه الاغراض الا وهو يعبر عن ذات الشاعر واحساسه وانفعاله اصدق تعبير .

وابعد من هذا عن الصواب محاولة ربط الادب العربى بمدارس الادب الاوربى وتطبيق آرائها عليه ، من غير مراعاة للفوارق الجوهرية بين الادبين فى نشأتها وبيئتهما ، وفى فنونهما واغراضهما ، فالرومانسية مثلا لم تسد فى عصر ادبى او تسيطر على طبقة من الشعراء حتى تكون مدرسة مستقلة لها عهد معروف ورواد معروفون كما كان عليه الامر فى اوربا . وكذلك القول فى الواقعية ، فانها لم تخلف الرومانسية عندنا وتعقب على آثارها . وقد نشأ

الادب العربى اول ما نشأ ، واقعيا يخوض معارك الحياة ، ويعبر عن ماجريات احوال العرب في جاهليتهم بصدق واخلاص ، حتى اننا ما عرفنا كثيرا من حقائق تاريخهم الا عن طريق هذا الادب . وكذلك كان الامر في صدر الاسلام والمهد الاموى . ثم رجح جانب الرومانسية فيما بعد ذلك ، ولكن من غير ان يخفت صوت الواقعية ابدا وحسبنا بادب المعرى تقريراً لهذا المذهب واعلاء لسانه في القرن الرابع وهكذا بقى الامر يتراوح بين النزعتين عند الادباء الى وقتنا الحاضر .

والملاحظ في العموم ان قلة من ادبائنا هم الذين غلبت عليهم النزعة الرومانسية . واما الكثرة منهم فانها كانت تشارك في الاحداث وتعيش واقع الحياة . ولا يخفى ذلك في آثارها الادبية على من يتحنى بتتبعمها ويهتم بدراستها . فان كثيرا مما صورته من الوقائع وسجلته من الحقائق ، يوجد في غير مظلانه ، وفي اثناء الاعمال التى توهم بظاھرھا انها ذات اتجاه رومانسى والادب العربى كم يخفى في ادراجه من درر ثمينة ما زالت لم تجد الناقد الجهد الذى يبحث عنها ويجليها للناس .

والذى يظهر ان ما بين المذهبين اقرب من ان يجعلهما متدافعين ، فنجدھما يتواردان على كثير من الادباء فيظهر اثرھما في منتجاتھم الادبية ، ويصعب بذلك ردها الى هذا المذهب او ذاك : واكثر ادبائنا الواقعيين اليوم ، لا يلبث ان يستحيل رومانسيا اصيلا كلما غنى همومه واحزانه . فنحن بهذه الظاهرة العامة ولحرصنا على عدم اخضاع الادب العربى لمقاييس النقد الاجنبية عنه ، لا نعطى امثلة من ادب المغرب تعتمد احدى النزعتين او غيرها من النزعات التى تشيع في الاسب الغربى ، بمعنى اننا لا ندرس ما تقدمه من ادب هذا الجيل الاعلى اسس النقد العامة . وان لم يكن به فقر في ناحية من تلك النواحي . معتقدين ان بلوغ الادب العربى الى اوج كماله هو الذى سيقدر قواعد النقد الجديدة الخاصة به ، ويجعل حدا لهذه الفوضى الادبية التى تضل اكثر مما تهدى .

واذ اوضحنا معالم النهضة الادبية لجيل المغرب الجديد على الاجمال ، وبيننا الطريقة التى تناولها بها عند العرض المفصل ، لنتفرع في بيان اوجه

النشاط الفكرى العام ، لفتخلص منه الى الانتاج الادبى الخالص ، كما فعلنا في المرحلتين السابقتين ولقد كان النشاط قويا ومتنوعا ويمتاز عما سبقه بحيوية موضوعاته ومنهجية ابحاثه واستجابته لمطالب الحياة الجديدة من سياسية واجتماعية وثقافية .

وكانت المجالات التى ذكرناها انما نرعى هذا النشاط وتوجهه وبجانبها عشرات الجرائد التى فتحت صفحاتها للمقالة الادبية والتمرير والقصة وسائر ضروب الانتاج الفكرى وبهنا هنا الابحاث الكاملة والكتب المؤلفة فى مختلف الموضوعات .

ونتيجة لما كانت البلاد تمر فيه من اطوار سياسية غير عادية فقد كان الموضوع الذى استبد بنشاط الاكثريّة من الكتاب وبكر بالظهور فيه عدد من المؤلفات هو موضوع السياسة وللاستاذ المكي الناصرى فيه سابقة معروفة فقد اخرج كتاب فرنسا وسياستها البربرية فى المغرب الاقصى ، الذى فصح اسرار السياسة البربرية وسجل اهم المستندات التى بنيت عليها هذه السياسة . من اقوال كبار المستعمرين ، ومباحث ضباط الاستعلامات ، والنصوص القانونية التى اعطتها صفة المشروعية . وناقش ذلك كله بما ابطله ، واثبت انه لا قيمة له من الناحية العلمية والتاريخية . وان كل قوته مستمدة من سياسة مرقق تسود .

ومعلوم ان السياسة البربرية كانت هى الشغل الشاغل لكل المغاربة فى اول هذا العهد كما سبقت الاشارة لذلك فمجا هذا الكتاب سادا لفراغ عظيم وفى وقت الحاجة اليه . اذ كانت الكتب الفرنسية فى الموضوع تعد بالعشرات ، على حين لا يوجد كتاب واحد بالعربية ينقض مزاعم الخصوم ، ويقرر حقيقة هذه السياسة للجماهير العربية والاسلامية .

واخرج كذلك كتاب الاحباس الاسلامية فى المملكة المغربية . وهو كتاب له اهميته السياسية من حيث ان الاستعمار الفرنسى حاول الاستيلاء على املاك الاحباس وتملكها للمصريين الفرنسيين . وبالفعل سطا على كثير من هذه الاملاك وخاصة منها الاراضى ذات القيمة الفلاحية المتنازعة . واخرج الاستاذ الناصرى كتاب موقف الامة المغربية من الحماية الفرنسية ، وهو

يتناول بالبحث معاهدة الحماية الفرنسية والظروف التي فرضت فيها على المغرب ، وتبعتها من الناحية القانونية ، والمعارضة الشديدة التي لقيتها من جميع المغاربة ، وخرق فرنسا لهذه المعاهدة بمباشرتها للحكم في البلاد ، مما أدى الى تكتل الأمة المغربية ومقاومتها للاستعمار الفرنسى بكل الوسائل .

وكان للاستاذ علال الفاسى اليد الطولى في الابحاث السياسية التي تتعلق بالقضية المغربية . وكتابه الحركات الاستقلالية في المغرب العربى كما يفهم من اسمه لا يختص بالتاريخ للقضية المغربية ، بل يتناول كذلك قضية احتلال الجزائر وتطور الإستعمار بها والمقاومة العنيفة التي لقيها من السكان سواء في الميدان السياسى او الحربى . كما يتناول القضية التونسية منذ نصب الحماية الفرنسية على تونس وتيام الحركة الوطنية في هذا القطر والكفاح الطويل الذى قامت به في سبيل الاستقلال ، وارتباط قضايا المغرب العربى بعضها ببعض مما لا خفاء به . فلذلك كان تناولها بالبحث في كتاب واحد مثل الحركات الاستقلالية من الاعمال الموثقة . واصدر الاستاذ كذلك كتاب حديث المغرب في المشرق وهو يتضمن الاحاديث التي القاها في البلاد العربية الشقيقة تعريفا بالمغرب وقضيته الوطنية .

اما كتاب النقد الذاتى للاستاذ فهو اكثر من كتاب سياسى . انه والحق يقال منهاج للحكم والادارة والاصلاح الاجتماعى يضعه علال الفاسى نصب عين المكافحين من اجل استقلال المغرب ليستفيدوا منه في بناء مغرب جديد لا مجال فيه للانانية ولا للفوضى . وسيبقى اثره شاهدا بعبقريه جيل النهضة ، واصالة الحركة الفكرية في هذا العهد الى ما شاء الله .

والكتابات السياسية حول القضية المغربية اكثر من ان تحصر فيما ذكر ، ولا سيما ما هو مغرق منها في الصحف والمجلات لم يجمع في كتاب . واهم ما كان باقلام القادة الوطنيين الذين خاضوا غمار المعارك السياسية كالاستاذ محمد بن الحسن الوزانى الذى هو في مقدمة الساسة الوطنيين وكذا الاستاذ عبد الخالق الطريس والحاج محمد بنونة والحاج الحسن بوعياذ وقاسم الزهيرى واحمد بن سودة ومحمد العربى الزكارى وغيرهم .

وفي ميدان البحث الادبى والتاريخى نشر الاستاذ محمد الفاسى عشرات

الابحاث وتراجم عظماء الرجال الذين أنجبهم المغرب ، في مختلف العلوم والفنون . الا ان هذه الابحاث ويا للاسف مبعثرة في مختلف الصحف والمجلات ، ولو قدر لها ان تجمع في كتاب لكانت رصيذا ضخما للطلبة والباحثين يرجعون لها في دراستهم وابحاثهم .

ونشر الاستاذ عبد الهادي بوطالب في هذا الصدد كتابه وزير غرناطة ، وهو ترجمة أدبية تنهج نهج القصة لحياة ذى الوزارتين لسان الدين بن الخطيب . وكذلك نشر الاستاذ عبد العزيز بن عبد الله بالاشتراك مع الاستاذ محمد بن أبي بكر التطواني كتابا قيما عن حياة هذا الوزير وكتبه ، يعتبر في نظر النقد العلمى الترجمة الجامعة المحررة لهذا الاديب الاندلسى الكبير . وللأستاذ ابن عبد الله أعمال أخرى ذات قيمة رفيعة منها كتابه عن مظاهر الحضارة المغربية ، ورسائله عن الطب والاطباء بالمغرب وغير ذلك . ونشر الأستاذ رشيد ملين كتابه عن عصر المنصور الموحدي ، وهو العصر الذهبي للحضارة المغربية سلك فيه مسلك البحث المنهجي وجلى مواطن العظمة في شخصية هذا الملك العظيم . كما نشر كتابه نضال ملك الذي شرح لييه بتفصيل سياسية فرنسا في المغرب ، والمقاومة التي كانت تلتاقها من طرف الملك محمد الخامس والشعب المغربي . وهو لذلك يعد كتابا سياسيا وتاريخيا في آن واحد . ونشر الأستاذ محمد المتونى كتاب العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين . وهو تاريخ مستوفى للحياة الفكرية ومظاهر الحضارة في ازهى عصور المغرب . ونشر الأستاذ المهدي الحجوي كتاب حياة الحسن الوزان الفاسي أو ليون الافريقى ، وهو بحث فريد في اللغة العربية عن هذه الشخصية المغربية الغدة التي كان لها تأثير كبير على النهضة العلمية في أوروبا . ونشر الأستاذ عبد الوهاب بن منصور كتاب المنتخب النفيس من شعر ابن خميس وهو ديوان شعر لهذا الاديب التلمساني الكبير جمعه المؤلف وعلق عليه وعرف بصاحبه في مقدمة مفيدة . كما نشر ترجمة ابن الطيب العلمى الاديب المغربي المعروف ، وترجمة ابن القاسم القالى احد كتاب الدولة الموحدية . ونشر الأستاذ أحمد بلالريج بالاشتراك مع الغير كتاب الادب الاندلسى وهو دراسة مركزة مع بعض المختارات . ونشر الأستاذ عبد السلام الطود كتاب بنو عباد بالنبيلية وهو تاريخ متصل لهذه المملكة الزاهرة من عهد ملوك الطوائف . ونشر الأستاذ محمد بن تاويت

التطواني بالاستشراف مع الغير كتاب الادب المغربي وهو يتناول بالنقد والتحليل تراجم الادباء المغاربة وآثارهم الشعرية والنثرية . ولهذا الاستاذ مجاىح ادبية وتاريخية كثيرة غير مجموعة . ونشر الاستاذ عبد الله الجرارى كتاب تقدم العرب فى العلوم والصناعات واستاذيتهم لاوريا وهو بحث واسع فى هذا الباب ونشر الاستاذ محمد ابن عثمان المراكشى (ت 1364) كتاب جامعة ابن يوسف فى تسعمائة سنة ، ج ل . ونشر الاستاذ عبد السلام ابن سودة كتاب دليل مؤرخ المغرب . وهو مرجع هام لجميع ما الف عن المغرب من الكتب التاريخية والجغرافية وما اليها قديما وحديثا .

وفى خصوص تاريخ المغرب الف الاستاذ التهامى الوزانى كتابه تاريخ المغرب فى ثلاثة اجزاء ، والجزء الثالث مهم جدا لانه يتناول حقبة من هذا التاريخ قل من تعرض لها وهى ما قبل الحماية وبعدها والحرب الربنية وله ايضا كتاب المغرب الجاهلى تكلم فيه على تاريخ المغرب قبل الاسلام ولهذا الاستاذ عدة مؤلفات منها كتاب الزاوية وهو مذكرات طريفة عن شبابه . ولا نتعرض للكتب المدرسية فى تاريخ المغرب او جغرافيته فهى كثيرة وليست مما يدخل فى نطاق هذا البحث كبقية الكتب المدرسية فى مختلف العلوم . وفى تاريخ الاقاليم نشر الاستاذ محمد العبدى الكانونى (ت 1357) كتاب آسفى وما اليه وهو بحث قيم يتناول تاريخ هذه المدينة وناحيتها وتراجم الرجال النابغين منها . ونشر الاستاذ محمد داود اجزاء من تاريخه الكبير لمدينة تطوان وهو يحتوى على عشرة مجلدات ضخام ويتضمن وثائق ومستندات ونصوصا لا توجد فى غيره ، مع دراستها وتحليلها واستخراج النتائج المفيدة منها . ونشر الاستاذ المختار السوسى كتابه الكبير الذى سماه بالمعسول عن تاريخ اقليم سوس وعادات اهله واخلاقهم وتراجم رجاله ، وهو يقع فى عشرين جزءا كبيرا يكاد المرء لا يصدق انها كلها خاصة باقليم صغير من اقاليم المغرب مع انها كذلك ، ولهذا الاستاذ كتب اخرى عامرة منها سوس العالة وقد صدر بالطبع ، وخلال جزولة وهى رحلة فى هذه القبيلة الشهيرة صدرت فى اربعة اجزاء لطاف ، وغير ذلك مما هو قيد الطبع.

ولغير هؤلاء ابحاث كثيرة منشورة فى الصحف والمجلات لو امكن تصنيفها واخراجها فى كتب لاطلع قارئوها على نشاط فكرى عظيم فى مختلف الميادين من ادب وتاريخ وفلسفة واجتماع وغير ذلك . ومن المع الاسماء التى لها

آثار في هذا الصدد الاساتذة محمد غازي وعبد الله ابراهيم ، وسعيد حجي (ت 1361) وعبد الهادي الشرايبي وعبد الكبير الفاسي ، وابراهيم الكتاني والدكتور نقي الدين الهلالي والهاشمي الفيلاي وعبد الهادي التازي ، وعلال الجامي ، ومحمد الطنجي ، ومحمد اباخني ، واحمد بناني ، وعبد السلام العلوي ، ومحمد عزيان ، وحسن السائح ، والمهدي البرجالي ، والعايد الفاسي وسعيد اعراب ، وادريس الكتاني ، واحمد زياد ، ومحمد الحبيب ، وعبد اللطيف الخطيب ، وعبد القادر زماتة ، وعبد القادر الصحراوي ، وعبد السلام الهراس ، ومحمد برادة ، ومحمد زنيير ، وعبد الله العمراني ، وادريس ابن جلون وغيرهم . ولا نغنى اصحاب الاعمال الادبية الخالصة هؤلاء سنتحدث عنهم فيما بعد .

واعمال اخرى تدخل في نطاق البحث والانتاج ، وهي تحقيق الكتب القديمة ونشرها . وقد قام الجيل الجديد بحركة من هذا القبيل لا تقتصر عن مثيلاتها في اي بلد من البلاد العربية ، ومن له القدح المثل في ذلك الاستاذ محمد بن تاويت الطنجي وقد اشتهر بكتاب التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ، الذي حققه تحقيقا كاملا وعلق عليه تعليقات في غاية الافادة . ونشر كذلك رسالة شفاء السائل لابن خلدون بتحقيق تام ومقدمة قيمة . كما نشر كتاب جذوة المقتبس في ذكر ولاية الاتدلس للحبيدي . ونشر الاستاذ محمد بن تاويت التطواني كتاب دلائل الاعجاز لعبد القاهر الجرجاني مع تعليقات مفيدة ومقدمة ضافية في تاريخ البلاغة . ونشر الاستاذ محمد الفاسي كتاب المعجب للمراكشي مع مقدمة وتحقيق للنص . كما اخرج الاستاذ محمد العري الطلمي طبعة اخرى منه محققة تحقيقا جيدا بالاشراك مع الغير . واخرج الاستاذان علال الفاسي وعبد العزيز بن ادريس (ت 1380) الجزء الاول من تاريخ ابن خلدون بتحقيق كامل وتعليق عظيمة الفائدة . وحقق الاستاذ الهاشمي الفيلاي كتاب القرطاس لابن ابي زرع وعلق عليه واخرج منه نحو ثلثه في جزئين لطيفين . واخرج الاستاذ محمد وجعفر الناصريان كتاب والدهما الاستقصا في تاريخ المغرب الاقصى في طبعة جديدة محتقة ومقدمة تقديمها طيبا . ونشر الاستاذ عبد الوهاب بن منصور كتاب روضة النسر في دولة بني مرين لاسماعيل بن الاحمر . وكتاب روضة التعريف بمفاخر السلطان مولاي اسماعيل بن الشريف لمحمد الصغير اليفرنى ، وكتاب

العز والصولة في معالم نظام الدولة لعبد الرحمن ابن زيدان ، ثلاثتها بتحقيق النص والتعليق عليه والتقديم له ، ونشر الاستاذ محمد عزيان بالاشتراك مع الغير كتاب الفلاحة لابن بصال مع مقدمة وتعليق وترجمة النص الى اللغة الاسبانية . ونشر الاستاذ القهامى الناصرى كتاب الفلاحة لابي الخير الاندلسى بالتعاون مع السيد محمد الرسموكى .

ولعل الترجمة من اهم ما تشمله هذه الحركة . والاعمال التى تستحق الذكر من ذلك هى كتاب مدنية العرب في الاندلس لجوزيف ماكيب ترجمة الدكتور تقي الدين الهلالى مع تعليقات ضافية له . وكتاب مفكرو الاسلام لكارادونو الحلقة الاولى المتعلقة بالفلسفة الاسلامية والفرق وكتب الغزالى، ترجمة محمد عزيز الحبابى مع تعليقات وزيادات في المقارنة بين آراء الغزالى وغيره من الفلاسفة القدماء والمحدثين . وكتاب علم الفلاحة عند المؤلفين العرب بالاندلس للدكتور مياس ترجمة عبد اللطيف الخطيب الى غير ذلك من منشورات يطول الامر بتعدادها وترجمات تكتسى صبغة ادبية او صحفية لا شان لنا بها هنا .

ان ما فكرناه من هذه الاعمال فضلا عما نسيناه ليدل على ان همة هذا الجيل لم تقصر عن مطلب في سبيل بعث الثقافة العربية وتجديدها بالمغرب ، خلال مدة قصيرة لا تتجاوز ربع قرن . وكان اكثر افراد هذا الجيل مع ذلك منهمكين في العمل السياسى والكناح الوطنى الذى كثيرا ما كان يودى بهم الى السجون والمناقي البعيدة متعرقل اعمالهم ويقف نشاطهم ولكنهم لا يعرفون للكلال معنى فما ان يتنسمون نسيم الحرية حتى يعودوا الى مجال عملهم انشط ما كانوا قط ، وبذلك استطاعوا ان يؤثروا مثل هذه الآثار ، وان لهم في المستقبل لمجالات ارحب واوسع ان شاء الله .

النثر واتجاهاته الجديدة

راينا مدى التطور الفكرى لدى الجيل الجديد ، والآثار التى انشأها والإنتاج الذى صدر عنه فى ميدان البحث الادبى والتاريخى وغير ذلك من المواضيع التى تتصل ببعث الثقافة العربية وتعزيز النهضة العلمية . ولقد كان ذلك التطور بالنظر الى نتائجه سريعا وفعالا ، لانه لم يستغرق الا مدة قصيرة تضيق عادة عن قيام حركة فكرية نشيطة مثل التى وصفنا . فكيف اذا اصفنا اليها الحصاد الادبى الوافر الذى نتجها لدراسته الآن .

لقد انكشفت هذه المدة على قصرها عن حصيلة ادبية طائلة ، منها فى الشعر دواوين مطبوعة وآلاف القصائد والمقطوعات المنشورة فى الصحف والمجلات ، وأعمال أخرى من التجديد الذى يدخل فى باب الشعر القصصى والتمثيلى . ومنها فى النثر عدة مجموعات من الخطب السياسية وغيرها ، وعدة من الكتب ذات الموضوعات الادبية الصرف، ومئات القصص والمسرحيات فضلا عن آلاف المقالات المتنوعة الافراض كالنقد الادبى والفنى والتراجم والمذكرات والخواطر النفسية وما الى ذلك .

ومعلوم انه ليس كل ما كتب فى هذه الابواب يستحق الاهتمام ، فالمحاولات كثيرة ولكن انظارنا انما تتجه الى ما استكمل الصفات التى تجعله يعد من الكتابة الادبية بحق . كما انه ليس بإمكاننا ان نعطي نموذجا من انتاج كل كاتب ولو كان صالحا ، فالكتاب الذين جاوزوا مرحلة التجربة كثيرون ، منهم افراد متعددون الوجهات مضى ذكر بعضهم مع الباحثين ويذكرون ايضا مع الكتاب والشعراء ومنهم افراد تغلب عليهم صفة الكتابة ولا شأن لهم بالابحاث كمبد الجيد بن جلون وعبد الكريم بن ثابت (ت 1381) وأبى بكر اللمtonى . ومنهم افراد يكادون يختصون بالكتابة كمبد الكريم غلاب وعبد الرحمن الفاسى ومحمد الصباغ . ولو كنا ندرس الأشخاص لامتصنا

على هؤلاء بصفتهم الكتاب الخالص ، ولكنا ندرس الادب المغربي في خطوطه العريضة ، نوكدنا هو ان نمثل اتجاهاته العامة ونترصدها من هنا وهناك بدون اختصاص لفرد من الافراد ، ولا استيعاب للجميع

وأول ما ننظر فيه من اشكال النثر الادبي الخطبة . وهي بما تؤديه من دور هام في المجتمع وما تختص به من عبارات مؤثرة في النفوس لا سيما اذا اعدت اعدادا لا تفك عن كونها اثرا من الآثار الادبية الخالصة ، وان تناولت موضوعا غير ادبي وهل يستطيع احد ان ينكر ما لخطب علي بن ابي طالب (ض) وزيد والحجاج من القيمة الادبية برغم موضوعاتها السياسية؟ لقد اثرتنا فيما سبق الى ان الخطابة السياسية في هذا العهد ازدهرت ازدهارا كبيرا ، ولا ادل على ذلك من هذه المجموعات العديدة من خطب المرحوم محمد الخامس وخطب ولي عهده (جلالة الحسن الثاني) وخطب الاميرة عائشة ، وكلها منشور بالطبع . وخطب القادة الوطنيين الذين برزوا في الخطبة مثل عبد الخالق الطريس والمكي الفاسري وعلال الفاسي ومحمد بن الحسن الوزاني والحاج محمد بنونة والمهدي بن بركة ومحمد داود وعبد الله ابراهيم وعبد العزيز بن ادريس وسواهم ، وهي منشورة في الجرائد وبعضها مطبوع على حدة .

على ان الخطابة الدينية والاجتماعية تطورت كذلك تضرورا عظيما سواء من الناحية الموضوعية او الشكلية فقد صارت تهتم بالمشاكل العمومية والاصلاح الديني والاجتماعي ، ولم تبقى قاصرة على التفكير بالعالم الاخرى والترهيد في الحياة الدنيا ، كما تحسنت اساليبها وتهذبت لغتها بالتنزل الى اهتمام العوام ونبذ التعمق في الخطاب ومن أشهر الخطباء الذين لهم يد في هذا التطور الاساتذة محمد الطنجي وعبد السلام الفاسي وابد الحفيظ كتون وللؤل مجموعة خطب منشورة باسم وعظ الجمعة .

ونكتفي هنا باعطاء امثلة من خطب الملك المغفور له محمد الخامس . فانه لم يكن ملكا وحسب بل زعيما سياسيا ورائدا من رواد النهضة الفكرية وقد حرك بخطبه السواكن ، واثار الكوامن . وكان خطاب العرش الذي يلقيه يوم 18 نونبر بمناسبة ذكرى جلوسه يهز المغرب من ادناه إلى اقصاه.

فخطبه على هذا لها قيمة ادبية كبيرة بسبب ما نهبت من غفلة ، وقومت من اعوجاج ، ويثت من وعى صادق في نفوس أبناء شعبه اللذين كانوا يعتبرونها انجيلا للوطنية ودستورا للعمل من أجل تحرير البلاد لا سيما وهو كان يملئها املاء ويحور اسلوبها بحسب ما يظهر له حتى تاتي مستوعبة لجميع افكاره وتوجيهاته . ومن ثم كانت متشابهة في الكثير من عباراتها واساليبها . فمن خطبة له في الحضر على التعليم ، « ثبت لدى كل عاقل ان لا اصلاح لاحوال البشر بدون انتشار التعليم الحقيقي النافع فهو اساس العمران ، ومنبع الرشاد لبنى الانسان ، فماذا انفقنا من مال وجهود في سبيله ؟ ان عدد سكان المغرب يقدر بثمانية ملايين ، منهم ما يقرب من ربع هذا العدد لمتيان وفتيات ، يتعين علينا جميعا ان نعتنى بتعليمهم ونثبتينهم حتى اذا ان لهم ان يقتحموا بحار الحياة العملية وجدوا في انفسهم كل الاستعداد اللازم ليكونوا اعضاء عاملين لخير المجتمع نافعين لانفسهم وذويهم ، فكم من هذين المليونين نوجه للمدارس ؟ اننا لا نجد منهم حتى العشر في المدارس . يبقى اذن مليون وثمانمائة آلاف من اطفال اكبادنا مهملين معرضين للسقوط في مهاوى الجهل والخسران ، لا على مستقبلهم سهرنا ولا الى الواجب علينا قبلهم التفتنا بل تعرضنا بهذه السيرة للقضاء على حياة الامة بسبب بقاء تسعة اعشار ابنائها في الجهل الذي هو عين الموت . فماذا يعالج هذه الحالة السيئة ؟ لا سبيل الى اصلاح احوالنا الا الاقبال بسرعة على العلم الذي ينبغي ان يبذل لا لعدد قليل منا ، بل لجميعنا من غنى وفقير وحاضر وباد ، ومزاوول للصنائع ، ومستعد للوظائف ، ومتعاط للتجارة ، وممارس للفلاحة » .

ومن خطابه التاريخي في زيارته الاولى لطنجة سنة 1947 وهي راحة تحت نير الحماية الدولية هذه الجملة التي تعبر عن ارادته القوية في استرجاع حق البلاد المفصوب ، « اذا كان ضياع الحق في سكوت اهله عنه فما ضاع حق من ورائه طالب . ان حق الامة المغربية لا يضيع . فنحن بعمون الله ومضله على حفظ كيان البلاد ساهرون ولضمان مستقبلها الزاهر عاملون » .

ومن خطابه في عيد العرش سنة 1950 اثر هوفته من فرنسا حيث

حاول أن يجري مع الساسة الفرنسيين مفاوضات من أجل ابدال معاهدة الحماية باتفاق جديد يحقق للبلاذ املها في الحرية ، « لقد جطلنا مقصدنا الاكيد بعد ما لبينا الدعوة الجميلة التي وجهها الينا فخامة رئيس الجمهورية الفرنسية لزيارة فرنسا ، ان نعرض قضية المغرب على من بيدهم الحل والعقد من رجال الدولة الفرنسية ونسعى معهم في الوصول الى الحل الذي يرضى الرغائب ويحقق المطامح . ولم يكن قط هدمنا من المحادثات السياسية التي اجريناها بفرنسا ان نظفر بتقوية سلطتنا لغاية شخصية وانما قصدنا بمساعدتنا وجهودنا صالح البلاذ وتقدمها . ولم يقب عنا لحظة واحدة ان افضل حكم ينبغي ان تعيش في ظله بلاد تتمتع بسيادتها وتبارس شؤونها بنفسها هو الحكم الديموقراطى التي تقوم عليه الدول المعاصرة ، والذي يوافق مبادئ ديتنا الحر الكريم . لقد عرضنا مطلبنا على من يهمهم الامر من رجال الدولة الفرنسية بالكتابة والقول واضفنا عليه حلة الوضوح والبيان . وذلك بان رغبتنا في أن تبني علاقات المغرب بفرنسا على اسس جديدة وان يقع الاتفاق بيننا على الغاية من تلك العلاقات ، وعلى اسباب الوصول اليها عرضنا هذا المطلب في دائرة الود والصداقة ، وما زلنا نؤمل انه سيظفر في مستقبل الايام بالاذن الصاغية والقبول الجميل . لاننا مقتنعون بان الاساس الذي ترتكز عليه العلاقات السياسية بين الدول يجب ان يجرى على سنة الكون ، ويساير تطور الاحوال ويراعى تبدل الظروف » .

ومن خطاب آخر له في الاثادة بالهداية الاسلامية والحض على التمسك بحبل الدين ، « ومن منن الله على الامة المغربية ان هداها للاسلام بعد ان اتصلت بدول كبار فعرفت مدنيتها وحضارتها ، ولكنها لم تستفد من ذلك كما استفادت من هذا الدين الحنيف ، الذي محا ظلام الشرك من جوانبها ، ولم شمت اهلها وامن سربهم ورفع شانهم والف بين قلوبهم فاصبحوا بنعمة الله اخوانا . وعلى نصره الحق اعوانا . لا فضل لعربهم على بربرهم ولا لبربرهم على عربهم الا بالتقوى والعمل الصالح . كلهم مغاربة وكلهم امام الحق والعدل سواء . جعل الاسلام من هذه البلاذ امة ودولة ، وزودها بما كانت تصبو اليه من ثقافة ، وما كانت تتوق اليه من حضارة ، فأتجبت رجالا انذاذا كان لهم حظ والمر في بناء صرح المدنية

والعلم ، وتوطيد دعائم العدالة والسلم ، ومكث المغاربة في ظل الاسلام
ترونا طوالا احسن الناس حالا ، واعزهم قرارا ، وامنعهم دارا ، فاسسوا
ملكا شاسع الاطراف ، رفيع العماد ، وانثوا مجدا رفيعا شامخا ، وخلفوا
تراثا ثيميا راسخا . . لذلك يجب علينا ان نتمسك بهذا الدين القويم ، ونتبع
صراطه المستقيم ، ونجث حب الخرافات والاباطيل والضلالات التى يبتدعها
المشعوذون والمضللون . لانها كانت ولا تزال من اهم عوامل انحطاط
المسلمين بما اشاعت فيهم من تواكل ، وما احدثت في صفوفهم من
شقاق وتخاذل . »

هذه نبذة مقتضبة من خطب العاهل الكريم التى تعد بالمانات والتى كان
لها فعل السحر في نفوس الجمهور على ما المعنا اليه من قبل ولا نقول
في اسلوبها ودياجتها — وذلك ما يهنا هنا — الا ما قاله هو في وصف
المطالب السياسية التى قدمها للحكومة الفرنسية ، ونعيد عبارته السابقة
في ذلك وهى هذه « لقد عرضنا مطالبنا على من يهمهم الامر من رجال
الدولة الفرنسية بالكتابة والقول ، واضفينا عليه حلة الوضوح والبيان » ،
نعم انها حلة الوضوح والبيان التى تكتسيها خطبه ، وتعتبر ميزتها الخاصة ،
واذا طرحنا من حسابنا ان ملوك العرب المسلمين في المشرق والمغرب لعدة
ترونا خلت ، كانوا قد عطلوا وسيلة الخطابة في الاتصال بشعوبهم والشرح
لسياستهم ، فانا نجد ان ممارسة الخطابة السياسية من طرف محمد
الخامس بهذه الصفة ، نعد ربحا لها وتقدما عظيما . ولا سبها بالاضافة
الى ما نفخه فيها القادة الوطنيون من روح البعث والتجديد على ان
دائرة الخطابة قد اتسعت كثيرا فشملت سائر الميادين الاجتماعية ،
واصبحت زينة المحافل وعدة الرجال في المواقف ، بحيث يتوقف نجاح اى
عمل او مشروع على نجاح الدعوة اليه ، والكلمة التى تقدمه للناس . وهذا
فضلا عن المحاضرات العلمية والادبية التى تؤسس لها النوادي والجامع
الخاصة . وهى طبعها مما يدخل في باب الخطابة ، ويقوم دليلا ناهضا على
تطورها الكامل .

وبعد الخطابة ننظر في المقالة . وهى الشكل الجديد من اشكال النشر
الادبي الذى قلنا سابقا انه حل محل الرسالة وقد اصحت وسيلة للتعبير

عن شتى الانكار وشؤون الاجتماع وتضاييا الادب ، وكل ما يمت للثقافة الانسانية بسبب واكتست من حسن السبك ، ونصاعة العبارة ما اكسبها قوة ونفودا ، ولذلك كانت المقالة السياسية الى جانب الخطابة السياسية من امضى سلاح استعملته الحركة الوطنية في مقاومة الاستعمار : كما كانت المقاومة الادبية الى جانب الخطابة الاجتماعية من الوسائل الفعالة في تثقيف الشعب وتنمية الوعي القومي لدى الجماهير ، وبعض هذه المقالات لما لها من تيمة تاريخية او فنية جمعت في كتب ونشرت ، وهى اكثرية الكتب الادبية الخاصة التى وجدت بالطبع لحد الآن ، ومنها كتاب مارس استقلالك لعبد المجيد بن جلون وحديث مصباح لعبد الكريم بن ثابت ونبضات فكر لعبد الكريم غلاب والعبر الملتهب واللهاث الجريح وفؤارة الظما وغيرها لمحمد الصباغ وغير ذلك لسواهم .

والذى نستطيع ان نؤكد هو ان المقالة في صورتها الحالية بالمغرب لا تقل قيمة عما يكتب منها في اى بلد عربى آخر ، وانها اصبحت من اجمل انتاجنا الادبى على الاطلاق . ولو قدر لالوف المقالات المبشرة في الصحف اليومية والمجلات الاسوعية والشهرية ان تجمع في كتب ، لكانت ثروة ادبية طائلة تضم الى رصيد الفكر العربى الضخم المعتقد به من هذا القبيل وطبيعى اننى اعنى المقالة التى اوفت على حدود الكمال او قاربتها ، ولا اقصد كل ما كتب بشكل مقالة . فان في هذا من السخف والهراء ما لا يشملته كلامنا بحال .

ولتمثيل ما ذكرنا نقدم بعض النماذج للمقالة في مختلف الموضوعات التى طرقتها بقدر ما يتسع له المقام . فمن ذلك مقالة سياسية بعنوان تبج الله الحماية للمكى الناصرى ، « يضحكنى والله ما يقوله المستصرون المنافقون في مهانة وسفطة لا حد لها عند ما يأخذون في شرح فوائد الحماية ومنافع الوصاية وما جلبه هذا الاختراع العجيب للانسانية من سعادة ورغاهية وتقدم منقطع النظر لا سيما بالنسبة الى هذا المغرب البائس المنكوب وانى لوجه وجهى شطر الحقيقة باحثا منقبا هنا وهناك عن محاسن الحماية ومزايا الاستعمار فلا ارى في الحماية الا جنابة ما فوقها جنابة ولا ارى في الاستعمار الا جريمة لا تعدلها جريمة على وجه الارض .

هذه بلادنا المغربية كانت موحدة التراب ، موحدة السلالة ، موحدة اللغة ، موحدة الدين ، موحدة الاقتصاد موحدة السياسة ، موحدة العدالة ، موحدة الحكم ، وبالأجمال موحدة بكل معانى التوحيد ، لا فرقة فيها ولا تشريد فجاءت هذه الحماية ، حماية الغرب المراوغ النافق المخادع المحتال، فمزقت بلادنا شر ممزق ، وقطعت وطننا وامتنا اربا اربا من كل النواحي ومن جميع الاعتبارات ، وقضت على جميع مقوماتنا الجوهرية كدولة وامة ذات كيان قومى وتاريخى خاص ، ووقفت حجر عثرة فى سبيل تطورنا الطبيعى ونهضتنا وبين كل ما يفيد شعبنا وامتنا أو يدفع بهما الى ساحل النجاة والخلاس ، ولم تكف الحماية الخبيلة بهذا كله ، بل خلقت لنا مشاكل جديدة ، واستحدثت لنا متاعب عديدة ، لتقف فى طريقنا وتحول بيننا وبين الوصول الى اهدافنا . وضربت الشعب المغربى اجمع بسوط الافلاس والقحط الى ان صرخته او كادت ، ولم يرضها شئ الا ان يموت هذا الشعب ميتة لا يحيا بعدها ابدا .

تبح الله الحماية فهى جناية ما فوقها جناية . وان من علينا بها الحماة زمنا طويلا ورتلوا فضائلها ومزاياها ترتيلا ، واننا لاحق منهم بالى عليهم فعلى قفانا عاشوا ، ومن دماننا اغتتوا ، ولولانا لكانوا دائما وابدا ثانويين فى الحياة الدولية والسياسية العالمية .

الحماية حماكم الله منها ايها المواطنون ، جاءت الى بلادنا العزيز بجيش من الصعاليك والمفاليك ليس لهم من الكفاءة ولا من الاستعداد ولا من الرجولة ما يخولهم ان يحتلوا ولو مركزا بسيطا فى حياة شعوبهم ، وداخل بلادهم جهلاء بكل معانى الجهل ، شرهين جشعين بكل معانى الشراة والجشع ، قصار النظر فى كثير مما يفكرون ويعملون بعبيدين كل البعد عن معرفة النفسية المغربية ، وعن فهم العقلية المغربية ، وعن الاحساس بالامانى المغربية . ومع ذلك وكلت اليهم قوة الحديد والنار مصر شعبا حر بأسره ، ومستقبل امة عزيزة باكملها ، فماذا يفعل هؤلاء الصعاليك والمفاليك وهم اعجز من المعجز ، وابلد من البلادة ، وكل ما يعرفون انهم اقوياء ، فيجب ان يحكموا المغرب وانهم سادة فيجب ان يكون المغاربة لهم عبيدا .

الحماية حماكم الله منها ايها المواطنين هي التي قسمت المغرب الى اجزاء ثلاثة قسمة ضيزى ما انزل الله بها من سلطان ، ثم قسمت الجزء الواحد الى نواحي ومناطق ، ثم قسمت الناحية الواحدة والمنطقة البسيطة الى عشرات الاجزاء والوحدات ، فشقت شمل العرب وشردت المغاربة ، وفترت ما جمع الله طبيعيا ودينيا واجتماعيا واقتصاديا فكانت الطامة الكبرى على المغرب والمغاربة ، واصبح الجزء الواحد من وطننا ميتا مشلولاً ، والعضو الواحد من بلدنا مقطوعاً مبتوراً . الماء بجانبنا ونحن اليه عطاش لكننا لا نكرعه ، والخبز عن يميننا ونحن اليه جياع لكننا لا نطعمه والسهل امامنا ونحن اليه محتاجون ولكننا لا نزرعه ، والاخ الشقيق بجوارنا ونحن اليه مشتاقون ولكننا لا نستطيع الى زيارته سبيلا .

الحماية حماكم الله منها ايها المواطنين هي التي خلقت اول مشكلة دينية وسلالية وقضائية منذ عرف المغرب التاريخ . فقد كان المغاربة قبل الاسلام موحدين في عقيدتهم وسلالتهم واحكامهم لا يستطيع احد ان يفرقهم ولا ان يمزق وحدتهم ثم جاء الاسلام الطاهر فتوى الوحدة المغربية ، واعطاها غذاء روحيا جديدا ووضع لها اساسا اقوى من كل الاسس السابقة ، فلم يعرف المغاربة المسلمون خلال ثلاثة عشر قرنا سوى شيء واحد هو انهم مغاربة متحدون ديناً وجنساً وقضاء . تجمعهم كلمة الاسلام ، وتظلم جميعا راية المغرب ، حتى جاء الاستعمار واعلنت الحماية فظهر على المسرح شيء جديد لم يعرفه التاريخ ولم تؤيده الحقيقة ، ولم يرض به الشعب المغربي في قليل ولا كثير ذلك ان هناك مغربيا اصيلا ، ومغربيا دخيلا ، مغربيا مسلما او في حكم المسلم ، ومغربيا مسيحيا او في حكم المسيحي مغربيا يرضى بالتحاكم الى الشريعة المحمدية ومغربيا يرفضها ولا يرضى الا بالعادات الوثنية الجاهلية .

الحماية حماكم الله منها ايها المواطنين هي التي محت شخصية المغرب بين الدول وحطمت كيان المغاربة بين الامم ، وفرضت نفسها مهيمنة وحاكمة مشرعة ومنفذة ، يدير ابناؤها الصغير والكبير والجليل والحقير من شؤوننا ويحاسبوننا على النقم والقطمير ، هم الحكام ونحن المحكومون وهم اصحاب البلد الاقربون ونحن الغرباء المنبوذون هم الاوائل في الحقوق كلها

ونحن الاوائل في التكاليف كلها ، لهم الامر وعلينا الطاعة ، لهم الحياة ولنا الموت لهم النصر ولنا الهزيمة ، لهم العيش الغض وعلينا العمل الشاق ، لهم الغنم وعلينا الفرم .

الحماية حماكم الله منها ايها المواطنون هي التي نشرت التجسس وحيث الخيانة ، وخلقت البطالة ويئت الدعارة واقامت دعائم الإباحية بسكرها وقمارها وزناها السري والعلني وروجت في السوق المغربية بضاعة النفاق والتلق والطمع وشجعت كل خسيس من الاخلاق والعادات ومكنت للباطيل والخرافات ، وخلقت كثيرا من مجاهيل المشايخ والسادات ، اصحاب الاضرحة والمزارات لتضل بهم المخفلين والمخفلات من عامة الشعب المخزيى المنكوب .

الحماية حماكم الله منها ايها المواطنون جاءت بدعوى ترفيها فضايقتنا حتى في الخبز والماء ، واصبنا لا نجد لها الا لهما ، وجاءت بدعوى تحضينا فنقلت البنا اتبع ما عندها من مفاسد واخلاق وحاربت خير ما عندها من عادات وتقاليده . وجاءت بدعوى تمرينا على الاقتصاد والحيلولة بيننا وبين الاسراف فاغرقتنا في بحر من الديون والقروض ، وبعد ما وجدنا مدينين ببعض ملايين اصبحنا اليوم مدينين بمئات المليارات . وجاءت بدعوى انها ستقذنا من عوز ، وتغنينا من فقر ، فكانت هي الدائنة والمدينة ، وهي صاحبة القرض والانتفاع منه ، اى انها الغنية والفقيرة والحامية والحامية ، بحيث لم تترك للمغاربة المساكين من تلك الملايين والملايير الا نوات الموائد وعرق الجبين

الحماية حماكم الله منها ايها المواطنون جاءت بدعوى انها ستقصدنا وترقينا وتعدنا لحكم انفسنا بانفسنا وتجعل منا في وقت قريب امة حديثة قادرة على السير وحدها في معركة الحياة الجديدة ، ودولة عصرية كاملة الاجهزة تامة الادوات مستعدة لاحتلال مركزها بين الدول المتحضرة في اول مرصة دون اعتراض ولا جدل ، فبدلا من ان تهتم بتنظيم شؤوننا من اجلنا واجل مستقبلنا اهتمت بتنظيمها من اجلها هي واجل مستقبلها ، فدفعنا هو دفاع الامبراطورية ، وجيشنا هو جيشها ، ومواصلتنا هي مواصلاتها،

وانتاجنا هو انتاجها وتعليمنا تعليم في صالحها ، وادارتنا ملحقة بادارتها ، ووظائفنا احتكار مقصور على شبابها ، وكلنا بدمائنا وجهودنا واموالنا وكفاءتنا مع ما في اصلاب رجالنا وارحام نساتنا حتى احفادنا ملك خالص لسادتنا وحماتنا ابناء السلالة الغريبة الرفيعة ، فالمغرب لهم ولابناء ابنائهم كما يهتف اطفالهم ويعلم كبارهم ، وللمغاربة العصا والحجر .

ايها المواطنون الاعزاء لقد ضقنا ذرعا بهذه الحماية البغيضة التي هي اكبر مسؤول عن كل ما اصابنا . لقد ملنا هذه الحياة الثقيلة الوضيعة التي نعامل فيها كالعبيد والحيوانات من قوم غريب عنا دخلاء ليسوا منا ولمنا منهم في شيء . ان الدم ليحترق في قلوبنا ، وان حرارة انفسنا بلغت اعلى درجة في الارتفاع ، فلم تعد قادرين على العيش تحت ظل هذه الحماية المفروضة علينا الباطلة من يومها الاول ، وان الشعب المغربي من اقتصاه الى انناه ليحتدم سخطا وحنقا على حماة المنافقين ، وابنائهم العاقين وكأني اراه يستعد ليلا ونهارا لكسر جميع القيود والاعلال حتى يحطم الحماية ويعلم الاستقلال .

اخبرنا هذه المقالة لانها تتناول موضوع الحماية بالذات ، وهو الموضوع الذي تكسرت فيه الاقلام . واثار من الجدل السياسي طوال نصف قرن واكثر ما يملأ الجلدات الضخام . وقد شرح كاتبها الحماية وحللها على ضوء الواقع وتجربة السنين فابدى عوارها وكشف سوانها وحكم عليها حكما عادلا لا معتب له بما اشاعت من فساد وشرعت من ظلم واحداثت من تفرقة بين عناصر الامة الواحدة ، وما تسببت فيه من عرقة نهضة البلاد وتطور المجتمع ونمو المؤسسات الوطنية التي تعمل لرفق الشعب وتقدمه حتى تبقى مسيطرة على مقدرات المغرب مستغلة لجميع خيراته بلا مشارك ولا مزاحم . وقد جاءت لغة المقالة واضحة كل الوضوح لانها تخاطب جبهة الشعب فلا بد ان تصطنع الكلمات الدالة والالفاظ المعبرة التي لا تحتاج الى تفسير او بيان . وجاءت لهجتها صريحة ، جهد ما تكون الصراحة ، لان سلطة الحماية كانت قد تغلظت في جميع المصالح والمنشآت ، ولم تترك للعنصر الوطني مجالا للتصرف في اي عمل من الاعمال . فتمعن تحديدا ومجابهتها بالانكار الصارخ والنقد اللاذع كي تقف عند حدها وتراجع قليلا عن استنزائها للشعور الوطني الصاحب النائر .. ولكنها كانت تريد

في غلوائها وتركب رأسها فتعاقب الكاتب والصحيفة التي نشرت المقال بالفرامة والتوقيف . ويتضاعف سخط المواطنين ويلتهب شعورهم فيتعجبون التفكر من جديد الى المقاومة المسلحة التي لم يستاصل هذا السرطان العفن في الاخير الا هي .

وكانت هذه هي الروح التي تتمتع المقالة السياسية في هذا العهد وان اختلفت طرق التعبير واساليب البيان التي ينتهجها اصحابها ، فانها تارة تعتمد الاسلوب الخطابي للتأثير في القارئ ، وبعث حماسه ، وتارة تسلك سبيل المنطق والحجة قصد توعية المواطن وانحام الخصم ، ولكنها ان اختلفت في هذا فان معاملة سلطات الحماية للكتاب والصحفيين الوطنيين لم تكن تختلف بحال عما ذكرناه ، لان الروح الوطنية الثائرة التي كانت تتجلى في كل مقال ايا كان أسلوبه وطريقته كاتبه . لم يكن أرباب السلطة يستسيغونها او يتسع صدرهم لقبولها ، فلا يفتأون ينزلون العقوبات الصارمة بالكتاب واصحاب الصحف الذين لا يثنهم عن خطتهم وعد ولا وعيد ، وان دل ذلك على شيء فاول ما يدل عليه هو القيمة الادبية للمقالة السياسية التي استطاعت ان تهزم الاستعمار بما يتوفر عليه من قوة مادية ومعنوية . وتنفضه فيطير وتطوح به وباعوانه الى جهنم ويؤس مصر ، وقد ادرك عبد الحميد الكاتب ما للكلمة البليغة من اثر في هذا الباب فقال حين وجه الى ابي مسلم الخراساني داعية بنى العباس عن مولاة مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية كتابا يستميله فيه . قد كتبت له كتابا متى قرأه بطل تبيره ، لكن الداهية الخراساني أمر بإحراق الكتاب ولم يقرأه ، ويقال ان هذا الكتاب كان لكبره يحمل على جمل ، ومن حسن الحظ ان خصومنا كانوا يقرأون مقالاتنا ، وان الشعب كان يقرأها أيضا ، وفي الوقت الذي كان سيف الرقابة مصلطا على الرؤوس وكانت الجرائد تصدر وغالب انهرها بيضاء ، لان الرقيب تطع اوصالها وحليف منها ما رأى أنه يمس بسياسته ، كانت الجماهير الشعبية ، تذهب كل مذهب في تقدير ذلك المحذوف وماذا عسى يكون مع انفاقتها على انه مما حز في نفس المستعمر والهب حقه . وبذلك تكون المقالة السياسية ادت وظيفتها ثابتة ومحذوفة وعبرت عن آماني الشعب المضطهد في حريته المظلوم على حقه ، وما نظن ان ذلك يتأني الا اذا كانت المقالة من حر النشر الذي يوجهه الحس المشترك

بين طبقات الامة نحو الاهداف القومية العليا . وهذا من الاتجاه الجديد في النثر العربى على العموم ، وليس النثر في المغرب يبدع من ذلك الاتجاه .

وهذا مثال من المقالة التى تعنى بشؤون الثقافة والفكر ، وتتجه اتجاها انسانيا علما ، وهو مقالة لعبد الكريم غلاب بعنوان رثاء ضمير :

« من سطحية البشر انه لا يعتبر جديرا بالرثاء الا الذين يراهم راي المعين يسرون بين يديه ثم يفقدونهم في لحظة عين فاذا بالرزء جسيما والمصيبة عظيى . واذا بالاكبد تتشقق والارض تميد ، فيعز الصبر ازاء عظيم المصاب ، وينطلق القلم راثيا مؤبنا ناثرا او شاعرا ، وقد اعتاد البشر هذه السطحية فلا يحاولون النفاذ لما وراء جسم يتحرك ، ولا يحسون ان هناك ما هو اسى من الجسم يموت في لحظات من زمن . فلا ينطلق الشعر ولا النثر يرثى ويتأسف ويصور اللوعة المحرقة والشوق المناجج .

واجدنى اليوم امام ضمير مات او هى ضمائر ماتت ، واحسبني لا اسير في الاتجاه التقليدى ، فلا ارثى اصحابها الا اذا فارقوا هذه الحياة ، ولعنى ما كتبت لارثيهم لو حدث ذلك ، فسيذهبون بضمائرهم ، ولم اعد ان اثور على سنة الحياة لما رثيت احدا مات الا ان يكون رثاء دراسة او بحث عن نتاج .

ولكن لم اجد الصبر ولا السلوان امام الضمائر التى ماتت ، فالضمير في نظري اهم ما ينبض بالحياة في انسان ولو كان هذا الذى ينبض قلبا او شرايين طافحة بدم الحياة .

والرزء العظيم ان الضمير الذى مات ترك اجسادا تتحرك بلا ضمير ، وترك عقولا تفكر بلا ضمير ، وترك قلوبا تضى بلا ضمير ، وترك عواطف واحساسات تتحرك بلا ضمير ، وما ظنك باتوام يحاولون ان يسروا الحياة بقلوبهم ومواطنهم وافكارهم ، ولكن لا ضمير لهم ؟ ان الرزء عظيم لا بالنسبة اليهم — فكم من شخص عاشى بدون ضمير ومات بدون ضمير فلم يحس بوجوده او موته انسان لانه وقف في حياته حيث وقفت به ممتلكاته ، فلم يعتمد خروجها ولم ينصب لنفسه ليسير حياة الناس ويضمير ميت ، ولكن الرزء

عظيم بالنسبة للذين حلا لهؤلاء ان يساهموا في تسيير حياتهم فما كان لحياة ان تستقيم ومسيرها ماتت ضمائرهم فانطلقوا يشاركون في الحياة العامة التي نهم الشعب ولكن بدون ضمير .

سألني مرة صديق عن رأي الصريح في فلان ، قلت انه ذكي نشيط مقتدر مثقف - ولكن - قال - وفي عينيه تساؤل - : ولكن ماذا ؟ قلت ولكن لا ضمير له . قال : وما يقني الضمير اذا كان يملك كل هذه المواهب ؟ قلت الضمير هو روح كل هذه المواهب فهي اذن مواهب ميتة ، اذا كان يعوزها ضمير حى ؟ .

تمثل هذه المقالة نزعة فكرية متحررة واسلوبا انشائيا جميلا يمكن الباحث من تقدير مدى التقدم الذي حققته المقالة الادبية سواء في المادة او الصياغة . ان الموضوع حى وطريف والظروف الموحية به انسانية وعامة فهو قائم في كل زمان ومكان ، ولكن ، اثارته بهذه الطريقة اللبقة هي التي تسرع النظر فهي لم تبرزه للعيان فقط بل اكدت على كونه مشكلة اخلاقية تستوجب التفكير الطويل والعلاج السريع ، وان لم يكن ذلك بصريح اللفظ والعبارة ولا بأسلوب الوعظ والارشاد ، لان براعة الادب الملتزم او الهادف وهذه المقالة منه في الصميم هي في ان يسلك الى اعماق النفوس من دروبها الخفية ، وان يمارس عمليات الهدم والبناء بوحيات الكلمة لا بفعل الامر ولا الناهية . والكاتب حين عنوانه مقالته برثاء ضمير وعبر عن تعلق الناس برثاء الاشخاص دون المثل والقيم بأنه تعلق بالمعنى السطحي للرثاء ، انما اراد ان ينبه القارئ الى اهمية الفكرة التي يعرضها في صورة ادبية مبهودة وهي الرثاء الى حيث لم يسبق لتلك الفكرة ان عرضت قط في هذه الصورة ، ومن ثم اثار اهتمام القارئ وجعله يسلم حقا بأن موت ضمير الشخص لهو مصاب اعظم من موت الشخص نفسه وانه احق بالرثاء وان الامة التي يسير امورها اناس ماتت ضمائرهم لهي امة على خطر عظيم ، ولن تستقيم امورها بحال . ان هذا هو الايحاء ، والايحاء من الالتزام ، وهو اتجاه جديد في ادب المقالة والادب بعامة .

وهذه مقالة نقدية بقلم محمد ابا حنيني تتناول رسالة الصداقة والصديق لابي حيان التوحيدي :

« رسالة ابي حيان التوحيدى في الصداقة والصدق من امتع آثارنا الادبية القديمة ، ولهذه الرسالة قبل كل شىء مزية كبيرة الا وهى موضوعها فان موضوع الصداقة والصدق تجمع الاذواق على قبوله وترتاح اليه جميع النفوس ، لان مشكلة الصداقة والصدق تعترض الناس جميعهم في سبيل حياتهم . والرسالة معرض لآراء شتى حول الصداقة لا تنساق في سلك غير سلك الصداقة ولا يجمع بينهما الا جامعة هذه العاطفة التى ينتظم فكرها الكتاب من ابتدائه الى انتهائه .

ولم يخطر ويا للأسف لابي حيان ان يعرض علينا هذه العاطفة واحوالها واعرضها عرضا منظما ، ولا ساتها سياقا منطقيا . وباليته سبق ابن حزم فدرس اطوار الصداقة بذلك الاسلوب الذى درس به الاديب العالم الاتلى السمر عاطفة الحب في نشوئها وارتقاها وضعفها وقوتها ، ولكن ابا حيان جمع في رسالته هذه طائفة من الآراء صدرت عن كتاب عرب مسلمين ، ومن مفكرين اجانب وغير اجانب قدماء ومحدثين ، وبعثرها في صفحات رسالته من غير ان يخضعها لترتيب قويم ونظام محكم ، ولم يخف هذا العيب على ابي حيان فقد لجأ الى احوال حياته وما كان يعانيه من الوان الكثر والاشمزاز من الدنيا عند ما كتب الرسالة واراد ان يبلغ منها عنرا .

ولم يقتصر كاتبنا على الآراء التى ارب عنها اصحابها نفرا ، وانما جمع في رسالته بين الشواهد المقتبسة من الصناعتين معا فجاءت الرسالة معرضا ازدهمت فيه الآراء مختلفة ابدا ، موجزة تارة ، ومستفيضة اخرى ، مشيدة بذكر الصداقة المتينة او منددة بالوداد المدخول والصناء المزعوم . وكثرت فيها الكتب التى تصدر عن صديق وتبلغ الى صديق والتى تحض على حفظ الوداد او تؤكد البقاء على العهد ، او تتقاضى حقوق الالة القديمة والاخاء الثابت .

والرسالة من اجل هذا كله بالرغم عما يشينها من العيوب الشكلية التى اشرنا اليها ، ممتعة جدا لمتاع سائر ما يصنفه او يرويه ابو حيان فان فيها شاهدا عظيما على ان العرب المسلمين عنوا بعاطفة الصداقة عناية كبيرة حتى اوحى اليهم بشىء كثير من جميل السمر ومحكم النثر .

على أن الرسالة لم تتضمن جميع ما قاله العرب في هذا الباب ، وأبو حيان يعترف لنا بذلك ولولا خوفه من التطويل لكانت رسالته أضفى ونفسه ليها أشد امتدادا . وما كان لأبي حيان الذي قضى نحبه في مستهل القرن الخامس أن يضم الى رسالته ما أوحى به موضوع الصداقة والصديق الى شعرائنا وكتابتنا خلال القرن الخامس بنوع خاص من حر المظلوم ورائق المنثور .

وقد جنى خوف أبي حيان من الاسهاب على قارئ الرسالة جنابة أخرى اذ حرمه قصصا لو استرسل فيه الكاتب لكانت الرسالة أنفس وأغلى . غير أن أبا حيان ان ضمن علينا بشيء كثير من محفوظه واستائر دوننا بنصيب جزيل من قصصه ، فقد سمح لنا بالتطلع الى سريرة نفسه والوقوف على تبرمه بالدنيا اذ أصبح في نظره لفظ الصداقة بلا معنى وعنت رسوم اللفة بين الناس ونضب معين الوداد ، وما كنا لنزهد في هذه الصورة القاتمة ، وترغب عن هذا الشعور الكتيب ولو تضمنت الرسالة من أقوال غيره صنوفا من الاحساسات والمشاعر . والعلة في ذلك أن كاتباً كابي حيان نضعه في ذروة البيان العربي لخليق أن تحصي أنفاسه ويبدل في اقتناص خواطره جهد جهيد .

ولأبي حيان قوة خاصة على الاعراب عما حصل له من الخيبة بعد الامل ومن الاشمئزاز بعد الاستبشار ، ولا نسوق من الشواهد على ذلك الا هذه الكلمات التي وردت في طليعة الرسالة وذلك حيث يقول : « ومن العجب والبديع انا كتبنا هذه الحروف على ما في النفس من الحرق والاسف والحسرة والغيظ والكمد والومد . وكأني بغريك اذا قراها تقبضت نفسه عنها وأمر نقده عليها وانكر على التطويل والتهويل بها ، وانما اثرت بهذا الى غيرك لانك تبسط من العذر ما لا وجود به سواك وذلك لعلك بحالي واطلاعتك على دخلي واستمراري على هذا الانتباض والعوز اللذين قد نقضا قوتي ونكثا مرتي وافسدا حياتي وقرناني بالاسى وحجباتي على الاسى لاني لمقت كل مؤنس وصاحب ومرفق ومشفق . والله لربما صليت في الجامع فلا أرى الى جنبى من يصلى معى ، فان اتفق فبقال او عطار او نذاف او قصاب ، ومن اذا وقف الى جنبى اسدنى بصفاته او اسكرنى بفته ، فقد أمسيت غريب النحلة غريب الخلق مستانسا بالوحشة تانعا

بالوحدة معتادا للصمت ملازما للحيرة محتملا للاذى بائسا بجميع
من ترى متوقعا لما لا بد من حلوله فشمس الوجود على شفا وماء الحياة
الى نضوب ونجم العيش الى افول وظل التلبث الى قلوبس .

ولا بدع ان يجبل كاتبنا نظره حوله ويلقبه على جبرته واقاربه ويصيح
صيحة من اتفرت دنياه من الاصفياء والاصدقاء لانه كان يضع الصداقة
يمكن اسمى من ان يلحقه عموم الناس . والدليل على هذا اننا نراه ينوه
بنوع من الصداقة عزيز المنال اذ يقول : (قلت لابي سليمان محمد بن
طاهر السجستاني : انى ارى بينك وبين ابن سيار القاضى ممازجة نفسية
وصداقة عقلية ومساعدة طبيعية ومواتاة خلقية فمن اين هذا وكيف هو ؟
فقال يابنى اختلطت ثقتى به بثقتي بى فاستفدنا طمأنينة وسكونا لا يرثان
على الدهر ولا يحولان بالقهر ، ومع ذلك فبيننا بالطلع ومواقع الكواكب
مشكلة عجيبة ومظاهرة غريبة حتى انا نلتقى كثيرا فى الارادات والاختيارات
والشهوات والطلبات وربما تزاورنا فيحدثنى باشيء جرت له بعد ما افترقا
فاجدها شبيهة بامور حدثت لى فى ذلك الاوان حتى كانها قسائم بينى وبينه ،
او كائى هو فيها او هو انا . وربما حدثته برؤيا فيحدثنى باختها فنراها
فى ذلك الوقت او قبله بقليل او بعده بقليل . فقلت هل تجد عليه فى شيء
او يجد عليك فى شيء ؟ قال . وجدى به فى الاول حجبى عن موجدتى عليه
فى الثانى . على انه يكتفى منى فيها خالف هواى باللمحة الضئيلة واكتفى
انا ايضا منه فى مثل ذلك بالاشارة القليلة ، وربما تعاتبنا على حال تعرض
على طريق الكناية عن غيرنا كاننا نتحدث عن قوم آخرين ويكون لنا فى ذلك
متنع واليه مفزع . ولما نجتمع الا وبحدثنى عنى بأسرار ما سافرت عن
ضميرى الى شفتى ولا نددت عن صدرى الى لفظى ، وذلك للصفاء الذى
ننقاسه والباطن الذى نتفق عليه ، والظاهر الذى نرجع اليه والاصلى
فيه والفرع الذى تشبثنا به . والله ما يسرنى بصداقته حمر النعم) .

ومعذور من يطمح الى هذا المثل الاعلى اذا استصفر كل صداقة
لا تسمو الى هذه الذورة وساء ظنه بمن لا يستطيعون التفتان فى حب
الصديق .

هذا نموذج وسط من مقالات النقد الادبى لا هو بالطويل الممل ولا بالقصر المخل ، ومع ذلك فانه ينبىء عن نظرة فاحصة تجوس خلال الاثر المنقود وتنفذ الى اعماقه فتصفه وتحلله وتبرز مواطن القوة والضعف فيه ، ولا تكفى بذلك بل تربط بين معطياته ، وما تعرفه عن صاحبه وهو شيء كثير فتستخلص من ذلك احكاما وقضايا لها فائدة جلى فى تقييم الاثر ومعرفة نفسية مبدعة . ولا يتطلب من المقالة النقدية اكثر من هذا . اما عن اسلوب المقالة ولغتها فانهما من قبيل ما يسمى بالسهل المتنع ، والنقد يتطلب التركيز والوضوح فلا مجال فيه للخيال والتفصح ، وهذا من الفوارق الجوهرية بين المقالة الادبية الخالصة والمقالة النقدية

وهذه مقالة بعنوان الفنون والحضارة لعبد السلام العلوى وهى الى التعريف اقرب منها الى النقد والادب الخالص : « يكاد الجبل الجديد ، جبل الطاقة الذرية والطائرات الصاروخية ان تشتبه عليه المصالح ، وتضطرب فى نفسه الاوضاع . فيكثر بقوانين الكون ، تلك القوانين التى سارت على ضوئها الاجيال السابقة فابدعت لنا ما نتمتع به من مدنية ودين وعقائد ، ليتوجه بفكره ويتطلع بقلبه الى هذه الحضارة المادية الآلية التى تكاد فى يوم من الايام اذا لم تغير سرها وسرعتها واتجاهها ان تعصف بها الارض عصفا فاذا هى هباء فى الفضاء .

لم يعد الناس وخاصة الشباب يتحدثون عن الكون ونواميسه والدين واسرارهم والمجتمع وحالاته ، وانما ظلوا يرقبون تلك القوى الكامنة فى النار والحديد وما هو من قبيلهما كان شيطان الهمم الذى سيطر على العالم فى هاتين الحربين الاخيرتين قد ملك عليهم مشاعرهم فلم يعودوا يفكرون فى شيء سواه

فكيف بعد هذا لا نحمل القراء على الضحك والسخرية اذا ما طبعنا فى حمل خيالهم الشارد الجموع الى الشاطئ الآخر ، ذلك الشاطئ الهادئ لنحدثهم عن الفن والفنانين واثريهم فى الحضارة ، تلك الحضارة المهددة فى كل حين بالانقراض والفناء . فليحسبوا اذن هذا المقال حديث خرافة ، وليتفضلوا بالاطلاع عليه ، فما اكثر ما تسرى الخرافات عن الحائرين وان لم تحمل اليهم شيئا جديدا

لنحن بالرغم من هذا لا نظن انه يوجد في العالم المائج المضطرب رجال اسعد من الفنان الذي يقضى بياض يومه وسواد ليله في ابداع الجبال على اختلاف ألوانه ، وصوره ، ولهذه السعادة اسبب عدة اهمها ان الكاتب الذي يجهد فكره ليزيد في ثروة اللغة معنى جميلا وخيالا رائعا ، والرسام الذي يقضى نهاره امام لوحته والوانه ليخرج الى الناس صورة بديعة ، والموسيقى الذي ينفق عمره بين عوده وبياته لبثى بلحن رقيق شجي ، كل هؤلاء واشباههم يجدون لذة وممتعة لا تساويها اية لذة في هذا الوجود .

والسر في ذلك ان في اعماقنا ميلا شديدا الى الابداع ، وطموحا عظيما الى الابداع ، تمتد بلغتنا الى اختراع شيء من الاشياء وكان هذا الاختراع جميلا ظفرنا بمثل ذلك السرور الذي لا تشعر به الا الام حينما تريد نسمة حية في هذا العالم . والغريب ان هذا السرور لا يشعر به الفنانون المبدعون وحدهم بل يعكسونه على كل من يقرأ كتابتهم او ينظر الواحهم او يسمع الحانهم ، ولما كان السرور الداخلى واللذة الروحية اعلى ما يطلبه الناس كانت للفنون قيمة لا تعادلها قيمة ، وربما قيل بان لذة الفن لا يكاد يشعر بها الا افراد قلائل ، اذ ليس كل انسان فنانا بل وليس كل انسان قادرا على فهم الاعمال الفنية حتى تحصل له هذه القدرة المقصودة وهذا السرور المنتظر . نعم لكن غايتنا وغاية الحياة العالية ان يصير كل فرد فنانا فبما يعمل لانه متى بلغ المرء الى هذه الدرجة انتقضت بالنسبة اليه كل اسباب الحزن والشقاء في هذه الحياة ولم يبق الا السرور والفرح وذلك شيء لا يستهان به ومن لم تنقض في هذه الحياة كل الصعوبات والمشاق ولا يبقى في الصبى ما ينقل على القلب والروح فيقذف بالانسان في مهواة الالحاد والتمرد على الخالق او يلقى به في ظلام الياس القاتل حتى يمد يديه الى روحه فيزهتها ، وكيف يتخيل الانسان امة ليس فيها الا الفنانون ؟

فالن ان اذا نافع في حياة الانسان وان ظهر بمكس ذلك لاول وهلة ، لانه ينبوع اللذات السامية المهيبة ، ولا تقف انفعالاته في الامراح الروحية والعقلية وحدها بل تتعداها الى ما وراها بكثير اذ يكاد الفن يلقى في كل آن درسا على الناس يريهم الحياة الحقيقية حياة الروح التى وجدوا لها في هذا العالم والتى يجب ان يعملوا لها بكل ما لهم من حول وقوة ، كما انه

يريهم معنى الحياة الغامض الذى يهرون به فلا يصرونه ولا يفهمونه ،
ويهديهم بعد ذلك الى الصراط السوى والنهج الاثوم .

الفنانون هم الذين يصنعون عقلية الامم التى يعيشون فيها ويكونون
شخصيتها ويعطونها مظهرا تتجلى به بين الامم . لماذا ذكرت عصر الموحدين
او المرينيين بالمغرب فكرت اول ما تفكر فى صومعة حسان والكتيبة ومدرسة
القطارين ومدرسة ابي عنان وما الى ذلك من الآثار ، لان هذه المبدعات
الفنية هى التى تختصر لنا عقلية تلك الاجيال الماضية وتعتبر عنها تعبيرا
سويا جامعا فى وسع كل انسان ان يفهمه على قدر عقله وثقافته . فالفنانون
انهم او آثارهم تعمل عمل الكاتب والمؤرخ بل ربما فائته اذ تزيد على منفعة
الاخبار لذة الجبال ومتعة السرور .

والفنان كلما كان شأنه يتناول مادته من اصناف حياة شعبه وامته
يهو ولا شك مخلص لها ولشخصيتها فى عصر معين ، غير انه حينها يزيد
فى هذه المادة من نفسه المبدعة الخالقة يزيدها وضوحا وقوة وروعة تضمن
لها الخلود او على الاقل البقاء الطويل . والفنانون بذلك يزدون فى ثروة
الشعب المعنوية ، ويضاعفون قوته الداخلية ويكونون تاريخه ومظه العظما
وغلياته السامية فى العيش . ومن هنا يتجلى لكل اريب ان الامة التى لا
تملك فنانيين يهرون عن شعورها واحساسها ويخلدون آثارها ويختصرون
نفسيتها بطريقة خفية رقيقة تضم اللذة والمنفعة ، انها هى امة فارقة فى
بحور النوحش محلجة فى ظلام المادة ، وان قلنا ان عيشها اقرب الى عيش
العجاوات منه الى حياة الانسان المتقدم لم نبعد فى ذلك عن الصواب

واين توجد امة جديدة بهذا الاسم لا تفكر الا فى الاكل والشرب وما فى
معناها مما تقوم به محيشتها المادية ثم تهمل الجانب الروحى اهمالا كليا
فلا تغنى ولا ترقص ولا تتزين . انها والله غير موجودة ، فنزوح افريقيا
واستراليا — وهم اكثر الناس نوحشا — نراهم يقضون جل اوقاتهم فى الغناء
والرقص والالعب وكل ما يجلب لهم السرور ويدخل عليهم الفرح . كما اننا
نرى نساءهم يتزين بالودع والمحار ويتحلين بالاسورة والخلخل متى وجدن
الى ذلك سبيلا ، ومن هنا ندرك ان الفنانين ليسوا بالاشخاص غير عاديين
كما يزعم بعض الامراء بل هم اكثر الناس نيقطا واتزاناً ، ولئن اتوا فى

ابداعهم بما لا يرضى بعد المخرطين في المادة فانما يعبرون عن حاجة ماسة بالامة اجمعها وهي الشعور بالجمال اذ هم وحدهم يستطيعون الانصاح عنها فهم اذن السنة الشعب وصوت الامة التي يعيشون فيها وينتسبون اليها ومتى فقدم اي مجتمع كان اخرس ينادى فلا يسمع له نداء ويحاول ان يفضى بها في نفسه فلا يستطيع .

والفنانون كالسياسيين كل منهم موجد مبدع غير ان السياسيين القادة لا يبدعون الا في الناحية الزمانية وقليل منهم من يتعداها اما الفنانون فهم وان كانوا مخصصين بالجانب الروحي والجانب العقلي فانهم يتعدى هذا النطاق فيشمل في الغالب ما هو من قبل الجانب الآخر واثت اذا دقت النظر اكثر من هذا وجدت السياسيين يستخدمون القوة والارهاب في الامتثال لاوامرهم والخضوع لارادتهم اما الفنانون فهم يسخرون وسائل اخرى تفوق الاولى رقة ولبابة اذ يتناولون الناس من الجانب المعنوي فيأخذونهم بالجمال والسرور واللذة وكلما حسنت الاسباب حسنت النتائج

وكل من يولى الفنون شيئا من دقة النظر وحسن التمييز يجدها تلقى علينا دروسا دائمة في التربية والاخلاق ، وتبين لنا حقيقة الحياة التي يجب ان نعمل لها فالكتاب يهذبون عقولنا واذاقاتنا بما يزيدون في ثروة اللغة والادب من حيث الاخيلة الرائعة ، والافكار الصائبة والنصيرات المعجبة التي نوجهنا احسن توجيه في حياتنا ، وتفتح لنا المجال لحياة روحية سامية ننسى فيها اتعابنا واحزاننا وجميع ما يحيط بنا من شقاء في هذا العالم القاسي لنتمتع بالجمال المطلق ولو حيننا من الزمان ، ونشعر باللذة الفنية بعد ما فقدناها . والرسم يهذب بصرا بما يظهر لنا من الصور البديعة الاخادة والموسيقى يرقى سمعنا بما يقدم اليه من الانغام العذبة الساحرة ، والنحات والمهندس كلاهما يعطينا بيانا شافيا عن فكرة التوازن والانسجام وهلم جرا . وكل فكرة دارت في خلد الانسان وكان شأنها ان ترفع الشعب والامة في سلم الحضارة والرقى ولم يستطع ان يعبر عنها بجلاء ووضوح الا والفنون الجميلة تعبر عنها وتظهرها الى الناس مجسمة ملموسة على كثير من حواسهم الروحية والمادية

ومن مزايا الفنانين التي تظهر عظمتهم وتزيد سموهم ان الناس قلما

يخفلون بهم في حياتهم اذ يقضون اعمارهم غالبا في المحنة والشقاء فاذا ماتوا وانقرضوا انهار الناس على آثارهم بالتعظيم والاكبار ، فما هو النفع المادى الذى ناز به المتنبى في حياته ؟ وما هو الاجلال الذى لقيه لامرتين في اواخر عمره ؟ وما هى الحفاوة التى تمتع بها روسو بين معاصريه ؟ فالفنانون اذن ينشرون بيننا مزية من اسمى المزايا الا وهى النزاهة والنظر الى الدنيا بعين ملؤها غاياتها السامية ومثلها الطيا .

ولم يغفل الرافعى اذ قال (الفنان نبى هذه الديانة الرقيتة التى من شريعنتها اصلاح الناس بالجمال والخير)

وعظمة اية امة لا تقاس الا بمقدار ما انجبت من الفنانين والآثار الفنية . لا بمقدار ما اخرجت الى العالم من ابطال يشنون الحروب بين الناس بدل ان ينشروا السلم ، ويشهرون العداة والبغض عوض ان يشهروا الوئام والمحبة ، فالفنانون بما يقدمون الى الانسانية من آثارهم الجميلة الراقية يرغمونها درجات فوق المادة وما يتصل بالمادة ليفكر الشخص ولو حيناً من الزمن في حياة علوية جذيرة بروحه فينسى معها آلامه واثراحه ليتفرغ بمجموعه الى التمتع بالجمال المطلق واللذات السماوية ، ولولا الفن والفنانون لكانت حياة الانسان كحياة العجاوات او اقرب اليها اذ قلما تتعدى حدود الاكل والشرب وملذات الجسد ومن منا ينكر تأثير قطعة موسيقية راقية على اعصابه او يكابر في نسيان الاتراح والسهو عن كل ما يحيط بالمرء من مظاهر الحياة القاسية حينما يحضر تمثيل رواية جميلة ؟ وما نحن نرى ان للفنون تأثيرا محسوسا على كل ما لا يمكن ان يتوصل اليه الانسان فيؤثر فيه تأثيرا محسوسا مباشرا فالفنون اداة التأثير على الناحية الروحية والعقلية منا ، اداة التأثير على كل ما يتبرد على القوات الخارجية كيفما كان شأنها

وتاريخ الامم بمعناه الصحيح انما هو تاريخ فنانيها من كتاب وشعراء وموسيقين وغيرهم اما حروبها وانتصاراتها وهزائنها فهى من ناحية انسانية محضة ، في درجة ثانية اذ قليل من الناس من حارب لنشر غايات سامية ومثل عليا كما حارب اجدادنا المسلمون من قبل وانما يحارب الناس لنشر افكار او نزعات كلها انسانية واغراض والضمير الانسانى والتاريخ العادل لا ييحثان عما كان صالحا لامة دون امة ولعصر دون عصر

بل ينتجان دائما عما كان فيه الخير والنفعة للإنسانية جمعاء بصرف النظر عن الجنسية والوسط والعقائد .

ولقد اصاب ابن خلدون في قوله : (ان الدولة لها اعمار طبيعية كما للأشخاص) ونظريته الصائبة في سر اعمار الدول هي ايضا مع كل العجب نظرية العلم الحديث في الفنون . فسمو الفن يرافق سمو الدولة وانحطاطها ويتأثر بقوتها وضعفها ، فتاريخ أمة من الأمم يمكنه ان يرسم بخط اعتدق تمل أعلى نقطة فيه على سمو الفنون فيها وبلوغها الغاية القصوى .

وهناك تاتون من قوانين الكون يشمل كل مخلوق في هذا العالم يقتضى بأن تكون للفنون طفولة وشباب وهرم وموت . واعظم الدول هي التي طال فيها شباب الفنون وامتد فانجب كتابها وشعرها ونحاتوها ومهندسوها ومصوروها اعمالا جليلة خليقة بهذا الشباب الريان . ومن اكبر هذه الدول دولة اليونان ، ملقد بلغت فيها الفنون شبلها حوالى القرن الخامس قبل الميلاد قرن بيركليس ، فابدع فنانوها ما لا يفنى على تعاقب الأزمان وهذا الشباب القوى البدع هو الذى لا يزال يضمن لها البقاء بل الخلود . وأن كانت قد انقرضت منذ عشرات القرون ولولا ذلك الماضى الفنى المجيد لما وجدت من يفكر الاغريق بما يذكرون به اليوم .

واعظم جريمة ، يرتكبها شعب من الشعوب هي عدوله عن تراث اجداده الفنى واستخفافه بهذا التراث كيفما كان شأنه ، ثم العمل بكل ما فى وسعه لان يحيى حياة ميكانيكية عمرية ترتكر فى جميع نواحيها على المادة والآلات .

وانه ليشبه ان يكون بين دورة الفن فى العالم وبين دوران الشمس صلة متينة لم ينتبه اليها احد حتى الآن ملقد ازدهرت الفنون فى الصين والهند طيلة قرون عديدة قبل الميلاد ، ثم خبا اوارها بهيما ، وطلع كوكبها واضاء فى البلاد اليونانية والرومانية ، ثم اشرق فى الاندلس بعد ما مر عن طريق المغرب ومنها تالى فى أوروبا الغربية ثم جاوز المحيط للملح فى الربوع الامريكية . غير انه ظهر فى مظهر قريب ان لم نقل مخيف . وربما انعكست الاسباب فأتى ذلك الشماع بقصد الشاطئ الاخر ليعيد اليها عصر الموحدين والمرينيين

بما كان فيهما للمغرب من عظمة انسانية وسمو فنى ومن يدري ؟ »

لعل هذه المقالة الممتعة في غنى عن التعليق لما فيها من احاطة وشمول للموضوع الذى تناولته ، ولقد برهن كاتبها على ثقافته الفنية واطلاعه الواسع بمالا مزيد عليه . وهى على طولها في الجملة تتزاحم فيها الافكار الجميلة ، وتفويض بالشعور المهدب ، لم تترك وجها من وجوه الاشادة بالفن وبيان اثره في نهضة الامم الا ابنته ولم تدع طريقا من الاعجاب بالفنون المختلفة وتحبيبها الى النفوس الا سلكته ، وهى مقالة يواكب فيها الخيال الحقيقة ، وتقرن الموضوعية بالذاتية ، تقتبس من الشرق والغرب والتقديم والحديث ، وتؤلف بين عناصر الموضوع على تباين مصادرها بلباقة وحسن تات حتى ليحسب القارئ انها جميعا من منبع واحد . وذلك كله في عبارة طليقة واسلوب اخاذ مما يمكن معه القول بأنها نموذج للمقالة الادبية التى استوفت شروط الكمال او كبرت تستوفيها .

واخيرا هذا لون آخر من المقالة الادبية يختلف عن الالوان السابقة في المادة والعرض ، هو في مادته من خالص الادب الذى يعبر عن الشعور الذاتى للكاتب وانفعاله النفسى ازاء الاحداث والاكوان ، وهو في عرضه لهذه المادة يصطنع اسلوبا رمزيا رشيقا يكاد يختص به الاديب محمد المصباح من بين ادباء المغرب ومنه ما كتبه عن فصل الخريف :

« وثى وثى بالغمام يا ريثة الفضاء سمائى ، وهبى يا رياح وحاصرى الاغصان والاعشاب ، وارقصى مع الاشجار وانسجى يا شمس على الحقول كنفها ، ودعى القمر يكتب على ضريحها : ماتت شهيدة الجمال وضحية الربيع ومن يمت غداء للربيع يولد كل ربيع

وانت يا امطار قد طالعت عطلتك في المصايف على الشواطىء وفي قمم الجبال نهلا عدت الى غدرانك وانهارك وسواطيك تحلين لها اورثارها ونضارة شجوها وهلا خلعت عن نفسك حلة السراب التى كنت تكتمين بها في هجير الصيف وتغيظه ، ورجعت الى بذورك وجذورك واعشاش تراكب ؟ انسيت وقد كان رشاشك على موعد مع سقوط الاوراق ؟ ها هي الاشجار تذهب الحقول وتوشى فاسحات الربى والمزارع بمناديل اوراقها .

اوراق وأوراق واكداس اوراق ، ولا أرى الا الاوراق منتشرة مبعثرة
على بساط الارض . ولا اسمع كذلك الا خشخشة الاوراق ، وكان الوجود ،
وكل ما يتوفر عليه الوجود شجرة تهزها عاتية الرياح فتسقط اوراقها على
الارض هامة ثم تحملها الى قبرها المولود .

هبي هبي يا رياح ، وثورى وولولى ، واعصنى فى لحمى ودمى
وعروتى وافكارى وخيالى ، فاننا كذلك شجرة من اشجار الخريف نابئة فى
ملاعبك ومغانيك الهائجة .

هزى بأنامك الثائرة جذعى واغصانى ، تساقط على الارض اوراقى
التي اسدتها الاتانية الجامحة والنيات الفاسدة ، والامكار والمطامع الجشعة ،
وانبلها الغرور والعدو وراء الشهرة والمال وحب الظهور .

اعصنى يا رياح ولا تتركى فى اغصانى ورقة واحدة من اوراقى التى
انبلتها الشهوات والنزعات السود تثارى عنى يا اوراق الحقد والبغض
والكراهية والخطايا والانام ، وعربنى كذلك من اوراق النفاق والبهتان
والذل والخضوع والمين والعبودية والخوف ودعبنى هكذا : جذورا نابئة
صامدة فى جوف الارض غير سمينة ولا هزيلة ولا متعفة . وجذعا قويا
صحيحا واغصانا ندية مثمرة ناضجة تطعم وتروى الجبال والاعالى والنجوم
بحاتية وسخاء ، وتوزع النسائم المطيبة فى الاصباح والامساء على ساكنى
المسول والاداء ومجنحاتها

هذا هو فصل الخريف فصل الرياح المطهرة ورذاذ الامطار المحيية
والنسائم الرتيقات اللطيفات . اخرجوا من مساكنكم ايها الناس ، وافتحوا
ابوابها ونوافذها لهوج الرياح لتصف باوراق نفوشها وزخرفتها الكاذبة
ومراياها الخداعة ، واسرتها ومخدراتها ذات النيات المبيقة والشهوات
الزائفة ، وموائدها المرتفعة بالجشع والنهم افتحوها على مصراعيها
للرياح لتصف باوراقها الزائفة ، وتجنح بها مع اوراق الخريف الى غير
رجعة ، اخرجوا وسارعوا الى مطهر للرياح وافتحوا لها صدوركم . واعرضوا
عليها اجسامكم كيما تسقط اوراقكم الذابلة . اخرجوا ولا تتأخروا ليلا يدخل
عليكم فصل الشتاء واجسامكم ما زالت تحمل اوراقها المريضة الصفراء .»

ومنه ما كتبه عن مصطاف كرامة :

« يا كاف يمر بالذهب فيكتسى الخيال بالثلج ، وتاء تكتب فينزلق القلم
في الملاعب والمنحدرات . والف يصور ليعشوشب بالظل ، وأما الميم والتاء
موجة ومجذاف يقلعان بك الى مرافئ الازل وشرافاته .

يا كاتمة اسرار البحار في اغصان ثلجك ، وبائعة بما في صدر التراب
من منابك ، وناقشة نجوى الخفرة على سكونة نسيمك في نجوة مسن
الرياح والتلق ، وفي اعتناق ابدى مع السلام والرح .

على جذور ارزك يقيس الهواء طوله فيجده قصيرا ، وتصريا جدا
كنظرة البنفسج ، وفي جذورها يتغلغل الابد ، فيتيه فيضيع فيغرق في رماد
الظلام . وعلى اغصانك يخفو النسيم كجدائل من اريج ، فيحلم بصديقانه
الفراشات تهدده . وتداعبه وتوشى اظفاره وشفاهه بالوانها

واخطو وكأني عن التطن اخطر ، او في اراجيح من السكونه اطيش ،
حبالها علقت في اقراط النجوم وخلفى وامامى وعن يمينى وشمالى مظاهر
ومظاهرات من اشجار الارز ، من صبايا وصبيان ، عمرهم سبعة او عشرة
اغصان ، من فتيات وفتيان ، من شيوخ وكهول يمشون وعلى ظلالهم
الشائبة يتكئون . مظاهرات هنا وهناك ، وكلها تمشى صامته وتقف صامته ،
وتصبح صامته ، وفي صمتها الاخضر البائع الطويل ، نداء السلام
والامل والجمال .

كلما وقع اصبمى على حجر او صخر او تراب الا وتفجر الماء من حوالى
ينابيع من فوب النهر والبرنقال والاعناب حتى احسبني وقد ارتويت ، قصبة
سكر ، وكلها جال بصرى وتخطى ثائبات المدى وتسلق في شفاية الصفاء
السمارى الا ورايت من خلاله منابت الكون ومهود الوجود ، فصول تحبو ،
وبحار ترضع ، وجبال تتكور ، واودية تنشق ، وسهول تتبسط ، وكواكب
ونجوم تشتعل فتتالق ، وامم وشعوب تتنفس فتولد .

ويعود بصرى من سمائك المنفوشة مبلا بدمع الجلال والخشوع ،

فأرى الخرفان والحملان على وجه سهلك وكأنها وشمات من الياقوت ، ترعى
وتتضم أعشاب الفلج آونة ، وآونة أخرى تعطو الى أغصان أرزك لترتوى
من معين النجوم فتغدو طيوراً من فضة وحرير

من عمر الشوق وبياض النجوم واحمرار الهوى كونت ، فكان للجبال
فيك تكبيرة الصلاة .

ان هذا اللون من المقالة يمثل اتجاهاً جديداً في النشر العربي اطلاقاً ،
وقد كان ميلاده اولاً على يد الادباء السوريين واللبنانيين المهاجرين الى
أمريكا ، فيما بعد الحرب العالمية الاولى ، ولا يقتصر على النشر بل يشمل
الشعر أيضاً ، ومن ثم اطلق على الادب الذي ينزع هذا المنزع الادب
المهجري ، وكان اول من اخذ بطريقته عندنا الكاتب محمد الحداد ، فقد دأب
على نشر مقالات تحمل طابع الابداع في الخيال والوصف لمجالى الطبيعة
والتعبير الذاتى عن المشاعر الانسانية الحزينة اى ما يسمونه بالرومانسية ،
وكان ذلك فيما قبل سنة 1930 ثم تعاطى الصباغ الكتابة على هذه الطريقة
فبرع فيها ، وزاد فأضنى ظلالاً من الرمزية تتمثل في هذه المجازات المبتدعة ،
والاستعارات المنتزعة من المعقول للحسوس والتمثيل للمنظور ، فزواج
بين المذهبين كما يفعل بعض اقطاب الادب المهجري ، لان الرمزية عندهم
ليست موضوعية بمعنى انها لا تقتصر روح العمل الادبى ، وانما هى
اسلوب من اساليب الاداء للموضوع المعين بعنوان كامل في كلمتى صاحبتنا
المفونتين بالخراف وكتابة وبذلك جاءت كل منهما رومانسية في موضوعها
رمزية في اسلوبها ويكثر الصباغ من المزج بين الالوان والتلوى بالطعوم والطبوع
والانغماس حتى يجطك وانت تقرا له كأنك جالس الى مائدة حافلة بأنواع
الماكولات والمشروبات ومباخر الند والعود والصندل تنعم الجو بالروائح
الذكية ، والموسيقى تشنف سمك بالحنان الشجية ، وهذه هى رمزيته
المحببة التى ينقل اليك بواسطتها فكرته الاساسية ويشركك في تجربته
الشعورية فلا تجد صعوبة في تفهمه مهما غالى في الرمز ، وكثيراً ما يفعل
ذلك ، لان الموضوع معين كما قلنا ، والزهور والطيور والجبال والادوية
والبحار والانهار والنجوم والكواكب وكل مظاهر الطبيعة لها في كتابة
الصباغ صور بديعة وتماثيل عجيبة تكاد تبوح بسر الوجود ، وتنتطق بتمجيد

الخالق ، فهو بجمالها مفتون. وسحرها مأخوذ يقف أمامها وكأنه عابد
في محرابه ، ألم يفتن كلمته عن كلمة بتكبرة الصلاة ؟ وبالجملّة نادب الصباغ
نثرا وشعرا ، ويجدر بنا أن ننبه على أن له شعرا منثورا ، هو من الأدب
الذي ذهب مع التيار الجديد المتمثل في أدب المهجر بكل اندفاع .

القصة والمسرحية

ومن اشكال النثر او الفنون التى حدثت فيه لهذا العهد ، القصة والمسرحية ونعنى بالقصة ما يشمل الحكاية الصغيرة والكبيرة المعبر عن اولهما احيانا بالاتصوفة ، وعن الثانية بالرواية . اما المسرحية فالمراد بها الرواية التمثيلية سواء كانت كبيرة او صغيرة . ولا حاجة الى القول ان هذين الصليين الادبيين بصفتها الفنية المصطلح عليها عند الغربيين ، لم يكن لهما وجود فى الادب العربى قبل النهضة الحديثة . وقد بدأت المحاولات الاولى لمعالجتهما فى الشرق منذ وقت مبكر فى القرن الماضى ، وكان الاعتماد اولا على الترجمة للآثار الغربية المشهورة فى هذا الصدد ، او على الاقتباس منها ولم يظهر اى عمل شخصى متكامل فى القصة او المسرحية الا بعد الحرب العالمية الاولى . اما فى المغرب فان تلك المحاولات لم تبدأ الا بعد هذه الحرب ، وكان الباعث عليها فى القصة قراءة بعض المترجمات منها او الاطلاع عليها فى لغتها الاصلية بالنسبة لمن يحسنون لغة اجنبية . وفى المسرحية مشاهدة بعض التمثيلات التى شخصتها فرق مصرية وتونسية قدمت للمغرب فى ذلك العهد ، فاثارت انتباه الشباب المتعلم لتأسيس فرق وطنية عملت هى ايضا على الاقتباس من الروايات الغربية المشهورة او وضع تمثيلات تعالج احوال المجتمع على قدر الاستعداد الفنى الذى كان لها . ولم تظهر تجارب ناجحة فى الميدانين الا على يد الخاصة من ابناء الجيل الجديد الذى نتحدث عنه ، اى فيما بعد سنة 1930

ومن اوائل الرواد فى هذا الباب الشاعر محمد القزى (ت 1356) ان هذا الاديب وهب حياته للفن واتصل بالفرق الوطنية الناشئة ، فكان يمدّها بارشاداته ، ويسبك الروايات التى تقتبسها ، ويضع لها الحوار والاتايد المناسبة . والف عدة روايات منها البيتيم المهمل التى مثلت على مسارح المغرب غير ما مرة ، ولولا استشهاده فى اوائل هذا العهد لآتى منه

وهناك رواد آخرون في الترجمة خاصة عن مولير واضرابه من الأدباء الفرنسيين كالمهدي المنيمي وعبد الواحد الشاوي ومحمد بن الشيخ ، ولكن تلك الجذوة خمدت بعد قليل فذهبت آثارها ضياعا . وكان بإمكانها ان تؤثر تأثيرا ايجابيا في اتجاه كتابة القصة والمسرحية اتجاها صحيحا لو انها احتفظت بحرارته الى حين . وجاء عقب ذلك الجيل الذي قدر له ان ينهض بالمهمة بعد ان يتخذ لها عدتها من ثقافة انسانية عميقة واستعداد فني كامل . فبدأت اعماله تظهر للوجود ، وكان غالبها مما يحظى بالنجاح او يقاربه . وكثر الانتاج في هذا الباب كثرة نسبية فاصبحت القصة الصغيرة تكاد لا تخلو منها جريدة او مجلة . واخرج بعض الكتاب مجموعات قصصية مثل وادي الدماء لعبد المجيد بن جلون وقصص من المغرب لاحمد البقالي وصور من حياتنا الاجتماعية لمحمد الخضر الريسوني . على ان القصة الكبيرة لم تعد من يعالجها وان كان النجاح فيها قليلا . ومن لهم فيها مزية ظاهرة عبد المجيد بن جلون : فلن قصته (في الطفولة) نالت اعجاب النقاد وبرهنت على مقدرته الفنية وبراعته في تصوير المناظر والاشياء وتحليل المواقف والمشاعر ، ولئن كانت في الواقع انما هي حكاية لنشاته الاولى وتنقله في صباه ما بين انكثرة والمغرب فان ما اسبغه عليها من ظلال سحرية وما رسمه فيها من انطباعات فطرية جعلها تفيض بالحياة وتبلغ حد الابداع . وبذلك طارت شهرته كقصص ممتازة فغلبت على ما له من مواهب اخرى في الشعر والنثر .

والواقع انه بتملكه للناصبة الفن القصصى ونجاح تجاربه سواء فى القصة الصغيرة او الكبيرة اصبح هو القاص الاول في المغرب ان لم يفرحه عن مكانته هذه كتاب آخرون تتفاوت حظوظهم في النجاح ، ولكنهم لم يتفوا عن الانتاج كما وقف هو منذ زمن

وظاهرة الانقطاع عن كتابة القصة تكاد تكون عامة بين الذين زاولوها واجادوا فيها ، مثل احمد بناني وعبد الرحمن الفاسي وعبد الله ابراهيم وسواهم . ولعلمهم انما كانوا يعطون الامثلة على استطاعتهم ان يلجوا في كل باب من ابواب الانتاج الادبي حتى اضيقها مسلكا . ولم يكونوا جادين

و اختيار الفن القصصى وسيلة للتعبير عن افكارهم ، ولا ان يصبحوا في يوم من الايام مختصين بكتابة القصة . وعلى كل حال فان محاولاتهم الناجحة مما اضاف الى الحصيلة القصصية في المغرب ذخائر لا تنكر .

وبصفة عامة فان جهود الادباء تتوزع بين النظم والنثر والقصة والمقالة وغير ذلك من ضروب الانتاج الادبي ، ولا نجد ادبيا انتطع الى كتابة القصة خاصة او كان اهتمامه بها اكثر من اهتمامه بالالوان الاخرى من الادب ، فهذا عبد العزيز بن عبد الله يكتب المقالة والبحث ويؤلف قصة طويلة مثل غادة اصيلا . والحاج محمد بنونة يحرر المقالة والبحث وينظم الشعر وهو صاحب مسرحية عبثة تنديشة وغيرها ، وعبد الخالق الطريس الذي كتب مسرحية انتصار الحق بالباطل يشتغل بالسياسة كما هو معلوم ، وقاسم الزهيري ومحمد العربي الخطابي واحمد زياد كل منهم بعد صاحبنا وناقدا وكتاب قصة . وابو بكر اللتوني يتعاملى قول الشعر وكتابة القصة . ومثله عبد الكريم بن ثابت واحمد البقالى . وعبد القادر المقدم له تمثيلات متنوعة وهو يعد من الشعراء . وعبد القادر السيجى وهو كاتب وجدانى له كذلك تمثيلات مسرحية بروح الرمزية . وهكذا لا نستطيع ان نعد كتابا نمرس بالقصة او المسرحية الا وهو يصرف من طاقاته الفكرية في مناح اخرى ما لو خصصه او اكثره بأحد العملين لتفوق في ذلك ايما تفوق ولتأبى قواعد الفنون على اساس من التجربة الصادقة والمعاناة المنتجة . ولهذا لماواقع هو ان كلا من القصة والمسرحية في ادبنا ما يزال في طور التكوين . واذا كانت هناك محاولات ناجحة فليس ممناها ان الطريق قد طويت وان الامر قد استقر في نصابه بالنسبة الى هذين الفنين من النثر . وكل ما هناك ان البداية حسنة وانها تدل على مستقبل زاهر في هذا المجال ، بتوافق وما حققناه من تقدم في المجالات الاخرى .

ولعله مما يكون سابقا لوانه الحكم على هذه الاعمال والقول بان اصحابها ينتمون لهذا الاتجاه او ذاك فالحقيقة ان الاتجاهات متعددة وان كانت النزعة الواقعية اكثر ما تكون بروزا من بينها . ولكن ما دامت نواعد الفن كما قلنا لم ترس على اساس بمعنى ان المحاولات الجادة لادبائنا في هذا الميدان ، ما زالت تتعثر بمختلف العوائق ، فان من المستحسن تاخير الحكم

حتى تتوفر دلائله ، والاكتفاء بالاشارة الى ما يكون في العمل من نزعة ظاهرة او خفية ربما لا تكون اصلية في نفس الاديب ، وانما اوحى بها طبيعة العمل ، وبهذا لا نجازف بتقديم نتائج مقدماتها غير صحيحة .

ونعطي الان بعض النماذج من القصة الصغيرة تثبت مشاركة كاتبنا في هذا اللون من الادب ، واستيعاب النثر المفرى في تطوره ، لجميع الاشكال المستحدثة في النثر العربي ، سيما مع قافلة التجديد في وطن العرب الكبير . وليكن النموذج الاول هو قصة وادى الدماء لعبد المجيد بن جلون :

« اقمنا خضاعنا على مرتفع في الحقول ، وكانت الزروع الخضراء تحبب بنا في كل اتجاه الى ان تغيب خلف الافق البعيد ، فيخيل البنا والنساء تيمس بها اننا نقيم في جزيرة تتراقص حولها امواج ناعمة صفراء خضراء وكان كل شيء يدل على ان الاقدار سوف تنقسم في تلك السنة لهذه البلاد التي يرتبط تاريخها بنسبة ما سقط فيها من الامطار وانه ليخيل اليك ان في استطاعتها ان تسقط دولة .

ونفتحت قلوبنا الصغيرة للربيع ، وكانت الطبيعة تقدم البنا اعز ما فقدناه في المدينة ، وهو الحرية ، كانت تتمثل لنا في السماء والارض وفي كل كبيرة وصغيرة بينهما ، وكانت الحياة جديدة بالنسبة لنا ، ولذلك كنا نتأمل باغتياب كل شيء نراه : نجمة في السماء ، سنبلة بين السنبال بل طائرا فوق غصن ، كل شيء نراه كان يسترعى انتباهنا .

ولم يكدر علينا هذا الصفاء الا قدوم جياة الضرائب الفرنسيين ، فما كادوا يصلون حتى نادوا بجميع كل الفلاحين والرعاة ليستخدموهم في اقامة معسكرهم ، وفي شق الطريق لهم بين الزروع . والحقيقة انهم لم يكونوا في حاجة الى كل هذا لانهم كانوا يقدرون الضرائب بنظرة من النظرات . ولو سمعت الجياة يتحدثون اليهم لحسبتهم اصحاب الاراضي يتحدثون الى العمال والمستخدمين . كانوا صخابين جبارين قاهرين ولكن رئيسهم كان يفوقهم في ذلك فقد كنا نتسلل الى قريب من معسكرهم لنتسلى بالنظر اليه وهو يصيح ويلعن ، ويضرب الهواء بيده والارض برجله ولا يرى الا غاضبا مزمجرا

لم يكن من الغريب في المغرب أن تستقر شمس الربيع خلف ربائب
بيضاء فأبريل ظليل كما يقول الناس هناك بل أن في ذلك ما يزيد الربيع
بهجة وجمالا . ولكن حدث ما انساني جياة الضرائب وصخبهم فقد تلاحت
السحب بالسماء الى أن أصبحت دكناء كثيفة ، وانذرت الأرض اليانعة
الخصبة بالتلف والبيوار . وبين عشية وضحاها غارت انوار الربيع المتألقة
خلف سحب قاتمة كانها قطع من الظلام ، وساد الحقول سميت رهيب
كما لو كانت تشعر بأن كارثة توشك أن تنزل بها وتلف اثمارها ، وجلس
الفلاحون والرعاة ينظرون بعين الرعب الى طلائع العاصفة . وهدت فجأة
ريح مرصر عاتية ، وازداد الجو ظلاما ، ثم تساقط رذاذ ما لبث أن انقلب
الى مطر غزير ثم انطلقت العاصفة من عقاليها ترعد وتبرق وتطر ،
فما ذلك قلوبنا حسرة واسى ، فان ساعة واحدة من الامطار كافية
لاتلاف محصول السنة كلها

عللنا النفس بانها عاصفة عابرة ، ولكننا بتنا نسمع هديرها الى
المصباح ، واستمرت طول اليوم التالي ، واخيرا عرفنا اننا انقطعنا عن
المدينة وانه قد أصبح من المستحيل علينا عبور الطريق الزراعية راجلين
او راكبين لكثرة ما تكدس فيها من الاوحال ، وصمد خباؤنا للعاصفة سبعة
ايام كاملة ، ثم بدأت المياه تتسلسل اليه ، ولما نفذ زادنا وذهب احد الرعاة
ليأتينا بغيره من قرية تبعد عنا بمسافة نصف ساعة ، غاب عنا حوالى
عشر ساعات . والحقيقة اننا وجدنا بعض اللذة في ذلك ، ولكن الامر طال
فتسرب الرعب الى نفوسنا ، فبدانا نشعر باننا مهددون بخطر مسيطر
وماذا يكون لو انهار ما بقى من خباثتنا . على ان الشيء الذى خفف عنا
بلوانا قليلا هو ان جياة الضرائب وقعوا غيبا وقمنا فيه . فكانوا يتسلون
بالنظر الينا كما نتلى بالنظر اليهم وربما تبادلنا بعض الاشارات التى
لا معنى لها .

لم يعد في اسنطاعتنا ان ننام بعد الليلة العاشرة اذ ابتل كل شيء في
الخباء ، فجلسنا نتحدث ساهرين . كانت الليلة تبدو لنا اشد هولاً من
الليالى الماضية ، ولم تكن العيون تدرك وسط الدياجى سوى ضوء خانت
في اتجاه خباء جياة الضرائب . وكنا نقفز في احاديثنا من موضوع الى

موضوع ، شأن من تحدثوا عشرة ايام ، بيد ان اعرابيا من الرعاة استطاع ان يفتلنا بموضوع جديد واى موضوع . قال لنا وهو يشير بيده في ضوء البرق : انظروا هل ترون ذلك الوادى . ساعدتكم عنه ، انه وادى الدماء .

كان كل شيء ، حولنا يبعث الرعب في النفوس ، ولذلك حمل هذا الاسم الى قلوبنا معنى رهيبا . كان يتحدث والسماء تبرق ، وكما نرى على ضوء البرق ذلك الوادى البعيد وكأننا لم نره من قبل ، وهو انحدر هائل يقع عند سفح جبل قديم محطم ، وقد امتلأ بالصخور الكبيرة المبعثرة . وسألنا الاعرابى بصوت واحد ، ولدى الدماء . فقال نعم ، وادى الدماء كانت تقوم هنا في الزمن القديم قرية يحكمها حاكم ظالم حياته تعج بالدماء والفضائح والسرقات وكان هذا الوادى هو المجرى الذى يذبح فيها ضحاياه ، فتكونت نتيجة لذلك في اعماقه بركة من الدماء ، وبلغ من تهتك ذلك الحاكم الطاغية انه اقام حول هذه البركة القصور والبساتين ، وجعل منها مرتعا لاهوائه الجامحة وكان يمد البركة دائما بالجدول من دماء الضحايا ولكن ذات ليلة بينما كان الحاكم في احدى السهرات على حافة بركته الحمراء يشرب الخمر ويفازل النساء ، قام مترنحا لينظر الى وجهه في صفحة البركة على ضوء القمر ولكن يا لهول ما حدث ، فما كاد يصل الى حافتها حتى امتدت اليه آلاف الايدي من اعماق الوادى ، هي ايدي ضحاياه وجذبتنه وهو يصرخ الى الاعماق حيث اختفى الحاكم الى الابد . وما زال الوادى محفونا بالاسرار منذ ذلك الزمان فما يوجد احد يستطيع ان يقترب منه . ذلك انه يستدرج اليه الظالمين دائما حتى اذا اقتربوا منه اختطفتهم تلك الايدي وجذبتهم الى الاعماق .

وارتفع صوت الرعد ليضعف هلعنا ، ولكن عيوننا المرعوبة كانت مثبتة في الوادى لكى نراه كلما اضاء البرق السماوات . يا للنجيمة ! لم يكن الاعرابى يتحدث عن خرافات الاولين . اننا جميعا نرى اعماق الوادى ، وليست هناك صخور ولا فراغ ، بل انه يطفح بذلك السائل الاحمر المروع ، نراه كلما ابرقت السماء يغلى بالدماء ، فاصابتنا رعشة اخربت السنتنا .

وانطلق الرعد مدويا صاخبا كما لو كان قد اهاجته قصة الاعرابى ،

وانحدرت اصداؤه تتدحرج الى الارض لتتردد في اعماق الوادى رهيبه
مفزعة ، كما لو كان قد اجتمعت فيه ثلة من العمالقة اغرقوا في ضحك
ساخر مهول ثم انطلق الرعد مرة اخرى فرد عليه الوادى في ضوء البرق
ردا آخر مفزعا ، ولم تنجل عنه نوبة الفزع الا بعد ان هدا الرعد قليلا .

ولكن الامر لم يقف عند هذا الحد فقد سمعنا في الصمت الذي اعتب
الرعد صباحا مزعجا وكان من الواضح انه صوت انسان يصرخ وما زال
يقتررب ويقتررب الى ان بدأنا نميز ما يقول : ثبا لك يا بلاد العواصف
والرعود ! ويل لك منى غدا ! لامزقتك اريا ، واذرونك في الرياح ! آه ،
انى جنتت هل تسمعين ايتها الرعود ؟ انا مجنون انا مجنون .

ثم تعالى الرعد مرة اخرى فاعقبه الصوت بضحك متواصل اليم ،
ثم بدا ان صاحب الصوت قد اقترب منا وفعلنا راينا على ضوء البرق
انسانا يزحف الينا وجفلنا حين اقتحم علينا الخباء ملطخا بالاوحال مننوش
الشعر محمر العينين منتفخ الوداج فعرفناه . انه هو ، رئيس جياة
الضرائب وفى اللحظة عينها وصل اعوانه واثاروا الينا ان بعثله خلا ،
فلا داعى لمقاومته او الرد عليه ، بينما كان هو يصيح في وجوهنا ، انا لا
تخيفنى رعودكم بل اننى احتقر عواصفكم ولا اسمح لها بأن تحاصرنى ،
لاقتحمين الاوحال والبرك الى الطريق المعبدة دون ان اشارككم مصيركم
المخجل . موتوا انتم هنا ليجدوكم بعد العاصفة جثثا ملطخة بالاوحال يتعثر
فيها عابروا السبيل هل انتم فاهمون ؟ لن يقال غدا ان عاصفة مراكشية
اردت لئلى من قتيان فرنسا . ثم رفع يده مهددا ، فتأخرنا خطوة الى الوراء
وقد اندكت نفوسنا لهذه الاحوال التى احاطت بنا .

حاول اعوانه ان يمسكوا به ولكنه وكثرهم وقتل من بينهم الى الاوحال
فساروا في اثره وهناك تنفسنا الصعداء وحاولنا ان نضحك لكى نقتع
انفسنا بان الازمة النفسية التى كنا فيها قد انتشعت ، ولكن احدنا التفت
على ضوء البرق وقد راى رئيس الجياة يزحف في طريق الوادى واثار
اليها صامنا لمرايناه وبادلنا النظرات . ولكن الاعرابى الذى انزعنا بقصته
المزعجة لم يستطع ان يكتم شعوره فصاح الم اقل لكم انظروا ان قصص
آبائنا صحيحة دائما ان الوادى المنتقم يجذب الظالم اليه ، لن يجبى

ضرائب بعد اليوم ، سوف يصل الى حافة البركة الحمراء فتخطفه ايدى ضحاياه الذين افقرهم وشردهم واذلهم سوف تتخطفه كما نخطفت الحاكم الظالم من قبل ، وكما ستتخطف كل ظالم عات في المستقبل ، بل ان الجباة جميعا سائرون نحو الوادى ليلحقوا بضحاياهم ، سوف تتقاضى منهم تلك الايدى الخيفة ثمن الزروع التى اسدوها والتى سرتوها والتى اغتصبوها .

ونظرنا فاذا بهم يسرون خطوة خطوة وسط الاوحال نحو الوادى الرهيب ، الوادى الذى يفلى بدماء الضحايا ودموع العذارى ومراخ الاطفال وانين الامهات وعويل الشيوخ . وكان الرعد يخف والمطر ينحصر كلما اقتربوا ولم يبق بعد ذلك من العاصفة سوى برق صابت ينير لهم الطريق الى وادى الدماء »

هذه اول قصة في مجموعة وادى الدماء للكاتب وهى كفيلة بان ترشدنا الى معالم غنه ، وتصور لنا احساسه ازاء الاحداث وانعكاس هذا الاحساس على العمل الادبى الذى يقدمه البنا مفرغا فيه كل ما يملكه من طاقة وقدرة على الابداع والانتقال . ولعل تصوير الواقع او النزعة الواقعية عند الكاتب مما لا يحتاج الى تدليل . ان الاستعمار اى استيلاء امة قوية على امة ضعيفة واستغلالها واستغلالها هو اكبر مصيبة تصاب بها امة في حياتها، انه بدوس كبرياءها ويحرماها من الاستمتاع بخيراتنا ويعوقها عن النهوض والتقدم ، والامة المستعمرة بما تحسه من غضاظة وما تراه في كل مكان من آثار للمستعمر تنحدى شعورها بالكرامة الانسانية والحرية الطبيعية، لا تفكر الا في وسائل الخلاص من هذا الشر المستطير والداء الوبيل ، ولا تفتأ تقلب قضية الحرية على جميع وجوها وتتعلق بما يمكنها من تهز عذوها واسترجاع سيادتها ولو كان وهما من الاوهام او حلما يراه النائم في الخيال وقد كان هذا هو واقع الامة المغربية ايام الحماية ، فالكبير والصغير والمنعلم والجاهل وساكن المدينة او البادية كلهم كانوا يعيشون هذا الواقع المرير ويتجرعون غصصه ولا تطيب لهم حياة ولا ينعمون بصفو كلما اصبحوا وامسوا وهم يرون الاجنبى الدخيل يحكم بأمره ويسيطر على بلاد الآباء والاجداد .

وذلك هو ما عبر عنه عبد المجيد بن جلون في مجموعة قصص وادی الدماء وفي هذه القصة بالخصوص احسن تعبير . ان هؤلاء غتية في سن الشباب والمرح واللاجلالة . وقد خرجوا الى البادية في نزهة ربيعية ، قصد التمتع بجمال الطبيعة ومناظر الحقول الزاهية ، ولكن الوجود الاستعماري يلاحظهم فينمّص عليهم صفو نزهتهم ، ولا تلبث النزهة ان تنقلب الى اجتماع وطني يتضامن فيه ابناء الحاضرة مع ابناء البادية ويتبادلون الراى في هؤلاء المستعمرين الطفافة وسبيل التخلص من سيطرتهم الظالمة .

ويصف ابن جلون عجرفة جباة الضرائب الفرنسيين واستخدامهم للالهالى استخدام العبيد وتهور رئيسهم وحركاته الطائشة بما يعلمه كل مواطن شاهد الفرنسيين وثافتهم ايام حكمهم للبلاد وتمكن قدمهم فيها ويمر ريشته الفنية على المناظر والاجواء وبهى القارىء لاستقبال الاحداث والوقائع المهولة التى حدثت اثر الثورة النفسية العارمة التى اضرمتها في صدور اولئك الشبان ورفقائهم البدو ، تصرفات المستعمرين واعمالهم الجائرة ويعمل الخيال الواسع عمله في لباس الاوهام لباس الحقائق فيجمل الطبيعة تثور ثورة مدمرة ، كأنها تتجاوب مع نفوس اصحابنا المتلظية بالغيظ والالم ، ومن خلال البروق والرعود والامطار الطوفانية يرى الجماعة وادی الدماء الذى حدثهم عنه احد البدو وحكى لهم قصته ، فاغرا فاه لابتلاع الظلمة والمجرمين ملوحا بالآلاف الايدي ، ايدى الضحايا والمعتبين من سكانه ، لاختطاف المستعمرين والمستغلين . وهنا يصل العمل النفسى الى الذروة في الملاعة بين الواقع بما فيه من مرارة وثورة وحسرة ، والخيال الذى يحقق الاحلام ويشفى غلة النفوس الظالمة الى التنفى والانتقام وتتحل العقدة وتنتهى القصة نهاية رائعة .

ونسلا عن هذه الحبكة الفنية المتقنة فان في القصة ملامح من رمزية معبرة تمثل في اسم وادی الدماء الذى يراد به ارض المغرب ، والحاكم الظالم الذى يعنى هؤلاء الاجانب المسيطرين من رومان وبيزانطيين وغيرهم ، نقد هووا جميعا في وادی الدماء هذا الى القعر ، ولقوا مصرهم الذى هو مصر كل ظالم متعد ، فما بكتم السماء ولا الارض بل هدات ثورة الطبيعة وسكتت العاصفة ولم يبق منها (سوى برق ضامت ينير لهم الطريق الى وادی الدماء) ومما لا شك فيه ان الكاتب يرمز بهبوب العاصفة الى

ثورة الشعب ، وإن وقوع ذلك في البادية اشارة الى ممكن الثورة ، حيث ينوقع الخلاص على يد رجال القبائل الاشداء مساعير الحروب وابطال المعارك ، وقد حققت الكلمة وانتفض ابناء المغرب الاحرار ، حاضريين وبادين انتفاضتهم التاريخية التي امسكوا فيها بخناق الاستعمار حتى لفظ انفاسه وذهب الى غير رجعة .

تلك هي قصة وادي الدماء ، وذلك هو عمل عبد المجيد بن جلسون فيها . فلا غرو ان كانت هي اول قصة في المجموعة القصصية التي تحمل اسمها ، فالكتاب يقرأ من العنوان كما يقولون على ان بقية قصص المجموعة وهي عشر تحمل كلها هذا الطابع ، ولولا ضيق المقام واردة التنويع لما اكتفينا منها بهذا المثال فعطينا ان ننظر في عمل آخر لغيره من باب القصة الصغيرة ايضا . وليكن هو قصة خائية لا تمتلىء لاحمد بناني .

« قرب حلول فصل السواح واخذ تجار البضائع القديمة بسوتهم المعروفة بفاس يعدون عدتهم وينشرون كل صباح بضائعهم المختلفة على ابواب دكاكتهم وينسقونها تنسيقا بديعا محتفظين بها كساها من غبار ووسخ وصدأ ، لتستلفت انظار السواح المنتظرين . وذات صباح بينما هم منهمكون في عملهم هذا ، اذا بالشارع قذف باجنبي غريب البزة غريب المنظر تدل تامته الطويلة على انه من بلاد ناطحات السحاب ، يمشي الهوينا ويمعن النظر يمينا وشمالا تحسبه يطوف بمتحف عجائب الدنيا ، يلقي نظرات الاستعجاب والاستطلاع على الاشياء البسيطة العادية كانه في عالم لا قبل له به مما يدل على ان هذه رحلته الاولى في البلاد الشرقية التي يتخيلها الاوروبيون والامريكيون كلها اسرار وعجائب غرائب . فمثل هذا السائح ينتظره التجار بفارغ الصبر اذ مثله من يبذل الثمن الغالي في اقتناء البضائع البسيطة اذا قيل له ان عهدا يرجع الى قرون او انها تتصل بحادثة تاريخية او بحياة احد سلاطين المشرق فما ان وقع بصر التجار عليه حتى صار كل واحد يستدعيه لزيارة دكانه ويستهويه ويخاطبه بلغة تكاد تكون انجليزية . ويلبى الاميركاني دعوة الجميع فيدخل الى الدكاكين ويرى ما يعرضه عليه اصحابها من زرابي رثة واوانى من نحاس بالية واخرى من خزف مشقوق وبضائع من الجلد غريبة الشكل ناصعة الالوان ، فيبتسم

ابتنسامة الاستحسان ثم يخرج دفترا من جيبه ويكتب ما يكتب ويقوم منصرفا

ويأتى كل يوم فيزور الدكاكين ويقيد في دفتره ، والتجار مسنبشرون خيرا بذلك ، اذ لا محالة انه يقيد البضائع التى اسنهنونه ويقيد اثمانها حتى اذا استقر رايه وذوقه ، وقابل بين الاثمان واوشك على الرحيل اخذ البضائع وترك الدولار المنشود .

وتتوالى زياراته ولا يشتري شيئا ، فيخاف التجار ان يغادر المدينة قبل ان يبتاع منهم شيئا : فأتى بضاعة يا ترى تستهويه ؟ ربما لا تستهويه الا الاشياء النادرة العتيقة التى ليس لها ند ولا نظير ، وهل ذلك عسير على تجارنا الماهرين ؟ فما هذا الامريكاني اول سائح استعصى عليهم امره واسنفلق عليهم لغزه .

جاء يوما الامريكاني كعادته فدعاه احد التجار للجلوس وقال له عندي خانم ليس بخاتم الحكمة ولكنه لا يقل عنه قيمة فله قصة لو علمتها وعلمت طرافتها لبذلت المال فى سماعها قبل ان تبذله لاقتناء الخاتم نفسه ان هذا الخاتم كان لا يفارق اصبع السلطان الشهير المنصور السعدى ، ثم انتقل الى اصبع اعز جواريه ولهذا قصة غريبة . واغرب منها المغامرات التى ارتكبتها للحصول عليه ، وذلك فينصت الامريكى الى القصة ويبتسم ثم يقول ثانكيو وينصرف

وبلاحظ احد التجار ان هذا الامريكى لا يحمل دليل الطرق ولا آلة التصوير كعادة السواح بل هو يتابط دائما كتبنا واوراقنا . فربما كان مهتما بالشؤون الفكرية واخبار العلم والعلماء اكثر من اى شىء آخر فبستدعيه للجلوس ويقول له اتريد ان اتوجك لا بتاج الامراء والملوك ، ولكن بتاج العلم والعرفان ؟ هات راسك لاجعل عليه هذه القلنسوة ، انها ثقيلة انها وسخة ولكن لو علمت اى راس كانت تقيه لحدثت الله على هذه السعادة التى لم تتح لغيرك انها قلنسوة كانت لا تفارق راس المؤرخ الشهير ابن خلدون ، فبلىنى الامريكى نظرة على مرآة امامه فيرى كيف صار منظره مشوها غريبا فيبتسم ، وينزع القلنسوة المباركة من راسه ويردها لصاحبها ثم يقول ثانكيو وينصرف .

ولا يخرج الامريكى من الدكان حتى يناديه تاجر آخر فيجانبه اطراف الحديث ثم يقول له سمعت ولا شك بالخليفة هارون الرشيد ، اذ لا يذكر الشرق عندكم الا مقرونا باسمه ، فيبهز الامريكى راسه ويستمر التاجر فى حديثه — ترى كل هذه البضائع التى يفض بها دكانى ؟ انها لا تعدل قيمة هذه الجبة . ويجعل المفتاح فى صندوق كبير ويخرج منه جبة من الطيلسان ويقول نعم هذه جبة كان يرتديها ذلك الخليفة العباسى . فيلمسها الامريكى ويبدى حركة استحسان ثم يقول ثانكىو وينصرف .

وتمر ايام ويلتجئ التجار الى وسائل آخر ربما يكون لها التأثير القوى على الامريكى فتندى يده بالدولار فيدخله احد التجار الى قعر دكانه ويسر له فى افئه انى ساذهب بك الى مكان ترى فيه ما لا عين رأت ولكن لا اريد ان يراك الناس معى فأعرض نفسى للتهلكة فاتبعنى عن بعد فيقبل الامريكى ويخرجان فيقطعان الاسواق والشوارع ثم يصلان الى درب ضيق مظلم لا يسمع فيه الا هدير الماء ولا يترأى فيه الا لمعان اعين هرة سمعت بخطاهما فالتجأت الى زاوية « ويفتح التاجر بابا ويدخلان ثم يغلقة ويجتازان دهليزا فاذا هما بصحن فيفتح التاجر بيئا ثم يجعل المفتاح فى صندوق ويقول لو علم اهل الحى انى اتيت بك الى هنا لقتلونى وقتلوك معى . ان ما ستراه اعز تراث ورثته عن اجدادى الكرام وهو انفس ما يدخره مسلم . انظر ماذا ترى فى الصندوق ؟ لا ، لا تمسه ؟ لا تلوثه بيدك انه شئ مقدس . فيبعم الامريكى النظر طويلا ثم يرفع راسه واذا بالقرب منه سيف طويل علاه الصدا ، جعل فى اطار من زجاج تحوطه اروقة فاخرة . فيقف الامريكى منتصبا برهة من الزمان ، والتاجر بجانبه لا ينبسان ببنت شفة ثم يقول التاجر الآن علمت انك تقدر الاشياء النفيسة حق قدرها لو كنت تحسن العربية لقرات ما هو منقوش على هذا السيف وانكشف لك الامر فى الحين . فينظر الامريكى ويبعم النظر فيما يحوط به ويتناول القلم ويكتب فى دفتره ثم يقول ثانكىو وينصرف .

ان شان هذا الامريكى لغريب . فمن عادة الامريكانيين ان يذلوا عن سخاء لانتفاء سقط المتاع وابخس البضائع البلدية ، وهو يرى الاشياء الغريبة النفيسة النادرة فلا يمد يده الى جيبه ، لقد عرض عليه ناجر

مفاتيح غريبة ما رآها ولا سمع بها أحد ، وهى مفاتيح دار أجداده بالاندلس . فلقت نظره وأمن فيها البصر وفحصها فحسا دقيقا ثم قيد ما قيد فى دفتره ولكن لم يزد على أن ابتم وقال ثاتيكو

وصباح يوم اشترى أحد اولئك التجار جريدة سيارة ليرى هل تبشر بقرب مجيء باخرة سواح واذا به يقرأ ويمعن فى القراءة ويضحك ويسفرق فى الضحك ثم ينادى زملاءه فيلتفتون حوله ويقول لهم اريحوا انفسكم اذ يستطيع كل واحد منا ان يخترع ويضيف اغرب الاشياء وابعدها عن الحقيقة لتستوى السواح ولكن لا نستطيع ولو اجتمعنا كلنا ان نخترع او نضيف ما يسمى اليه صاحبنا الأمريكى اذ هذه الجريدة تقول انه يبحث عن جزيرة ، نعم جزيرة انظروا فيتناولون الجريدة فاذا هى مصدره بمقال طويل متوح بصورة ذلك السائح الغربى ، جاء فيه ان هذا الأمريكى هو العالم المشهور طوماس العنقو للمجمع العلمى بأمريكا قدم للغرب مبعوثا من قبل جمعية الابحاث التاريخية والاجتماعية المتقدمة بعصور البشرية الاولى ليقوم بالبحث عن الالتظيد وهى الجزيرة التى يعدها العلماء والفلاسفة فردوسا مفتوقدا . والى الآن لم يهتد أحد الى تحقيق موقعها وغاية علمهم عنها ان الحكيم افلاطون ذكرها فى أحد كتبه ووصفها بما توصف به جنات الآخرة من هناء وسعادة وبذخ وتعيم مع تحقيقات جغرافية وتاريخية مما يدل على أن هذه الجزيرة ليست من وحي الخيال بل كان لها وجود ثابت لا شك فى ذلك ولا مرأى الا ان الأرض طوتها أو غمرها البحر ، فجريرة مثل هذه تشناق اليها نفوس العلماء والفلاسفة ويودون لو يهتدون الى موقعها لا ليتسبعوا بنعيمها اذ هى ولا شك عفتها ابدى الايام ولكن ليؤمنوا انه كان قبل هذه المدنيات المعروفة مدنية أخرى نبيئح لهم المجال لبحاث علمية قد يكون لها الشأن الخطير فى تاريخ الفكر البشرى ولذلك فمزد ذكرها افلاطون وهى موضع اهتمام العلماء والباحثين والمتفنيين والشعراء حتى علماء السحر والروحانيات ، ونيفت الكتب التى الفت حولها على الفين ولكن بدون جدوى ، وفى كل عصر من العصور يكثر الكلام حول هذه الجزيرة ويظن الناس ان المشكلة كادت تنحل

وفى المدة الاخيرة حظيت هذه المسألة بعناية خاصة من المجمع العلمى

الامريكي اذ حاضـر احد اعضاء هذا المجمع رصفاءه ببحث كان له رنين في
الايوساط العلمية ذكر فيه ان الاتلنطيد يمكن الاهتداء اليها بوسيلة غير
مباشرة ربما كانت اجدى واتفق من ابحاث الجغرافيين والمؤرخين . وذلك ان
سكان الاتلنطيد كان من عادتهم ان يجعلوا الحمقى بمارستات بظلمون
سحابة اليوم كله يملأون خوابى مثقوبة مكلما وضعوا فيها الماء من اعلى
سالت من اسفل ، فيظلون يملأونها وهى لا تمتلئ فيكون لهم في ذلك ما
يشغلهم عن ارتكاب افعال الحمقى ، ثم ذكر المحاضر ان علماء الاخلاق
والعادات كانوا يظنون ان هذه العادة انقضت لانهم ما وقعوا عليها عند
امة من الامم او سمعوا عنها في قطر من الاقطار : ولقد وقف هو عليها
اخيرا في كتاب الف عن المغرب حديثا ذكر صاحبه ان بمارستان سيدى
فرج بفاس خابية مثقوبة يلزم الحمقى بملئها دوما واستمرارا من دون ان
يهتدوا الى الخرق الذى بها ومن احدث الى ذلك يوما واشتكى ، استدلوا
به على انه عاد الى رشده فيطلق سراحه ، وختم العضو حديثه ملفقا نظر
زملائه الى اهمية هذا الاكتشاف البسيط في حد ذاته العظيم لما ربما سينتج
عنه ، لا سيما وبين الاحتمالات القوية ان بتايا الاتلنطيد هى الجزر
الخالدة التى على مقربة من شواطئ المغرب

وقد كان لهذا الحديث وقع عظيم في نفوس اعضاء المجمع ولاحق
لهم بارقة امل فاشترقت وجوههم المتجمعة ، فتداولوا بينهم طويلا ثم
اجتمعوا رايهم على ان يكلف صاحب البحث بشد الرحلة للمغرب ، هذا
البلد الغريب الذى لا زال به حمقى يملأون الخابية التى لا تمتلئ كما كان
يفعل ذلك حمقى سكان الاتلنطيد منذ عدة قرون

كان هذا سبب مجيء العالم طوماس لفاس مكان كما راينا يمر كل
يوم بسوق البضائع القديمة في طريقه الى المارستان . يظل سحابة اليوم
يبحث وينقب وينابل بين ما هو مسطر في المؤلفات التى يحملها معه وبين
ما هو معد للحمقى من سلاسل وعصى من كلخ وخوابى مثقوبة . ويقف
الساعات الطويلة مفكرا مشدوها امام الخابية التى لا تمتلئ ينكب عليها
طويلا ثم ينتصب واقفا وينظر اليها تارة من قريب وتارة من بعيد . ويلقى
عليها تارة نظرة الفنان المستوحى الهامه وتارة نظرة الفيلسوف الهائم في

عالم التدقيق والتحليل والمقابلة والاستنتاج وقد لا تكنيه رؤية العين المجردة فيتوج انه بنظارات ضخمة تكسبه غطسة العلم وطفينان المرمان .

وقد كان مقدم المارستان يصده عن الاثتراب من الحمقى خوفا من ان يلحقه سوء منهم ولكن الحمقى مع مرور الايام الفوه والفهم فصار يظل بينهم آمنا مطمئنا وكان طوماس اذا رجع الى الفندق الذى ياوى اليه سهر الليالى يسود الصحف ليواصل المجمع العلمى الامريكى بمذكرات تلغرافية يحررها فى لغة رمزية حتى لا يفهم احد غير اعضاء المجمع هذه الابحاث القيمة التى ترمى الى اكتشاف الجزيرة الضائعة

وفى كل يوم كانت ترد على طوماس البرقيات والرسائل العديدة من الجرائد الكبرى ودور السينما بأمريكا يلتمس منه اصحابها ان يوترهم بباكورة اكتشافه ذاكرين انهم رهن اشارته ليرسلوا اليه مبعونا خاصا من امريكا ليتلقى منه نصريحا او يلتقط صور الناحية التى كان اهل الانتطيد يعيشون فيها والى ذلك فان الجرائد بأمريكا كانت تشعر من حين لآخر ان العالم يتمخض عن اكتشاف خطير مثيرة بذلك الى نتيجة البحث الذى يقوم به طوماس

ومرت ايام فاذا مذكرات طوماس تنقطع عن المجمع فيننظر الاعضاء ويطول انتظارهم فيبرقون لطوماس فلا يجيب . ثم يبرقون لامريكى شهر بالمغرب يلتمسون منه ان يخبرهم عن طوماس فيبحث عنه فى الفندق وفى الاسواق فلا يجده فيذهب الى المارستان ومنه يتوجه توا الى مكتب البريد ليرسل للمجمع العلمى الامريكى البرقية الآتية : بحثت عن العالم طوماس بهارستان سيدى فرج بغاس فالفيتة منهمكا بين الحمقى يملأ الخابية التى لا تملىء .

فى هذه القصة تتبين مقدرة احمد بنانى على الوصف والحكاية ، فهو يسنوعب الشاذة والفاذة مما يقع تحت البصر او يخطر بالبال ، فى رسم لوحاته والتحدث عن اشخاصه . وينظر ويمعن النظر — على حد تعبيره — حتى لا يبتى محل للملاحظة او ما يستدعى الاهتمام فالميزة

الاولى لفنه هى هذه الحاسة المتيظة التى يتعاون فيها عمق الشعور ودقة التسجيل ، على اعطائنا صورة متكاملة لما يعرضه من نماذج بشرية وعوالم محيطة بها . ومن ثم فهو يستهدف ان يرضى الفن اكثر من أى شىء آخر . فلا تبحث فى ادبه عن التزام ، ولا تتأثر خطاه ناشدا تجربة واقعية او حدثا ملهما . انه ينظر للحياة من زاوية اخرى ، حيث يستكشف ما فيها من عبث او سخرية وتظاهر كاذب بالجد وامعان فى النفاق . فلا ينكر ان يصلح الفساد او يقيم الانحراف ، وانما يكون همه ان يصدق التعبير عما رآه ولو بتجسيم الوقائع لتبدو كما تصورها هو ، وان ينقل قارئه الى الجو الذى عاش فيه التجربة ليمتعه ولو برهة من الزمن بما رأى وما سمع ، ضاربا فى ابعاد الرؤية والسماع الى الحدود التى تنتهى اليه عنده . واذا لم يكنه التصوير ليؤدى كل ما يحسه فانه يعمد الى استغلال المواقف واستنطاق الاحداث ، حاضرة وماضية . وفى المعطيات الفنية التى يستخلصها منها ما يجعل عمله يبلغ مدى التأثير والاعجاب .

واحمد بنانى بنظرته الخاصة للحياة يكسو فنه نسج رقيق من السخرية والاستخفاف بكثير من الموضعات الاجتماعية . فهو من هذه الناحية يعتبر ناقدا للمجتمع ، ولكنه كما قلنا لا يهيم ان يراجع المجتمع اخطاءه بل لعله يبررها ويلتمس لها المخرج والعلل . الا تراه يقابل ما بين البيئة المغربية ، وخاصة فى فاس العاصمة العلمية للمغرب ، ممثلة فى طبقة تجار العاديات منها ، والبيئة فى اوروبا وامريكا مبعث الاشعاع الحضارى والتقدم العلمى ممثلة فى طبقات السياح ، وما ينطوى عليه كل فريق من نقائص وعيوب ؟ فهو يقول بلسان الحال ان هذه هى الحياة، وهؤلاء هم البشر ، والندجيل كثير ، وليس من دجل بهمة كمن دجل بعلم .

والمعدة عند احمد بنانى انما تأتى فى المقام الثانى من الاعتبار ، بعد الحكمة الفنية . ولذلك فانا نراها قلقة فى يده تهم بالانفلات منه ولكنه يداريها جهد ما تكون المداراة ، حتى يضلل القارئ ثم يطها فجأة من حيث لا يكون الحل متوقعا . وهذا امر واضح فى هذه القصة . وفى قصص اخرى له يكاد لا يستمسك له امرها فتخرج القصة فى شكل صورة ، هى وان لم تفقد عنصر التشويق فانها لم تستكمل شروط القصة على ان فن الوصف

الذى هو عمدة اعماله انما ينبثق من ناحية الفكر والملاحظة لا من جهة البيان واسلوب التعبير ، ولذلك فان سحر الكلمة بل وصحتها ينقصانه احيانا .

ولنورد الآن مثالا للمرحية تنميها للبحث ، ويضطرنا ضيق المقام للاقتصار على نموذج واحد ، وهو لعبد القادر المقدم بعنوان دقائق الساعة ، ويتضمن حوارا بين فتاة واخيها في حديقة منزلهما ذات صباح باكرا ، وساعة كبيرة في المنزل تسمع حركتها :

هى — الا تزال نعتزم تلبية الدعوة ؟

هو — (يفكر قليلا ثم يجيب) لا مانع من ذلك

هى — ولكنى اراك في هذا الصباح على خلاف العادة التى عهدك عليها في سائر الايام

هو — (متسائلا) اى عادة ؟

هى — ان تبادر الى حماماتك تنثر لها نصيبا من الحبوب منتظاير من حواليك ترتل تحيات الصباح في وداعتها المحبوبة ، حتى اذا ما افنت لها في التحديق حومت فوق اشجار الحديقة ثم سبحت في نضاء الرياض المجاورة لضيعتنا وكم يطول الى ان اترقب هذه الساعة المبكرة لاشهد هذا المنظر الرائع الذى يسوده جو من الانسجام والتفاهم بين انسان رقيق وطيور مجنحة بشوثة عطوفة

هو — آه .. لا تتغير عادة المرء الا اذا طرا عليها امر ذو بال و

هى — (تقاطعه) وهل حدث لك مثل هذا وانت لم تغادر المنزل بعد ؟

هو — (يتوقف عن الجواب لحظة ثم يقول) على كل حال لست خالى البال كما عهدتني قبل اليوم

هى — وهل الامر من الخطورة بحيث تحتفظ بسرك ؟

هو — هو كذلك

هى — ولو كنت شقيقتك المخلصة

هو — ليست المسألة مسألة اخلاص او

هى — (تقاطعه) او خيانة .

هو — (فى صلابة) لا ، لا

هى — انت وما بدا لك .

هو — ومن اللائق ان لا تنسائى مع الظنون ، غير انى استطيع
ان اطمنك بانى لن اقدم على مغامرة حرما على سلامتى

هى — وحياتك ؟

هو — ما شأنها ؟

هى — هل تعتزم مقاطعتها منذ اليوم ؟

هو — ساحاول تلقينها عادة جديدة

هى — وكيف ذلك ؟

هو — اذا دقت ساعة اللقاء ولم يتم فانها ستطلق وتطلق ثم تنطلق
سباحة حرة طليقة وبهذا تكتسب عادة جديدة

هى — (تتوقف عن الكلام لحظة ثم تصيح) ها هى ، ها هى نحوم
حول المكان باحثة عنك ، انظر اليها (تصفق الحمامات
باجنحتها وهى تهدل هديلا)

هو — ولكنى آخذ فى تنفيذ ما قررت .

هى — انها فى انتظار دقائق الساعة ، فى انتظار لحظة اللقاء ، فهى
على ما يظهر تفهم معنى الزمان وتحافظ على الموعد

هو — جربى منذ اليوم ان تحولى دون سماعها دقائق الساعة .

هى — لا يستطيع مخلوق ان يوقف بهر الزمان .

هو — انت محقة فيما تقولين انا شخصا اصر بديب الزمان
بتمشى في كيانى ، واكون احيانا في غمرات الانشراح واصمر
بعقرب الزمان تلثمهم ساعتى الهنيئة فلا البث ان اشرف
على نهايتها وهى سريعة الانتضاء

هى — ان دقائق الساعة تهدد كل شىء بالانتهاء واشد الناس
اشفاقا منها على ما اظن اولئك الذين يحسبون للزمان
حسابه ويقدرّون العواقب حق قدرها .

هو — اخشى ان تدق الساعة قبل ان اناهب للموعد المقرب
هى — ومتى هو .

هو — قريب ، قريب جدا

هى — الا تلبس بذلك الجديدة اذا كان لذلك موجب ؟

هو — ارجو ان تعدى لى الحقيقة واجعلى فيها البذلة وبعض
الاقمصه وما يليق بها من اربطة الرقبة واحرصى على ان
تستمر حالة الببت طبيعية من غير ان يطرا عليها ما
يشوش بالى

هى — اذن انت على اهبة السفر ؟

هو — ان شاء الله .

هى — لم تحسن مفاجأتى في هذه المرة

هو — يبدو انك تمانعين في سفرى وهذا ما توقعته سلفا ولا
احسبك الا مشجعتى على طلبية الدعوة اليس كذلك ؟

هى — بلى ، انى فاعلة ذلك اذا كان للدعوة موجب ، وقد يهون
على الامر اذا كان هذا الموجب مشرعا والا كان عبئا واغفر
لى هذا التدخل فانما اريد تبصرتك بالعاقبة وليس من اللباقة
ان الفتك مبلدىء الجبن ولكن الوقت يتطلب من المرء ان
يتزن في خطاه والا ييرم ما يعسر نقضه عند اللزوم

هو — قبيل دقائق الساعة اعلن لك سرى ، واود ان اوصيك خيرا
بنفسك اولاً ثم بالبيت ثانياً ابذلى تصارى جهك فى ان
تعطى لحمايتنا فرصة كى تكسب عادة التحلىق فى الفضاء،
ولا تدخرى وسعاً فى ان تحولى دون سماعها دقائق الساعة
فانها تذكرها لحظة اللقاء حتى لا ترسل هديلها حنيناً
والتياعا

هى — وهل تلومها اذا فعلت ؟

هو — اخشى ان يتسرب الى قلبى ذلك فتخور عزيمتى فيما انا
ماضى اليه ، وانت ادرى بعواقب الخور فى ميدان الواجب .

هى — اذا ابيت الا ان اعمل فما يمتنعنى شئ واحد وهو عجزى
عن ايقاف عجلة الزمان عن المضى فى سبيلها . مهت . . ؟

هو — نعم ، نعم ، (فى حنان) شجعينى ما استطعت الى ذلك سبيلاً
هى — وهل ترى ان واجبى يقف عند هذا الحد .

هو — كل له واجب ينتظره ، فليترث حتى تدق ساعته كما
تستمعين عما تريب دقائق ساعة واجبى انا .

هى — (تضع يدها على قلبها متأثرة من الموقف) لم اعتد قبل
قبل اليوم ان اجزع لدقائق الساعة . قلبى يخفق خفتاناً
انها لحظة رهية . ولعل للحديث الذى دار بيننا فى موضوع
الزمان والساعة اثراً فى هذا الجزع . ولكن لا مناص من
التسجيع .

هو — وهذا قلبى بدوره يختلج فى صدرى اختلاجاً شديداً ، ارجوك
الا تستمرى فى الحديث عن الساعة (فترة صمت — تسمع
حركة عقرب الساعة)

هى — انها تقترب (فى نائز) الا نبوح لى بسرك قبيل الساعة ؟
الى اين ، الى اين ؟

هو — الى تلبية الواجب . . الواجب المشرب — الى التعبنة

العامة الى نصره الحق (دقات الساعة)

هما معا — دقت الساعة ، دقت الساعة (الحمام يرغرف باجنحته ويرسل هديلا مؤثرا مشجيا) .

هى — الى اللقاء يا ماحى (اسم الفتى) الى اللقاء هنا او هناك !
هو — الى اللقاء يازكية ، الى اللقاء القريب ان شاء الله (محرك السيارة) .

فى هذا النموذج الصغير اكثر من دلالة على اتجاه المسرح المغربى والادب الذى ينشأ فى ظلاله فالروح العامة التى تهيم عليه هى البساطة فى الاخراج والاداء . ولم يكن بد لمسرح ناشئ غير ذى تقاليد معروفة ان يتجنب الاساليب المعقدة والدروب الملتوية للظهور بالمظهر الباعث على الاحترام واللائق بالرسالة المقدسة التى يحملها وليس المراد بالبساطة هنا السطحية بل عدم التكلف . فالمنظر كما فى النموذج عادى . منزل يتع وسط حديقة وبجانبه حظيرة حمام . والحوار يجرى بكيفية طبيعية بين شاب تعرب اقواله عن حاله الذى كان الى العتب اقرب منه الى الجد ، ولكنه بدا يفكر فى واجبه كمواطن صالح ، وبين شقيقة له تحبته بمطنها وتتمنى له النجاح فى مستقبله الزاهر ، اما هذا الحوار تتخلله افكار ومعان فيها لمحات فلسفية وانسانية وهو على هدونه يمجر عن صراع فى نفس الشاب بين الحق والباطل انتهى بالاستجابة لنداء الضمير والاقصر عن سلوك سبيل الفى . فلم يخل من تأمل يبعد به عن السطحية ويجعله يتعمق فهم الحياة ولو بلمسات خفيفة .

ثم الغاية من كل ذلك هى التجنيد ، تجنيد الادب ولا سيما المسرحى منه لخدمة الاهداف القومية فالمسرح المغربى اصلا لم ينشأ الا لهذه الغاية ، والادب الذى ينجز من اجله لا بد ان يسير فى طريقه ، ولذلك نرى المسرحية مجندة للدعوة الى التعبئة العامة . انها مسرحية صغيرة من فصل واحد قصير ولكنها مع ذلك تحتوى على لمن وترمى الى هدف . وما

احسن ما وقع التعبير عن عبث الشاب في اول المسرحية باشتغاله بتطير الحمام ، وتحوير ذلك التعبير نفسه في آخرها بحيث صار رمزا الى سلام الاسرة واستقبال حياة جديدة ملؤها الجد والنشاط .

ونظن اننا لسنا في حاجة الى التنويه بلغة الحوار وسلامتها من المآخذ بل هي لخفتها مما زاد في قيمة هذه المسرحية الصغيرة الخطوة .

الشعر واتجاهاته الجديدة

لعل الشعر ، وهو اشد الفنون الادبية تقيدا بالماثورات والمساطر ، اكثرها خضوعا للتجديد والتطور . وذلك من اجل انه كلما ثقلت شروط العمل ، اى عمل كان ، كلما حاول العاملون التخفيف منها . ويصدق ذلك فى الاعمال الادبية كما يصدق فى الاعمال المادية ، وفى الشعر بالذات كان التحول الذى طرأ على المادة الشعرية اعنى الافكار والموضوعات لاول ما ظهر الاسلام ، عاما شاملا بحيث انه ما اظل العصر العباسى حتى صرنا نرى شاعرا مثل ابي نواس يقول فى مطلع احدى قصائده مستخفا بادب القدماء (صفة الطلول بلاغة القدم ...) .

وكان اختراع الموشحات فى الاندلس مظهرا آخر من مظاهر التجديد والتطور للشعر ، استهدف تحويره من ناحية الشكل والبناء ، فالفى شرط التزام القافية الواحدة فى القصيدة التى اصبحت تسمى موشحا ، وجوز ان يلتقى فيها بحران من بحور الشعر بدون أن يدل ذلك على عجز او تلفيق ، بل انه كان اكثر انسجاما مع الطبيعة الغنائية للشعر ، لاستجابته للانغام الموسيقية التى تتبدل بحسب مقتضيات الفن آونة بعد اخرى

وقامت النهضة الحديثة فهزت الشعر هذا عنيفا تناول بتيانه من القاعدة ، فكان الشعر الحر والشعر المنثور فضلا عن اندفاع الشعراء فى العمل بمنتهى الحرية طبق المخطط الذى وضعه الاتدلسيون من نظم قصائدهم على اكثر من بحر وبمختلف القوافى . هذا فى القالب ، وفى المحتوى ظهرت فنون من القول وصور من البيان لم يكن للشعر العربى بها عهد كالشعر القصصى والتمثلى ، وامتد النفس فى وصف الطبيعة والتعبير عن ادق المشاعر الانسانية والعواطف القلبية ، واختفت الموضوعات الشعرية القديمة او كادت وما بقى منها لانتضاء المناسبات

الاجتماعية بقاءه ، صار وسيلة لبث الافكار الإصلاحية وبعث الروح الوطنية . ومن ثم وجد هذا الباب الجديد من الشعر القومى أو الوطنى الذى خلف باب الحماسة فى الشعر العربى القديم والذى قلنا عنه سابقا انه طفى على جميع الاغراض الشعرية فى هذا الجيل حتى كاد يكون هو الشعر كله

ولم تكن هذه الظاهرة خاصة بمشرق أو مغرب بل انها وسائر الظواهر التى قبلها مما برز بروزا واضحا فى شعر المشاركة والمغاربة على السواء . فلننظر فى حظ الشعر المغربى منها جميعا اذ كان هو الذى بهما فى هذه الاحاديث

ونبدأ بما تفتقت عنه القريحة المغربية اولا من الشعر الوطنى ، وهو هذه الاناشيد التى كانت تغذى الفكرة الوطنية عند التلميذ فى المدرسة ، والشاب فى العمل والمتجر والحقل ، والمواطنين عموما على اختلاف طبقاتهم ومهنهم فنجدهم يرددونها فى كل مكان وفى كل احتفال ولو انه احتفال عائلى بانغام موسيقية حماسية كانهم الجند يتأهبون لخوض معركة حربية . ولعل اول نشيد من هذا القبيل هو نشيد للمكى الناصرى يقول فيه :

نؤادى الى وطنى قد صبا تعشقت من ذ طور الصبا
ودينى فى حبه رغبا يا وطنى منك لن أرغبا
ويا وطنى لا تخف انى امين واخلف وعدك انى امين
كليل بنيل منك ضمن

ثم نشيد لعلال الفلى يحى فيه الملك والعرش وهو :

يا ملوك المغرب يا ابن عدنان الابى
نحن جند للفدا تحمى هذا الملك
عرش مجيد خالد ماجد عن ماجد
قد بناه الاولون فى ثموخ الفلك .. الخ

انهما نشيدان يعبران عن الاتجاه الذى سار فيه الشعر الوطنى منذ

ظهوره بالمغرب ، وهو التفتى بحب الوطن والدعوة الى خدمة قضيتيه
ورفع شأنه بين البلاد ، مع تجيد العرش والجالس عليه والاعتزاز بهما
باعتبارهما مظهر السيادة الوطنية ورمز الوحدة المغربية وللسيد علال
في هذا الصدد ، كما لغيره ، اناشيد عديدة جرت على كل لسان . فمنها له
نشيد يقول في اوله :

كلنا من عربى	خالص أو بربرى
قد تعلقنا بعرش علوى	واعتصمنا بلوائيه
كلنا في سره أو جهره	هاتف بحيا
من عطفه نرجو	رفعة المغرب
من اجله ندعو	ايها السلطان

عش

ومنها نشيد طويل للحاج محمد بنونة اوله :

ايها الشعب تقدم	للعلى خلف الامام
مخرنا تاج المعالى	عزنا شبل الكرام

وأخر لحمد بن الرضى منه :

يا صاحب الصولة والصولجان	نل بالملك وعش في امان
محطنا من عاديات الزمان	في ظل خفاقين ، أحمر قان
وقلب شعب دائم الخفقان	من حبه المشفوع بالتوقان

لصاحب الصولة والصولجان

ان التجاوب بين الشعب والعرش وتضامن الملك مع الوطنية كانا
اساس العمل لتحرير البلاد من قبضة الاستعمار وذلك هو سر نجاح القضية
المغربية ذلك النجاح الباهر الذى قضى على كل أمل للمستعمر الماكر في
استغلال وسائل الدس العديدة التى اتخذها للتفرقة بين الامة وعاهلها
الكريم ، ولذلك كثر الضرب على هذا الوتر في هذه الاناشيد ، كما أن محاولة
المستعمر للتفرقة بين العنصرين البربرى والعربى جعلت من وكذ الوطنية
العمل على توحيدهما والتقريب بينهما وهى ظاهرة تشبه ما وقع في الشرق

العربى من التأليف بين المسلمين والمسيحيين والقضاء على جميع اسباب
الخلاف بينها لمواجهة العدو الدخيل بكلمة موحدة وصفوف متراسة ،
ولهذا نرى كلمة عربى وبربرى تردد فى بعض الاناشيد كنشيد (كلنا من
عربى خالص او بربرى) المار آنفا لعلال الفاسى وكهذا النشيد الآخر
له ايضا :

صوت ينادى المغربى	من مازغ ليغرب
يحدو شباب المغرب	للذود عن حوض الوطن
لبيك يا صوت الجدود	انا لشعبنا جنود
كل يرى حفظ المهود	والموت من دون الوطن
انا شباب الامة	منا حراس الوحدة
نحمى كيان الملة	من كيد اعداء الوطن
لا نرتضى بالتفرقه	ولو طلوننا المشنقة
ولو غدت ممزقة	اثلاؤنا فدا الوطن

والاناشيد كثيرة يطول تتبعها لا سيما وقد اصبح لكل هيئة سياسية
ومنظمة طلابية او رياضية نشيد يخصها وكلها تدور فى هذا الفلك ، فلنكتف
بما ذكرناه منها ولنستعرض بعض النماذج الاخرى من الشعر الوطنى
غير الاناشيد انه اذا كان الشعر ديوان العرب فى القديم ، فان هذا اللون
منه احرى ان يكون اليوم ديوان الحركات التحريرية التى نشأت فى العالم
العربى منذ النهضة الحديثة فهو يمثل تطورها من شعور بالفضاضة
لمسطرة الاجنبى وتحكمه فى البلاد والعباد ، الى دعوة للمقاومة والتسلح
المادى والمعنوى لاجياء المجد الدائر ، ومجaraة الامم الناهضة فى الاخذ
باسباب الرقى والتقدم ، الى الثورة الدامية التى تحقق للشعب مطامحه
العليا فى الحرية والاستقلال من الطريق الطبيعى الذى لا يتوصل الى تلك
المطامح الا منه ، وبين هذه المراحل مقامات للذكرى والاعتبار والاشادة
بجهود العاملين وتسجيل الخطوات التى قطعتها الحركة الوطنية فى مجالات
الكماح من اجل غاياتها النبيلة ، كان الشعر الوطنى يبدى فيها ويعيد ،
ويقوم الدنيا ويقعدها بما له من تأثير على النفوس وتكيف للمشاعر وفق
رغبات الامة وضد تصرفات المستعمر الدخيل والادب العربى ان كان

قد سجل في تاريخه الحنيل صرخات شوقى وحافظ ومطران والرصاف
والزهاوى وشكيب ارسلان واضرابهم من رواد الشعر الوطنى فى القطاع
الشرقى للوطن العربى فقد بقى عليه ان يسجل الصرخات المائلة التى
اطلقها زملاؤهم فى القطاع الغربى . وبعضها هو ما نثبته هنا خاصا
بادباء المغرب .

يقول المهدي الحجوى معلنا ثورته على حياة الذل والاستعباد :
حرام على الحر الخضوع الى الرق حرام وارض الله واسعة الطرق
حرام على نفس الابى مثلة وفى الذل موت للشهامة والخلق

ويقول محمد الجندى بصف ما فعله العدو المخير بالبلاد :

عن يمينى وعن شمالى قيود	وامامى جيل معنى شريد
ينلاشى مع الزمان ويغشى	ويمانى ما لا يعانى العبيد
ضرب السد حوله ورماء	بسهام الردى رقيب عتيد
فكأن البنين سرب ضحايا	والفراعين للوجود تعود
وكان المغير امضى عقودا	مع هذا الزمان ليست تبعد
وكان الثياب منا هباء	ونفوس الاحرار شيء زهيد
وكان الحياة حق لقوم	دون قوم والعيش عبث رغيد

ويقول المختار السوسى مشفقا من سوء المصير الذى آل اليه الشعب
بعد ماضيهِ المجيد :

حتى متى شعبى يعبد الجهل	كان لم يكن قطب السيادة من قبل
كان لم يكن بين الشعوب محكما	اذا قال جنى الرأس من راسه يطلو
كان لم يكن فينا المرابطى الذى	به تم الاستعلاء للشعب والطول
وابناء عبد المؤمن الطالعون فى	سما الارك شوسا لا ينهنهم حول
وابناء يعقوب الرينى من بنوا	لنا واشادوا ما به يمحي الجهل
كان لم يكن فينا اقتدار ونظرة	مسددة ترمى الصعاب لتفتحل
واى نفوذ فى اختراع تمدين	يدعنه الدين المطهر والمعدل
وحزم وعزم واقتحام معامع	يمهدا اللدن الملقف والنصل

يقول لسان العلم من قوله الفصل
فكم لوعة تذكو وكم زفرة تعلق
عليه ويستذرى الدموع فتنهل
قيامة شعبي فالحلاك ولا الذل
وقد ساء محياه وقد طفع الكيل
لملايين سبعا لا شعور ولا عقل

أجل ، اننا كنا وكنا وهكذا
ولكن اذا القيت يومك نظرة
تشاهد ما يرفض قلبك حسرة
لنسقط على الارض السماوات ولتقم
فقد ضاق بالشعب الجهول خناق
فهلك بريح البال اولى من ان ترى

والمرخات من هذا القليل كثيرة ، وكلها تفيض لوعة واسى وتتحرق
حزنا وجوى على عثرة الجد بالبلاد وخيانة الحظ لها بعد حياة المجد والعظمة
التي عرفتھا زمانا طويلا ، ولكن الشعر الوطنى لم يقتصر على هذا الموقف
السلبى من البكاء والرثاء وانما جند نفسه بالدعوة الى العمل لانتشال
الامة من وهدة السقوط واحلالها محل العزة والكرامة اللانق بها ، وكذلك
نلتقى معه فى صور اخرى من الغيرة الفعلية والحماس البناء . فهذا المهدي
الحجوى يقول مغريا بأسباب النهضة :

ونحسب العلم فى الافرنج محصورا
وغيرنا يطلب الدستور والشورى
تتضى على كل من قدبات مفرورا
للمجد صرحا بعلم كان منشورا
اقصى البلاد بسيف كان منصورا

الى متى نترك التعليم مهجورا
الى متى نستلذ النوم واحزنى
متى نفيق وعين الدهر شاخصة
هبو الى المجد يا ابناء من رفعا
هبو الى المجد يا ابناء من حكموا

ويقول المكى الناصرى مهييا بشباب الامة للعمل الجدى والسعى المفيد :

حق بقدسه الاله
على قداستها جناه
من بينكم قوم بناه
فيكم مغاوير اباه
منكم اطباء اساه
سر بنى البلاد لها حماه
شبانها كيف الحياه
بل ليس من نخر سواه
لو لم يحل سيل الطغاه

حق البلاد على بنيتها
حتى متى وبنو البلاد
مجد تهدم هل له
عز تحطم هل له
داء تقاتم هل له
الخطب جل وليس غدا
احبوا البلاد وعلموا
هذا الشباب ذخيرة
كم كان يمضى مسرعا

مدوا الشباب نفوا به	لا خوف ان سرهم وراء
يا ايها الشبان —	سيروا انكم جند النجاة
سيروا امام الشعب حذ	سى تبلغوه ذرى علاه
ضحوا بكل جهودكم	حتى يرى فيكم مناه
لا تياسوا او تسفروا	حوا واذكروا ابدا رجاء
لا تحسبوا شعبا يمو	ت اذا غفا فيه انتباه
ان النفوس كمينه	فيها جراثيم الحياه

ويقول عبد الكريم مكيرج منددا بحياة التواكل والخمول :

ما بال قومي لم ينهض بهم عمل	والناس كلهم بالعلم قد عملوا
تقاعدوا عن فنون نال غيرهم	تحصيلها وهم عن نفعها غفلوا
لكن رايتهم وفي نحورهم	كم سبحة وهم بسردها اشتغلوا
هذا له خلوة وذا بجلوته	وذا بزوايه اخرى له خول
ما في الزوايا خبايا بينهم وجدت	بل في الزوايا رزايا عند من عقلوا
تكاثر في نواحي القطروا انتشرت	على اختلاف شيوخ عندهم وصلوا
من كل ضامن اسرار لتابعه	وكل فتح وانوار لها انتحلوا
لا، لا اوضح ما سئوا وما افترضوا	من بعدما اتضحت بالمصطفى السبل
فليتهم شيدوا مدارس بدل	من الزوايا وقالوا علموا وسلوا
فالعلم اجمل وصف الشخص في زمن	به تبصر دون قومي الدول

انها نداءات منبعثة من ضمائر حية وقلوب واعية تناشد الشعب ان يهب من سباته الطويل وينبذ الخمول والكسل ولا ينتاد للمشعوزين والمظللين الذين يهيم ان يبقى على ما هو عليه من الذل والخنوع ، لبقاء استغلالهم له وتسخيرهم لمنافعهم الشخصية وتدعوه لمؤازرة شبابه الناهض والمحل معه يدا في يد لاسترداد مجد البلاد الضائع والسر بها في طريق النجاح والتقدم حتى تلحق بركب الحضارة وتقف في مصاف الشعوب الراقية . وان كانت هذه الطريقة طويلة وشاقة عند من يريد طي المراحل ويستعجل الظفر بالنتيجة المرغوبة من حصول الامة على حريتها واستقلالها وتقريرها بنفسها امر مصيرها فنراه يدعو الى الثورة الدامية والوقتوف في وجه المستعمر الغاشم وتحدى سلطته والاستخفاف بقوته ، وهو لون آخر من الشمر الوطني كان مما اذكى عزيمة الشعب وبعث حميته حتى خاض

مشارك الفداء وحرب التحرير . ومن صوره قول عبد القادر حسن :

لکم ان ظلمتم ان تسروا وتکتبوا عظیما فان الصبر للذل اعظم امر من الضغط الذی يتوهم وعسف، ومن ذا یرتضی الذل منکم فان غار عاش الدهر وهو مکرم ولا ضم ما منه تد اشتق معجم ولا تسعوا للخائرين فتندموا من القوم ویلات فهللا سمعتم ولکن آمالی علی ان تتموا فأجدر من یحس حمی الشعب انتم	رویدکم یافنیة الشعب لا أری لئن کان امر السجن والنفی فیکم وان حیاة المرء فی غیر عزة وکل ضیاع للحقوق مذلة وما المرء الا نفسه فلیعزها بنی الشعب لا عاش الجبان بأرضنا بنی الشعب قوموا طالبین حقوقکم بنی الشعب هذا شعبکم باتمشکی بنی الشعب ما اسدیتم لستغاسیا فکونوا حماة الشعب من کل حادث
---	--

وقول عبد الکبیر الزمرانی :

جموعا للإجابة لا فرادی إذا ركبوا لمصدهم جیادا بروح الذین قادنهم شدادا	إذا وطن الإبادة دعا تعادوا ینال الناس ما تصدوا ولكن وكان الذین قاندتهم وكانت
---	--

وقول الحاج محمد بنونة :

رباه کی تبی عرايين الاسود وشعبنا یرسف ظلما فی القیود ومجدنا بین السیوف والبندود	بلا زعیبم ؟ ولا رجبم ؟ مجد قديم ؟
---	---

ومن المظاهرات الکبری التي کان للشعر الوطنی فیها جولات عظيمة ،
عید العرش الذی اصطلح علی الاحتفال به یوم جلوس الملك الراحل محمد
الخامس طیب الله ثراه وهو یوم 18 نوفمبر ، وقد سبقت الاشارة الى ما
کان لهذا العید من اهمية باعتبارہ اعلانا عن استمرار الدولة المغربية
وتدعیها للکيان السیاسی للبلاد . وقد کان الشعراء یتنافسون فیہ ومن لم
یقل شعرا طوال العام لا بد ان یقوله بهذه المناسبة ولو لاجل التفتیس عن
مشارهه المکبوتة . وحدثت جوائز للمتفوقین من الشعراء الذین یتبارون

فيه كانت تسلم اليهم في احتفال شيق وهكذا انقلب الشعر الذى مهما قيل فيه ، لا يعدو أن يكون من قبيل المدح المعهود للملوك ، الى شعر اجتماعى يعبر عن عاطفة شعبية وفكرة قومية ويمارس تجربته الادباء اصحاب المبادئ والافكار اكثر مما يمارسها الشعراء المداخون وطلاب المنافع والجوائز . وكان مما يتضمنه هذا الشعر الاشادة بمواقف الملك من النهضة وتشجيع الحركة الوطنية وما قطعه المغرب في أيامه من مراحل نحو التقدم والازدهار في جميع الميادين ، وبذلك يكون سجلا من سجلات التاريخ القومى والنهضة الحديثة لا سيما وقد كان طابع هذا الشعر هو الصدق الذى تتفاعل فيه العواطف مع الواقع فيجسم التأثير الذى تحدثه مبادرات الملك واعماله في نفوس الافراد والجماعات من مختلف طبقات الشعب بدون ان يكون مغاليا في ذلك ولا مجاملا كما هو المعهود في امداح الملوك وشعر المناسبات . والامثلة التى نسوتها من هذا الشعر تعطينا اكثر من دليل على تيبته هذه فاليك منه ما يقوله محمد الحلوى في احدى قصائده الكثيرة في هذا الصدد :

سلبل الملوك الفاتحين تحية	من الملا الاعلى يرتلها الشعر
تطيف بها الاملاك في ملكوتها	وتشدوبها الدنيا ويزهو بها العمر
ويحملها العيد السعيد عرائسا	غلائلها نور وهالتها نور
وترسلها الانفواء في كل مسمع	زغاريد تشفى كل اذن بها وقر

* * *

أبا النصر هذا يومك الخالد الذى	نرجى به يوما يفك به الاسر
فمن لى بأن ارتاد في عرصاته	فتمتع الحاظلى ازاهره الخضر
وكيف ارضى النفس وهى مشوقة	اذا عشقت زهرا تملكها زهر
اذا قلت هذى زهرة علوية	مبللة الاعطاف اعراقها نضر
فتنت باخرى عطر الجو نشرها	وانسى صريع الكاس ما تفعل الخمر
وما حاجة الغواص بالبحر مزيدا	اذا كان لماعا على الشاطئ الدر
تبارى رجال القول فيك فابدعوا	وابدعهم قولا تملكه الحصر
وكانوا كمفتر راي النهر جدولا	فلما استقل الماء الجبه النهر
شمائلك الازهار نواحة الشدا	ووجهك وجه الروض يغمره البشر
عصامية في نعمة من نبوة	وعزة ملك ملؤ ابرادها الفخر

وتجلوه صباحا كلما ابتسم الثغر
 رآك فسامى عنده الخبر الخبر
 حلت به فارتاح وانشرح الصدر
 فاعجبها ان لا يهون ابنها البكر
 وقد دب في الافاق واندلع الشر
 ونافذ عزم لا يقاومه الصخر
 وأوجههم صفر وأيديهم صفر
 لنيل منى أحلى مناهلها مر
 اليك فالتقيت الهدى بطل السحر
 مججلة في الخافتين لها زار
 وفي نمة التاريخ ما فعلت مصر
 على المفرق الوفاء يكلاه الدهر
 ومن نهم مخفورة ضمها الصدر
 قلوب وما سالت دماء له حمر
 يصول بلا جيش فيطلبه النصر

واشراقة يعلو محياك نورها
 وكم سامع قد مارت الاذن عينه
 وصدر أمات الحقد والغم ربه
 عركت العوادي وهي جامحة الهوى
 وصارعتها والجو اسود قائم
 بثاقب فكر تستضيء به الدجى
 فولت فلول الشر يقتلها الاسى
 وكم فتلوا جبل المكائد بينهم
 ولما ارادوها والقوا حبالهم
 وارسلها الشرق المعذب صيحة
 ففى الله ايام تدانت على النوى
 فأتسمت بالعرش المهيب وتاجه
 بما في الحنايا من تباريح حكم
 وبالامل الغالى وما خفقت له
 يمينا لانت القائد الملمم الذى



لفوزك الا قاب قوسين او شبر
 وأرهقتها الحامى واثقلها الامر
 وتطلب حقا ليس عن نيله صبر
 تواها فان عزت فأرواحها مهر
 وان تكفها نارا ففيها لها جمر
 تقانفها في سيرها المد والجزر
 دليل ونجواه المعونة والازر

أبا النصر تم ما بدأت فما بقى
 فحقق أمانى أمة ضاق ذرعها
 تريد حياة تحت تاجك حرة
 ستبذل في آمالها كل ما اجتنت
 فان تبغها سلما فللسلم سعيها
 فقدتها الى الشط الامين سفينة
 وخضها نعمين الله يقضى ونوره

لعلنا لا نحتاج ان نشير الى ما تتضمنه هذه القصيدة من مدح موجه ،
 ومن تسجيل للمواقف التى وقفها الملك دناما عن حرية شعبه وحقه في
 الحياة الكريمة وربط ذلك بجهاد المواطنين وتضامن الشعوب العربية
 والاسلامية مع تنويع اساليب القول في ذلك واختيار احسن الكلمات
 المعبرة ، مما جعلها كالخطبة الرائعة ، تثير مكانم الوجدان في النفوس ،
 وتضرب على الوتر الحساس في قلب كل وطنى غيور ، وبذلك كان هذا

اللون من الشعر أحد ألوان الشعر الوطنى الذى يعبر عن شعور الجماهير
وان ظهر بمظهر ذاتى ، لان ذاتيته ذابت فى الاحساس العام المشترك الذى
جمع بين الملك والشعب والشاعر . ومنه ما يقول محمد العثمانى :

لولاك يا ملك القلوب واهلها	ضل السبيل الى القلوب رجاء
مرت علينا فترة حجبت بها	عنا الرجاء سحابة سوداء
حتى جلاها نور رايتك فانجلت	والمشكلات شمسها الآراء
اضفيت منه على البلاد اشعة	يمشى بها العميان والبصراء
فكانه يجرى القضاء وفاته	وتبين قبل وجودها الاشياء
سعدت بلاد امرها يعنى به	قبل الامور ملوكها الحكماء

* * *

يا من تبوا بالجداره والحجى	عرشا عليه من الجلال لواء
جنباته شرع الكتاب وهديه	وحلاه وحدة امة واخاء
ملكه باسم الحق لما شيدت	اركانه الاجداد والاباء
وينت قوائمه على اسس الهدى	بالمشرقى بناته البسلاء
الفاتحون الارض وهى معاتل	والناثرون الامن وهو وطاء
والمنجبون بناء مجد ناطحت	قرن السها ثمراته الشماء
ملك بنوه على الجحافل والقنا	وحمت ذراه الفارة الشعواء
والنصر ينزل والسيوف رسوله	والحق تتلى آيه الفراء
للحق آى لا ترى الا اذا	كحبت ككائب والمداد دماء
فاذا مراكزه رقاب اباته	واذا بنود شعاره حمراء
ما اكثر العشاق فى طلب الملا	لكن قليل طالب اثناء

وما يقوله الصديق العلوى :

طف بالاركة واقضى ما	يقضى الولاء من الشعائر
وانظم قصائد من شذا الا	خلاص او نفخ الازاهر
عرش على انواره	مذ كان هذا الشعب سائر
مجد نفع بعد اسماء	عيل والدنيا مصائر
قد كان جرار الجيو	ش وكان للنزوات قاهر
قد كمان. للاتقى ملا	ذا منذ قام وكلم ناصر

جارت عليه يد القضا ء ولم يكن في الحق جانر
وكذا يباح حمى الاسو د اذا تقلعت الاظافر

وظلمت نورا يقتفى آثار ابناء اكابر
بسم الزمان على جيبك للبلاد وكان كائر
وافيت فانجاب الظلام ولاح نورك في البوائر
ضنت بك الايام قبل ولحت فانتشرت بشائر
واتى اليك الشعب فى اثباله جذلان ظافر
قد اعلنوا لك عن ولاء المرش فى شتى المظاهر
الناشئون يشع حبهم وحب النشىء طاهر
والطامحون لمجدهم عقدوا عليك له الخناصر
هذا الهتاف صدى سمو رهم بك من مآثر

فها نحن اولاء نرى هذه القصائد ، وكأنها ترجمة لما يجول فى نفوس
المواطنين من معانى الايمان بالذات والنقة فى المستقبل ، ممثلة فى العرش
والجالس عليه لا مدح مجرد لشعراء متكسبين فى ملك من الملوك ، ولهذا
جعلناها من الشعر الوطنى اذ كانت به امس واليه اترب . والحقيقة انه
لا حد لمشمولات هذا الباب من الشعر ، ففى معركة الحرية ودعم الكيان
القومى كان كل عمل يرمى الى النهوض بالبلاد فى منحى من المناحى الاجتماعية
والثقافية يجد صدها فى الشعر باعباره عملا وطنيا يحق التنويه به وتشجيع
القائمين عليه ، حتى قيام نخبة من الشبيبة الوطنية بتمثيل بعض الرويات
التاريخية على المسرح استحق تحية الشعر ونظم القصائد التى سارت على
اللسنة زمنا طويلا فمن قول علال الفاسى فى ذلك :

كل صعب على الشباب يهون هكذا هممة الرجال تكون

يا شباب البلاد احببتمونا فلنا فيكم رجاء متين
ولنا فى الشباب خير ظنون حققت فى الشباب تلك الظنون
اخبروا القوم اعلوهم باننا قد حيننا واننا سنكون

سيركم واعملوا ولا تستكينوا
فهو روح الحياة والاكجين
كل ما تبغونه يستبين
رضى الشعب عنهم والدين
وانا بالنجاح بعد ضمين

قد ملكتكم اعجابنا فاديموا
واحفظوا ما ورثتم من لسان
لغة العرب اتقوها فمنها
ما يضر الشباب شيء اذا ما
املوا واقدموا ولا تتوانوا

ومن قول المختار السوسي :

ليحى المجد والحسب العريق
وما يرقى البلاد وما يروق
تشور به الشرايين والعروق
ويذكرون والذكرى تشوق
لراية مجدهم فيها خفوق
وجه الشعب حولهم طليق
كانهم تميد بهم رحيق
هو النشا الطموح المستيق
ثبات النشا اول ما يفيق
يفل يد الشبية او يعوق
من ان يرند نشأ يستيق
نبوغ المغرب الاتصى يوق

شباب المغرب الاتصى يفوق
اراهم يطحون الى المعالى
ويجرى في دماهم شعور
فيشتاقون للمجد المولى
رموا بالنظرة العليا عصورا
فقاموا يرسمون لنا حلاها
وفاس واهلها جذل وبشر
يقوم بذلك التمثيل فشا
بجائش ثابت والكل يدري
وعزم لا يفل واى شيء
ورد السيل عن مجراه اثنى
فماقوا ما يظن ومن يقده

ونبهة الفتاة وتعليمها مما كان له في الشعر الوطنى اصداء ، فقد ادرك الجميع من اول وهلة ان المرأة لا بد ان تسير الرجل في حركة البعث والتجديد ، وان تخلصها عن الميدان ايدان بالهزيمة ، فانها الام المربية والاخت المواسية والزوجة المشاركة في السراء والضراء ، ولا يمكن للحركة ان تنمر وتسير في طريق النجاح بدون مساعدتها ومعاضدتها وبالفعل فقد كان للمرأة المغربية دور مهم في جميع مظاهر النشاط الوطنى حتى انها شاركت في اعمال المقاومة والفداء واصيبت بما اصيب به الرجل من اذى السجن والتعذيب ، فلا غرو ان يهتم الشعر الوطنى في البدء بتطورها وتحررها من قيد الجمود والخمول فمن صرخاته في ذاك قول عبد الكريم سكيبر :

وما للفتاة تغيرت احوالها
فكانها شعرت بهضم حقوقها
نبكت وقالت ليس لى من غير
ما لابنة الغرب التفوق وهى من
لو يعنى قومى بتربيتى ارتقت
او بالجهالة ظن قومى عفتى
ان التى لم تحتفل بتاديب
واذا المعارف هذبت اخلاقها
من موقظ الالباء من غفلاتهم
اب الفتاة اذا ابنت رقيها
هى بنت صلبك ان تصلبها على
ماضر لو علمتها ما ينبغى
وتكون عندك زهرة الدنيا التى

وتضاعفت مع ضعفها احوالها
لما تصدر فى العلا امثالها
ان لم افق من كان دونى حالها
جنسى ولكن اصلحت احوالها
رتبى واخلاقى يتم كمالها
والناس اقرب للخفا جهالها
ولو انها صينت تسوء فعالها
اعطى لها ما تستحق رجالها
لتقر منهم اعينا انجالها
يوما ستاتى ما به اذلها
جذع الهوان اهنت حين تنالها
ليتم بعد جلالها اجلالها
كملت وقد سلب العقول جمالها

وقول علال الفاسى :

وتود كالفتيان ان تتعلما
ان لا تنال من المعارف مغنا
من ذلك الحق الذى لن يهضم
صلوا ولا شخصا بها متهم
فابى عليها القوم ان تنكلا
اضحت بها لا تستطيع نظما
انى ارى سيل التعصب مفعما
ان هذبت تنح السبيل الاقوما
ما ان نطبق بها نظاما محكما
خلقت لنا كيما نلذ وننعم
فى الجهل كانت شطرها المتجما
لنساننا ومواقفنا ما اعظما
فى الدين والاخلاق فى حفظ الحمى
وظهرن فى كل المعانى انجما
مجهودهن مدى الحياة ونحرما

نهضت تد الى المعالى سلما
سئمت حياة الجاهلات وساءها
فانت الى الميدان تطلب حظها
لكنها لما تصادف موردا
ودعت الى ارشادها لمرادها
حملوا عليها حملة جبارة
يا قوم ما هانى الجهالة منكم
ربوا الفناء على المعالى انها
انا سئمتا عيشة مبتورة
لا تحسبوا ان الفتاة كمتمة
لكنها شطر الحياة فان تدم
كم سجل التاريخ مجدا ساميا
فى العلم والعرفان فى حق اللضى
فى كل ناحية ضرين باسهم
لا ينبغى ان نمنع الاوطان من

وقول عبد القادر حسن وهي قصيدة صاغها في شكل حوار بين نني
ورفتاة . قال :

واضربى في الحياة خير مثال
واطلبى في الحياة غر النمل
كلنا من ضروب الاستقبال
فانفري أن ترى بوجه مذل
وانظمية نظما عزيز المنال
واجعليه يسر نحو الكمال
ه فخليه غاية في الجمال
امانى الحياة في اقبال
عنه ما قد يحسه من ملال
فلتكونى كذاك في كل حال
في رفيع مستوى الاجيال
يدفع النشء للعلا والنضال
ذا وكونى له الصديق المثالى
لحياة مليئة بالجلال
فيه نفسا كثيرة الامال
وانفعيه نحو الملا والكمال
صادق القول صادق الافعال
سم وباتى خصائص الانزال
ل وعيش المجون والانحلال
كلف الحق من عنا ونضال
س ويبقى شمائل الابطال
ب في كل غاية وكمال

حقيقى السبق في مجال الكمال
واسلكى في الوجود نهجا سديدا
واطلبى الخلق والعليلة مهما
واذا ما دعيت للسوء يوما
واغمرى البيت بهجة وسورا
واحفظيه بحكمة واقتصاد
بهجة البيت بسمه منك تطلو
واجعلى زوجك العزيز يرى فيك
واغتندى ملء قلبه وازيلى
انت للزوج في الحياة شريك
يا فتاة العلا لانت عماد الشعب
انت للطفل معمد لا يضاهى
فلتكونى للطفل اما واسنا
هذيبه وكونى فيه حبا
عوديه على النظام وربى
واغرسى فيه كل خلق كريم
عوديه صدق الحديث لينثا
حذره النفاق والجبن والوه
نفريه من الدناءة والذ
عليه الثبات في الحق مهما
عليه الاءاء والعزم والبأ
يا فتاة العلا لانت عماد الشعب

تاللت :

اتحصى رضاه في افعالى
كل مجد لها وكل جلال
بضلال يفت في اعمالى
تخذوا الجهل رائد العبال

يا ننى المجد اننى طوع شعبي
اخلص الود للبلاد وارجو
غير انى انوء منذ بعيد
كيف اسمو وكيف يسمو اناس

وتصارى امر الفتاة لديهم	ان يروها ترضى ميول الرجال
ورأها الكثير الة لهو	فهي سلواه من عنا الاطفال
وهى فى البيت خادم لا يلاى	اى عطف منه ولا اجلال
وهى زوج واى معنى راوا للزو	ج يسمو بها من الابتذال
وهى ام وليس للام فيها	من معانى التقديس اى مثال
يا فتى المجد قل لقومى انى	سوف اسمو منى ارادوا كمالى
علمونى وهذبونى ترونى	فى الملا والطوح خير مثال

والى هنا لم نورد الانماذج من الشعر الوطنى او ما هو منه بسبيل .
واننا اذ نكتفى من ذلك بهذا القدر نحب ان نلفت النظر بمزيد من التاكيد
الى ما فى تلك النماذج من جديد ، سواء فى اصل الموضوع الذى تناولته او
فى الافكار التى تضمنتها ، فالدعوة الى تحرير المرأة ومساواتها للرجل فى
الحقوق موضوع جديد على الشعر لم يسبق ان خاض فيه البتة ، ومدح
الملوك على الطريقة التى راينا فى تصائد العرش من ريط فكرة القومية
بالدولة وتمثل الدولة فى العرش والجالس عليه ، اسلوب جديد ايضا نحى
بهذا الباب من الشعر ، وهو باب المدح الذى يعد من اوسع ابوابه ،
منحى شعبيا عاما خرج به من دائرة الفرد التى كان يتعثر فيها بين المجاملة
والنفاق الى دائرة الجماعة التى تجعله فى خدمة الصالح العام ، وهكذا
باتى النماذج الاخرى فانها جميعا ذات اتجاه جديد لم يكن للشعر المغربى
او قل العربى مساس بها من قبل ، فاصبحت من اهم اغراضه وامظم
مقاصده .

وننظر فى ابواب اخرى من الشعر الوجدانى كالوصف وما اليه لتبين
الاتجاهات الجديدة التى اخذ شعراؤنا بها انفسهم فى وصف ما يرون من
مشاهد ، وتصوير ما يحسون من مواجد ، وخلق الاجواء الشعرية التى
يخلقون فيها بخيالهم ، ويرددونها فى احلامهم ، هياما بربة الشعر التى لا
تلمح الا فى جمال الطبيعة ، ولا تزور الا مع طيف الخيال . فمن ذلك تول
عبد المجيد بن جلون يحتلى محاسن الطبيعة ويود لو يفتى فيها :

من لى بكوخ فى الخمائل نساء	وسط الطبيعة امناء الحسنا
بينى وبين العصر بون شاسع	انا فى الخمائل وهو فى الصحراء

وايهم الوادى لاغسل عنده
وتكون احضان الطبيعة ملجئى
الفجر تنفخ مهبتي انداؤه
ان الفضيلة فى النفوس وانما
والشمس تسكب فى فؤادى نورها
انا والحبيب نظل طول حياتنا
نجرى ونفتح للطبيعة اذرعنا
وعلى ضفاف النهر نجلس ساعة
ونردد الالحان فى اجوائها
اما الثقانة فهي سفر خالد
فاذا اطل البدر سحري السنا
ونخطرت فى الجو ارواح مر
وطوى الهدوء العالمين فليست ته
هو همة الاناء فى جوف الدجى
نمنا على الاعشاب كالانراخ فى

ما قد تعلق بى من الاحياء
من عالم الانقسام والاجزاء
حتى تعود شريفة الاهواء
هى زهرة تحتاج للانداء
فيعود مثل الشمس فى اللآلئ
نحسب معا فى هذه الانياء
مشتاتة لربوعها الخضراء
لنرى مثال وجودنا فى الماء
فتهافت الاطياف للانفاء
مجلوة فى القبة الزرقاء
وبدت نجوم الليل فى الطياء
فرقة على الازهار فى الظلماء
مع فى الطبيعة غير صوت فاء
من عالم الاجداث والاشلاء
اعشاشها ملتفة الاعضاء

انها الطبيعة الام فى روعتها وجلالها ، وفى الخمائل الملتفة والوادى
العميق ، فى انداء الفجر واتسعة الشمس ، فى الظلال والافياء ، فى القبة
الزرقاء ، فى القمر والنجوم ، فى هدوء الليل ، فى نفخ الازهار ، فى صوت
الابد يسمع من بعيد ، فى كل مجالها المنظورة والمتخيلة بهيم الشاعر حتى
يجتوى عالم الانقسام والاجزاء ، ويؤم الوادى ليفسل ما تعلق به من اوضار
الناس ، انه يتأمل الفضيلة زهرة ندية ، وهى مغروسة فى النفوس لكن
البعد عن حياة الطبيعة يخلها ويذويها ويرى الثقانة هى ما بقرا منشورا
فى سفر الطبيعة من بدائع السماوات والارض فما به. من حاجة الى ثقافة
العصر الذى اصبح اهله يعيشون فى صحراء . وشتان بين عيشه فى الخمائل
وعيشهم فى الصحراء .

ان الشعر العربى لم يكن يحتفل بالطبيعة هذا الاحتفال ، وهو ان
كان قد وصف جوانب شتى من محاسنها ولا سيما الربيع والازهار ، فقد
بنى عليه ان يجلوها وحدة كاملة وكلا لا يتجزأ ، وهذا ما فعله الشعر

المعاصر ، وكان من السابقتين الاولين الى ذلك امير الشعراء المرحوم احمد شوقي الذي وصف الطبيعة في الاستانة بقصيدته المشهورة التى يقول في اولها :

تلك الطبيعة تف بنا يا سار حتى اريك بديع صنع البارى

وقصيدة شاعرنا ابن جلون من هذا القبيل . ومثلها قصيدة لعبد الملك البلغيشى يقول فيها :

يا سالى عن شرابى اين يعمر لى وعن دنائى وقينائى ومتكلى اذ لا يرى شاعر الا له مدد هون عليك فما خمرى ولا سكبي وانما الكون جلى لى طبيعته ساجلتها نظرات الحب فانبعثت امعنت فيها ولا هجر يطاردنى اظل فى معرض منها يساجلنى الفتها ولها فى كل آونة لا كالمليحات ان غرن من خلق ارى الطبيعة نشوى لا تفرنى يا ليتنى عينها فى الكون مبصرة لو امتزجنا فهما بعضنا فغدا	وعن نديى وللخلعان فغدان كاننى وعقاد اللهو صنوان للشعر من ذاك انى عنه غنيان ؟ ماء الكروم ولا مرد ونسوان فهمت فى حسنهما والعشق اديان وللطبيعة فى عينى انسان فاينما ملت مالت وهى بستان بكل مفتتن والحسن عريان تبدل فيه للمشغوف سلوان فانما هو للمعبود عصيان بى ما بها فكلا القلبين هيمان او سمعها وبهذا الخلق نقصان للشعر من بيننا جبل ونبان
--	---

* * *

تصرت عن فهم ما تطويه لهجتها ولم ازل اتلقى من مناظرها لجات للطير اذ غنى فقلت له النت اغصان هذا الدوح من زمن وللجداول والحمباء معتبة والليل ساج ونور النجم يوقظه فهل سمعت حديثا دار بينهما	ومعجم الكون لم يدرسه انسان ما فيه للشعر فرقان وتبيان يا من له بين هذا الجو خلصان وللنسيم بها وجد وتحسان وللفراش بزهر الروض وجدان يظننه نائما والليل يقظان ماذا طوى منه اعلان وكمان
--	--

نقال نسال عن اشياء يجهلها مكلم الجن في الدنيا سليمان
وليس يعلم ما كنت سرانرها الا عليم بسر الكون رحمان

والطبيعة في المغرب من اجمل ما خلق الله . انها لوحة لا تستطيع
ريشة اعظم فنان في العالم ان ترسم مثالا لها . غير ان الشعراء من الجبل
الجديد حاولوا ان يحكوا في شعرهم الوصفى بعض مظاهرها ومن ذلك
قول محمد الحلوى يصف جبال الاطلس وقد جللها الثلج :

ابا الهول لا تشمخ بانفك انما فظنك اقوام الها مجسدا حبايك لا تشمخ وحولك اطلس تعالت كامواج المحيط هضابه متوجة بالشمس والثلج هاهنا يصوغ لها وثى الربيع مطارفا هضاب بنت اوتادها يد صانع فلله اهرام الثلوج مشعة عرانس بيضاء الفلائل حسننها اذا ماراها الشيخ فيبيعة الضحى نعاش برأى الثلج والشمس ساعة ولله غيد رائعات على الربى وجوه غذاها الثلج نهى وضيئة زهت بالجمال الاطلسى وترفعت مفانن لم تحلم بها ارض عبقر ابا الفلج حدث طالما انت ناطق وانت الصدى الحاكي وان بعد المدى اثابت نواصيك الخطوب وخضبت ربى اقسمت ان لا تذل جباهها اذا ركبوا كانوا ربى تمتطى ربى تؤلفهم والفاتحين شمائل	اقامتك ايد ناحات مواهر وارجف اقوام بانك ساحر ربيع الذرى للهول والموت قاهر وعزت روايبه على من يناظر واعظم تاج لم نلله الاكاسر ربيعية تهفو اليها المشاعر صناع وارساها على العزماهر يدهدها فيض من النور غامر وضىء ورياهها المحبب عاطر تجلت لعينيه الليالى الزواهر يراجع فيها عمره ويذاكر رقيقات ما ضمت عليه الخواصر وهايت بها الانسام نهى نواصر عن البرقع الخداع نهى سوافر وجنات حور لم تلدها الحواضر بليغ ولقنسى فانى شاعر ورمز لماض توجته المفاخر رباك دماء انبتتها الازاهر لطاغية ما عاش فيها برابر وان طربوا فالحلم والجود غامر وتربطهم والمسلمين اواصر
---	--

وحدث الحلوى عن الاواصر التى تربط بين المسلمين في سياق هذا
الوصف الرائع للاطلس الجبار ، كانه اعتذار عن حديثه أولا على سبيل

الزراية بأعجوبة أبى الهول ، وكم فى أعماق النفس العربية من معان تنفء
الفرد العربى الى أخيه مهما ند أحدهما عن الآخر ، لذلك كان هذا الانب
هو التعبير الصادق عن شعور الوحدة الذى يجمع بين أبناء العروبة ويؤلف
انطارها تأليفا .

ومنه قول محمد مكوار يصف الطبيعة فى مصيف موزار
من تصيدة :

وارشف رضاب ثغورها اعلا
تعطى العوالم بهجة وكالا
ذهبا على ظهر الثرى يتللا
فكسته من أنوارها سربالا
نورا يموج على الثرى سيلا
رقصاتها ونر نحت ادلالا
فأجاد توتيعا وأبدع قالا
لحن الطبيعة ما يسلم ملالا
فكانه البلور ذاب فسالا
أرايت قط من الجماد دلالا
جيشا يتعارع دونه الإبطالا
لمع الاسنة يمنة وشمالا
يجرى مرقق مائها سلسالا
بلغى الطبيعة للفصون مقالا
فاستسلمت لتثيله الأمالا
فمها وهذى تحتسى جريالا
بلغت ذكاء بها السمو زوالا
وتخذت ديباج الفصون ظلالا
من حيث يقصر عن مداه كلالا
وفككت عن تكبرى الاغلالا
أبرح مكان تريمى ، أمبالا
بالنور أو صفرا الردا معطالا
تغدو وترحل نحوها ترحالا

طف بالحقول على الأزاهر غدوة
واستقبلن غزالة الكون التى
انظر لها بسطت نسيج شعاعها
بزغت على وجه الغدير مشعة
وتسازجت بمعينه فحسبته
رقت على نغمات صوت خيريه
فكانه الفنان وقع لحنه
انسى ليطربنى الخير اذا شدا
أعذب بمورده وفرط صفائه
ان حل مهلا سار فيه تهاديا
او حل وهذا خلته بتصيبا
تنطابير القطرات منه كأنها
تساب منه على الحقول جداول
كتب النسيم على صفاء بياضها
ادى به لهف الغدير للثما
فتمازج الثفران هذا لاثم
يا ساعة يبيت فيها ربوة
فجعلت سندس أرضها متريعا
وهناك اتسع المجال لناظرى
واجلت طرفى فى البطاح فسحبة
فقطعت من أبعادها القصى ولم
ما بين خضراء الأزار غنية
اضحت لقطعان الخراف مراعي

في مامن لا تعرف الاوجالا
تدعو لوضع ثديها الانسالا
شامت وحيفا تعتلى الاجبالا
لمن ابتغاه للاسطيفات مجالا
بمناظر تنسى الغريب الا
في الصيف يسحب ذيله مرفالا
ويذل جند لهيبه اذ لا لا

ومسارحا تبدي فنون نشاطهما
ويهنسى طريا ثغاء تعاجها
تلهو وتركض حرة في السهل ان
احبب بموزار ولطف هوائه
يقضى النهار ترفها وتمتعها
ومن العجائب ان ترى يفايرا
يحتل من غشت مقر جلالة

ونتجاوز نطاق وصف الطبيعة لتلتقى مع شعرائنا في وصف اشياء
اخرى من مظاهر الحياة الجديدة كشاطئ السباحة في الصيف الذي يقول
فيه محمد الحلوى :

خاطرات في برود من دلال ؟
بحلى السحر واسرار الجمال
ثبج الموج كعند من لال
زرقة الماء بأموج عوال
خافقات هدها رجب المجال
ضاق ذرعا غارتمى فوق الرمال
تبصرات الحسن عذبات الوصال
طافرات حولنا طفر الغزال
ثم يهجمن علينا بالنبال
ضمه الصدر كابطال النزال
تلمس الايدى سوى جسم خيال
موطنا يلثم اقدام الجمال
قبلا تشرق من غير اتصال
بين احضان محب في اقتبال
فبدت تبرا مذابا في جلال
الشاطئ الافيح صرعى في اختبال
او سبوح لاعب (بالفوتبال)
يتقى غارة اسراب الجمال
من بنات البحر او بنت الشمال
صحوها سكر بمعتوق الدوالى

اين من عيني هاتيك اللئالى
غائيات عن مباهاة الحلى
يتهاقطن نرائيات على
ويدهدن شعورا حبيب
يتبارين كالسراب القطلا
وكان البحر مما فوقه
مزيدا بحمل في موكبه
اين من عيني دميات الصا
يتحامبن بدرى الحمى
لابسات زردا يستر ما
خفت الارواح منهن فما
خضع الرمل سوى خده
فبدت اثارها مطبوعة
غابت الشمس فالتفت جسمها
ثم ذابت من لظى اتواقه
يا عشايا البحر والناس على
من مناد او مناج ضارع
او موار جسمه في تنشق
او مفن يتلقى لحنه
لشلاء الغير فيها مكرة

عبقريا يشتهى نجوى الظلال
بلغ الحب بها اسمى مقال
تشبع الروح بأحلام الوصال
بيد الامق طواها باحتيال
حرقه الحب واعراض الدلال
وهوى يصى وسلم فى قتال

سرت النشوة فى الجوى شذى
عبت الاسن الا اعيننا
رنق النوم عليها فغفت
وخيوط الشمس تبدو شبكا
وسجا البحر وفى احشائه
منمة تصبى وكون حالم

ان هذا الوصف الحى لمعة الشاطيء لفى غنى عن التوفيه بها فيه
من جده ، فالموضوع من اصله جديد فى الادب العربى ، وقد تناولته شعراء
مجددون من أشهرهم الاستاذ الكبير عباس محمود العقاد فى قصيدته خليج
استانلى وغيرها ، وشاعرنا الحلوى لم يتصر فيه عن اجادة ولا سيما هذه
الحركة التى نقلها عن الشاطيء الى تصيدته فتمثلت فى البحر الذى نظمها
عليه ، وهو بحر الرمل المضطرب المتوذب ، وفى الصور التى عرض بها
معانيه من غرائشات واسراب قطا ، ودمى حية تطفر طفر الغزلان وغير ذلك ،
انها حركة اضفت على الوصف حيوية جعلته بمثابة معرض للجمال فى شتى
معانيه واشكاله ، ويسرف الحلوى فى التجديد حتى يستعمل لنظ الفوتبال
الاجنبى للتعبير عن كرة القدم ان لم تكن القافية هى التى الجاته اليه

وهذا وصف للعبة كرة القدم لعبد الملك البلغى وهو أيضا من
الموضوعات الجديدة كما لا يخفى :

سلوة العرب والمجم
من ملوك الى خدم
نشوة الخمر والنغم
ثم بالرجل تنلهم
ن بك الجمع ينتظم
له الخصم والحكم
من الضرب واللطم
جلم بمعدة جلم
فى انقلاب وفى صدم
ثم خصوك بالالم
ن ونى لحظها نهم

يا ابنة الريح والادم
لك فى كل اسرة
نشوة لا تقل عن
كم تحييك اروس
انت فى حلبة الرها
والصراع الشديد انت
اثبعوا جسمك الاليم
تتلقاك ارجل
فاذا انت بينهم
قسموا الفوز بينهم
نظرت صوبك العيو

دواء مجروح
يا خمرة الروح

وسحرك الدائم
عد للفتى الظمان

وقول محمد البوعناني :

ورد السلام بكل حذر
ندير عتاب الهوى مختصر
يواسي الجروح ويقضي الوطر
ولمس الاكف وشم الشعر
وعند التنهّد غص البصر
ونظرة ذعر لشيء ظهر
كانى نبى ولست بشر
وقد كنت اجهله بالفكر
ولكن ضميرى الذى قد حضر
فقد كنت فردا كثير الصور
لانك واحدة كالقمر

كفى مقتى اختلاس النظر
ولقينا والرتيب بعيد
فان عتاب العشيقين قد
ونزع النقاب ولشم الثياب
وخفق النواذ وطلق الخيال
وبسمة بكر وسكة عذر
اراك بجانبى وكلى عفاف
وفلك ما عودتنى تقاك
لمست انا حاضرا فى ذراك
سلى كيف كنت قبيل هواك
وها صورتي اليوم واحدة

ومن الشعر الوجداني ما يهيم صاحبه في اودية الخيال ويتعلق
باللا منظور من عالم الماورائيات حيث ينشد سعادة النفس وطمانينة القلب،
وهو شعر الذين غلبت عليهم النزعة الفلسفية فلم يفصل بينه وبين النظر
الفلسفي الا خيط ربيع من النسيج المنى الذى اكسبه صفة العمل الادبي
وادناه من رحاب الشعر ، ومنه قول علال بن الهاشمي الفيلالي :

انسامى في الغيب لله نجوى
جئت للكون اسكب الدمع ثجوا
تسكب العطر في الاثر وتذوى
كملاك لا ترتضى الارض مئوى
في تيود الحياة يلما وبلوى
لا كما تلهم الغيوب وتهوى
بيدى يوم احسب العمر لهوا
وهى ظمأى تاتى السراب لتروى
مبدا الفرد وهى بالذات نشوى
وهى توحى: رغرب الى الجو سلوى

ليبتنى كنت في الحياة صلاة
كيف احبى ؟ ومن انا ؟ ولماذا
هل انا زهرة على شط نهر
ان اكن منك يا تراب ، لمروحي
رب سامح غوايتى يوم انزو
يوم احبى كما يشامون منى
يوم يجنسى على حياتى جناة
يوم نهر الحياة يغمر روحي
يوم نفسى في هيكل الحب تغزو
يوم ربح الغيوم تنسل ريشى

كيف أشكو من عالم الناس شكوى
 ه بطم وكان لى الطم مهوى
 ه وقد كان يوسع الكون شدوا
 من صدى الروح ضاع فى غير جدوى
 شاعر شاء للقتال يد محوا
 زمائى من صرخة الكون ادوى
 وتيهى فى وهلة الغيب زهوا
 انت من عالم الطلاس اقوى

لست ادرى سر الحياة ولكن
 فى دى واقع الحياة احاطو
 فى يدى ارغن الخلود اماتو
 فتهاوت الهة الشعر صرعى
 من خيالى صفت الجنان فقاتلوا
 فى فمى كلمة الوجود سيحكها
 رفرق يا صلاة روحى الى الله
 واطلقت الروح من تقاليد كون

ومنه قصيدة لعبد الكريم بن ثابت بعنوان خلود ، يقول فيها :

ولقد هامت بنا احلامنا
 حيثما الاحلام لا تجمعا
 احد يسأل ما غايتنا
 يقسم الروح التى تربطنا
 زورق مؤتلق يحملنا
 اين مرسانا وما مطحنا
 قائل كيف اذا تسألنا
 ان يسروا بوركت سيرتنا
 يرتجى غيرهما يتركنا
 عشوة الليل وقد يفرقنا
 قطعة من جسمنا تصحبنا
 ايها العاتل لم تنصحننا
 هو ادرى بالذى ينفعنا
 بات يزجيه لنا رياننا
 كان لحنا مشرقا يسكرنا
 كان لونا رائعا يخلبنا
 دون مجداف فثارت نفسنا
 ضاحكا منا عسى يرهبننا
 حيث قد مال بنا زورقنا
 انت يا صاح اذا مرشدنا
 اين نسرى لا ، وما ينفعنا ؟

كان ليل والدجى يحضننا
 نحن كنا سبعة لا نلتقى
 قد سرينا نقطع الليل وما
 ربطتنا وحدة الروح ومن
 وسرينا وسرى فمى نشوة
 قلت للصحب ترى يا فتية
 فانبرى يسخر منى بعضهم
 نحن قوم كتب الله لهم
 نحن نرجو الحب والخلد ومن
 صحت ذا رياننا بخبط فى
 ارشدوه اين ياوى انه
 وتمالت فى الدجى اصواتهم
 فلتدع رياننا يسرى بنا
 وصمتنا نسمع اللحن الذى
 ما سمعنا مذك خلقنا مثله
 بعد ما انهى لنا اللحن الذى
 نرك المركب يجرى وحده
 وانزوى فى الركن يبنى نشوة
 قمت للمجداف ابغى نجوة
 فرنت لى (منيتى) قائلة
 لا تملنا عن اماتينا ولا

ثم فوق الارض ما بفرحنا
عل خلدا دائما يشملنا
ينطوى الفن عليه قصدنا ..

قد مللنا الارض والناس وما
سر الى النور السماوى وسر
فالهوى والنور والسحر وما

وتم الوان اخرى من الشعر الجديد كالشعر السياسى الذى يقال على
مستوى الاحداث العالمية وبالاخص احداث العالم العربى . والشعر
الاصلاحى الذى يتناول بالنقد انحلال المجتمع وفساد الاخلاق نتيجة الغزو
الاستعمارى والانغماس فى مساوىء الحضارة الغربية فمن الاول قول
عبد الرحمن الدكالى يقرر ان فكرة منع الحرب لا تتحقق الا باعطاء الشعوب
حرياتها :

قام بيكى مؤبنا غريانه
كرة الارض من يريد اهانه
لسلام ، فهل ملكتم عنانه ؟
وضعيف قد بثكم احزانه
جاء يشكو اليكم اشجانه
وسلاح شكلتم الوائنه
يمنع الحرب عدله سبحانه
يمنع الحرب ان تداس الخيانه
مستقلا يسمى ليصلح شأنه
متبدا لا اثره لا استكانه
لانتشار السلام الف ضائنه

ان عهد استعباد شعب لشعب
كرة الارض حرة فليفساد
ساسة السلم فى الورى قد سميت
انه المعدل بين كل قوى
انه نصره الفليل اذا ما
ليس اسطولكم على كل بحر
يمنع الحرب ان تثن ولكن
يمنع الحرب ان تنال حقوق
يمنع الحرب ان يرى كل شعب
لا ضعيف مستعبد لا قوى
حرروا هذه الشعوب وهاكم

ومنه قول محمد العربى الآملى يستنكر قرار الامم المتحدة بتقسيم
فلسطين :

فى سبيل الوفا وصون حماك
موتة العز فى ظلال رباك
عاضدوا الظلم فى سبيل شباك
لمهود مقطوعة لملك
خذلوا الحق رغبة فى رداك
خير لخر نحوزه وملاك

امة العرب حان وقت العراك
نحن جند يهوى الفداء ويهوى
سوف تدرى وسوف يدري اناس
اننا العضب فى يدك وفاء
اننا النار والدماء لقوم
نحن قوم نرى الممات بمر

دول الغرب اسمى صوت شعب
مجلس الامن ان حكك جور
هياة العالم الموحد سرى
ان حكما امضاه اهلك زورا
اسخط الحق فهو منه شرار
خلق الياس في الضمائر ما قد
فمن العار ان تقولى كلاما
ومن العار ان تقومى بفعل
هل تظنين ان سيفك امر
لا تظنى ان التحامل امر
لا تظنى ان المدافع تفريه
نحن لا نرهب المدافع لكن

عربى قد طال منه التشاكى
وضلال ومبعض للمراك
واجعلى العدل من اساس بنك
ونفاقا لمصدر لفنك
مستطير يشور ضد بقاك
سجلت في رضا اليهود يدك
يبعث البشر ثم يرمى وراك
ينقض القول في زمان صباك
يبعث الرعب في قلوب سواك
سوف نمضيه عن رضا لقتاك
نا على الصمت خشية من لقتاك
نرهب الحق وحده لا تواك

ومن الثانى قول المدنى الحمرأوى مخاطبا الشباب المنحرف :

يا شباب البلاد مهلا فانى
لا ارى نجحكم اذا لم تصونوا
قد راينا جموعكم تنهأوى
فاستطابت من الهوى كل لون
واستحلت من الفجور صنوفا
كم راينا على الطريق شبابا
فاذا ليم قال حرا ارانى
انما الحر من يصون عفافا
انما الحر من تحرر حقا
فاعد ابها الشباب صوابا
وتعلم من الحياة دروسا
انما هذه الحياة صراع
ويح من غره الشباب فامسى
يرشف السم من شفاه مراض
فماذا ادبر الشباب توالى

قد رايت الشباب في استهتار
شرف النفس من فسوق وعار
في حياض الخنا بدون استتار
يتناقى مع الحيا والوقار
حرمتها شرائع الكفار
قتل العرض جهرة في نهار
ايمن فحش من عفة الاحرار
ويجافى مخازى الفجار
قلبه من قبائح الاوزار
كاد ينفى في غمرة التيار
تنذر المرء ان لها باندحار
لا يرى الفوز فيها غير الخيار
يتلف العمر بين حان و (بار)
ويضيع الرئاد حول القمار
غمه بين علة واقتار

* * *

ادمع الشعب كالسيول الفزار

يا شباب البلاد مهلا فهاذى

كالحياء البكر في احشاء حامل

تلتهب

علموه بعدها اى يقين

وشكوك سبحت من فوق الواح الظنون

منذ نوح ، منذ آلاف السنين

منذ ان كانت حياة ونجاة في السفين

علموه ان من ينهض يصلب

نوق اغصان من الزيتون ينصب

ثم يعلوه من الشوك المذهب

الف اكليل وترعاه النجوم

في وجوم

باسمات مثل عرجون تديم

لا يريم ، والنسيم

اذ يهب

* * *

واتى صبح تمطى في كسل

وملل

بعد ليل انهكته الشهوات

والقبل

تتذكرت وما كدت شبابى ، لماذا بى

لم ازل

ذلك الطحلب لغته الفلاة

واذا اعجاز نخل خاويات ، والحياة

هيكल نامت عليه العانسات

كالظلال

في ابتمال

كالنصب

وهذا نموذج آخر لمصطفى المداوى (ت 1381) وهو من الشعر

الوجدانى :

يا ايها الطيف المرفرف فوق اهداب الخيمة
يا نسمة العطر الموجه في ابتسامات الجميلة
يا طيف سعد عابر
هلا مررت بخاطري
لى فى حماك قصيدة
غذيتها بمشاعرى

* * *

يا ايها الطيف الموجه من بعيد
يا سائرا عبر الفضاء الواسع
ما زالت الذكرى معى
تهفو فتسج من ضياك لناظرى
صورا جميلة
صور الزمان العابر
فى مجرها المتوثب
ما زلت احمل ظلها
فى ناظرى شعاع امسية بعيدة
كانت لنا حبا واحلاما سعيدة

* * *

يا ايها الطيف الملوح كالشعاع
يا بركة فضية الشيطان فى الشراع
ترى حان الوداع
هلا وقتت هنيهة حتى اراك
وارى الحياة على شفاهاك تبسم

* * *

يا ايها اللحن المزغرد فى الفضاء
ما كدت استمع النداء
حتى اختفيت وراء دنيا من ضباب
ولم تعد الا صدى يخبو رواه

يا ايها اللحن الطروب
ما غاب منشذك الحبيب
عنى ولا تضبت رؤاه
يا ايها الطيف المودع ربنا
لى فى حماك قصيدة
ازلية لا كالتصائد
غننت تموجها حمامه
فى دوحها المتطاوول
غننت حمامه
بيضاء فى ثوب السلام
من الف عام

* * *

يا ايها اللحن المخرد فى الفضاء
عد للكمائن . . لقلبي المتاجج
عد للوشاح لسحرك المتوج
عد فالصباح اطل والزهر انتشى

* * *

يا ايها الطيف المودع ما حدا بك للذهاب
يا نغمة فجرية حنت لعودتها الهضاب
يا نسمة عطرية متوئبه
يا طيف مسعد عابر
هلا مررت بخاطرى
لى فى حماك قصيدة
غذيتها بمشاعرى

* * *

ونموذج ثالث لمحمد الهوارى وهو ثورة على الظلم الاجتماعى :
الحرف اعصار تربى فى دمي
الحرف بركان يعر يد فى لى

الحرف آلاف الجباع بامتى
الجامعون كاخوتى

* * *

الحرف آلاف الجباع بامتى
المهرقون رحيق اعمار شقيه
الساكبون دماءهم دوما ضحيه
الذابحون رقابهم
بمذابح الصمت المهين
السائرون عيونهم
بمعقونة الذل الذليل

* * *

الحرف نار من سمر
الحرف وهم مستطير
بعبون الجامعين
بقلوب الساكتين
بعبون آلاف الجباع بامتى
اعمارهم خلقت تباع
كى يحرثوا .. كى يحصدوا
ويقديوا كل الذى قد يحصنون
لصاحب الارض الكبير

* * *

الحرف آلاف الجباع بامتى
الساھرون مع النجوم
عبر السهول
عبر القرى
فى قرىتى
والنائمون على الثرى
بمدىلتى

أوردنا هذه النماذج كاملة لنكتفى بها عن كثرة الأمثلة لاعطاء فكرة عن مدى نجاح هذا اللون من الشعر في المغرب فهي كما نراها تجارب لا تقل قيمة عن كثير مما ينسج على هذا المنوال في المشرق . واضطراب الميزان في بعض الابيات هو من عدم اتامة عمود هذا الشعر في جل ما ينشر منه لان تواعده لم ترس بعد على وضع ثابت . وفيما عدا الوزن نرى اللفظة والاسلوب لا يختلفان هنا وهناك انها في الواقع لغة شعرية ممتازة غنية بأخيلتها واستعاراتها المبتكرة وان يكن في بعضها غرابة ولكنه نهج أصبح مطروقا لا سيما مع ملاحظة الاقتباس من اللغات الاجنبية كإقتباس الحرف للادب . واما الاسلوب فهو اسلوب الحكاية وكان ما كان ، ويعتبر في هذا الشعر من فنون البلاغة ، لذلك فالنماذج التي قدمناها متوفرة على جميع عناصر التجربة الناجحة او القريبة من النجاح لهذا الاتجاه الجديد في مبنى الشعر العربي ومعناه ايضا . ونحن نعتقد ان هذا اللون من الشعر وان كان في حاجة الى كثير من الصقل سيكتب له انتشار كبير .

ونختم هذه المحاضرة بمثال من الشعر المنثور احاطة بالموضوع من جوانبه واستيعابا لوجوه التجديد التي دخلت على الشعر ولو انه انما يسمى شعرا باعتبار مضمونه وهذا هو المثال لعبد القادر السميحي بعنوان « قل انك تحبني » :

في ذلك المساء
من الربيع
وقلبي دافئا
بالحنين
مثل احلام الصفار
لبلة العيد
جئت الى
وليس معك غير الحب
في ذلك المساء
من الربيع
وتحابيننا

كما لا يتحاب احد من قبل
منذ ذلك المساء
من الربيع
فقل انك تحبنى
تحبنى ..
ايمن ان ينسى ذلك المساء
من الربيع
ايمن .. ؟
ايمن ان تخفق الكلمات
بدفء الدموع
ايمن .. ؟
فقل انك تحبنى
تحبنى ..
كيوم حبنا
في ذلك المساء
من الربيع

الشعر القصصي والتمثيلي

من نافذة الكلام القول بأن هذين اللونين من الشعر جديدان في الشعر العربي ، فقد سبقت الإشارة الى ذلك اكثر من مرة ، ودرج الكتاب ومؤرخو الآداب على تحليل خلو الادب العربي نثرا وشعرا من القصة والتمثيلية بما لا مجال لذكره هنا . الا انه مما بلغت النظر استمرار هذا الفراغ بالنسبة الى الشعر القصصي بعد النهضة الحديثة ، مع انه الفن الذي يمكن ان يعثر له على جذور في الشعر العربي القديم . ولقد نشط انتاج القصة والمرحبة الآن ، وظهر كتاب مبرزون في هذا الميدان ، كما وجد الشعر التمثيلي ووقع الابتال عليه منذ ان رفع رايته امير الشعراء احمد شوقي . ولكن الشعر القصصي الذي كانت بذوره في شعر الجاهلية على وشك الانبات ، وتقدم لنا عمر بن ابي ربيعة في صدر الاسلام تجارب ناجحة منه ، ولم يفنا الانبياء يحاولون النظم فيه ، ومنهم من وفقوا الى نماذج رائعة كبديع الزمان فيما نظمه من قصة بشر بن عوانة ، وهي غاية في تصوير بطولة العاشق ، هذا الشعر لم يلاق من العناية ما هو جدير به ، وما تزال الاعمال التي انجزت فيه اعمالا صغيرة لا نسبة بينها وبين ما لشوقي وحده في الشعر التمثيلي بله ما قفى به عليه عزيز اباطة وعبد الرحمن الشرقاوي وغيرهما . واكثر القصص الشعرية التي نعرفها لخليل مطران ومعروف الرصاف وبعض الشعراء الآخرين قصص صغيرة وتحمل طابعا ذاتيا . ولعل السبب في عدم تقدم الشعر القصصي ، قلة ابتال القراء عليه ، فان من المعلوم ان تذوق الشعر ناتج عن تفهمه ، وتفهمه يتطلب ثقافة واسعة ما زال القارئ العربي في العموم لم ينوثر عليها لا سيما مع ازدواجية اللغة التي تنف حجر عنرة في طريق انتشار التعليم وتنمية الذوق الادبي . والشعر التمثيلي انما انتشر بفضل المسرح الذي ذلل تلك العقبة وتطلب على الصعوبات التي تعترض قراءه ، فان تشخيص احداث الرواية والالقاء الفصيح واشتراك السمع

والبصر في تفهم العمل الادبي مما اعان على تذوقه ونجاح تجربته . فالى ان ينفشر التعليم انتشارا كليا وتعم التوعية الادبية اوساط الناس لا سبيل الى نهوض الشعر القصصى في نظرنا الا بنظمه في لغة مبسطة وتحبيب قرائه للعموم بوسائل الترغيب المختلفة كشكله وتفسير غامضه وتصوير احداثه ، واهم من ذلك كله انشاده في المحافل الادبية وتقديمه للجمهور عن طريق الاذاعة المسموعة والمرئية .

وبالرغم مما ذكرناه من قلة الشعر القصصى في العالم العربى عامة فاننا سنقدم منه نموذجا مخضرمنا ان صرح هذا التعبير موضوعه مستمد من تاريخ الاسلام ، والحلة التى يكتسيها لا يبلغ ان تكون حلة القصة المستكملة الشروط من عقدة وحبكة فنية وحل ولكنها مما عمل فيها الخيال ومستها ريشة الفن اضفت عليه جو القصة الادبية وابتعدت به عن مجرد القص التاريخى . وهذا النموذج هو قصة كعب بن مالك احد الصحابة الثلاثة الذين خلفوا عن غزوة تبوك وقاطعهم النبى (ص) والمسلمون حتى نزلت توبتهم في القرآن ، وهو من نظم علال الفاسى .

يستهل الشاعر القصة بمدخل يخاطب فيه الناشئ الصغير حائنا اياه على التماس القدوة من سيرة اسلافه الامجاد اذ كان المقصود من نظم هذه القصة هو ضرب المثل للنائثة في الصدق والاخلاص والثبات على المبدأ ، ثم يقول متخيلا انه اتى كعبا وتحدث معه على المنوال الآتى :

حلة الشيخ الوتور الطرب
في تبوك حيث لم يصطحب
في استباق الخير عند النوب
وكعبا من كماء العرب
نخشى بيض القنا والقضب
ان تاخرت فاغضبت النبى
فزرت الا باجتنباب الكذب
كسل او قنعنى في العطب
لم ائل مثلهما في حقبى
خدعوا الله وغشوا المسلمين

ننى قد جئت كعبا وهو في
سائلا عما جرى من شأنه
قلت عهدنى بك شهما لاينى
كم غزاة كنت فيها اسدا
دافعا عن حرم الله فما
ما الذى اجبتك الامسى الى
قال ان الصدق منجاة وهل
لم يكن لى اى عذر ، انما
كان لى يسر وعندى قوة
آه قد غرنى القوم الالى

وبعد ذلك يسأله الشاعر أن يروي قصته فيقدم له قبلها وصايا ونصائح يحذر فيها من الاغترار بالناس ويأمره بالاخذ بالحزم في شؤونها كلها ويستغرق ذلك قصدا من عشرة أبيات ثم يتبدى الحكاية في قسم تال :

تال هذا ويكى مذكرا	ذلك الذنب الذى قد غفرا
ثم سار الشيخ في قصته	راويا متعظا معتبرا
تال رام المصطفى غزوته	في زمان حره قد سمرا
قاصدا سيرا بعيد المنتهى	وعدوا جنده قد كثررا
فابان القصد للناس لكى	ياخذوا الابهة فيما امرا
ولقد كانوا كثارا ما لهم	من سجل فيه عد النظرا
فاستمد القوم الاثمة	حسبت موقفها لن يظهررا
وانا ما كنت الا مضمرا	رفقة القوم لاجنى الظفرا
غير انى كلما رمت قضا	حاجتى اخرتها منتظرا
فناديت الى ان رحلوا	واذا بى في غمار القاعدین

ويستأنف القصة فيذكر خروج النبى (ص) الى تبوك وتقاعده عن الخروج معه ، وما هو الا أن يتدبر في أمره حتى يحيط به الندم ، لا سيما وهو يتجول في المدينة فلا يرى الا شخصا ضعيفا معذورا او منافقا مشهورا ، ويبلغه ان النبى سأل عنه وان احد الصحابة أجابه بأنه شغل به برداء والنظر في عطفه ، فيزيد ذلك في الهه وان كان صحابى آخر قد اعتذر عنه :

فصل المختار في موكبه	وانا ما زلت ارجى سفرى
لبتنى اتبعته راحلتى	واذن يكمل منه وطرى
غير ان الامر موكل الى	ما يجليه صنيع القدر
ثم ما رمت حزينا بعده	دائم الفم شديد الكدر
لا ارى في الناس ان سرتوى	ذى نفاق او ضعيف معسر
سأل عنى بتبوك المصطفى	فاجاب السلى المجترى
تال برداء وعطفاه هما	حبسه عن جهاد خطر
ليته كان لبيبا منصفنا	كمعاذ فهو بالحمد حرى
اذ اجاب المصطفى معتذرا	ما عرفناه سوى الشهم الجرى
ورسول الله اصفى ساكنا	وهو ادرى بقلوب المتقين

وتنتهى الغزوة وتأتى الانباء بعودة النبى (ص) والجاهدين ، فيغتم

كعب ويوبخه ضميره وتقتابه الهواجس ، كيف يلتقى النبى ؟ وماذا يقول له ؟ وهل فى استطاعته ان يبرىء نفسه ؟

جاءت الانبياء ان المصطفى فربا حزنى وافئس جلدى ما الذى افعل يارب وهل كم اناس سيلحون غدا هل اجاريهم فأتى فندا وهنا اشتد صراع قائم عاملان اختلفا واصطنعا واخيرا كان عزمى اننى انا ان اكذب على خير السورى ربما يسخط على المصطفى	قد تولى قاتلا فى الموكب وخزات فى الضمير الذرب ينفع اليوم حديث الكذب فى اختلاق العذر عند الطلب ام لزوم الصدق اولى بالابى ؟ بين نفسى وضميرى الطيب حجبا توقد نار للشغب الزم الصدق ولو اوقع بى اعرض النفس لادهى عطب فأرأتى بين قوم خاسرين
--	--

ويتمادى فى القصة ، فما هو ذا النبى (ص) يعود الى المدينة ، ويأتيه المتخلفون معتذرين فيقبل منهم ، وكانوا بضعة وثمانين رجلا . اما هو فلا يجد ما يعتذر به ، انه آثر الصدق ولو شاء للفق الاعذار تلفيقا ، فانه كان ذا جلد . ولكنه ايضا كان ذا ضمير حى ، ويلومه اناس من قومه على انه لم يخرج من ذنبه بعذر يرضى فيستغفر له ، حتى بهم بمراجعة موقفه ، ولكنه حين يعلم ان صحابيين آخرين ممن شهد بدرا كانا على مثل حاله تطمئن نفسه ويزداد ثباتا

ويقع التعقيد فى القصة ، اذ يأمر النبى (ص) بمقاطعة كعب وصاحبيه ، فيتجنبهم الناس ، ويتغفرون لهم ، ويكون الامر اشد وقعاً على كعب من صاحبيه اللذين لزموا البيت ييكيان فلا يريان احدا ولا يراها احد ، وهو كان شابا نشيطا يغشى السوق ويأتى المسجد ، ولكنه لا يكله احد ولا يكاد يرد عليه السلام .

ويتازم الوضع بالنسبة الى كعب حين يضيق به الحال فيذهب الى ابن عم له يحاول ان يجد عنده سلوة فيعرض عنه ، واذا ياتيه رسول من ملك غسان يساومه على اخلاصه ، فلا يزيده ذلك الا ايمانا وثباتا .

ضاق ذرعى من جفاء دائم وتطلعت لان ينكثوا

طالما كان صديقي المسعفا
اننى ممن يحب المصطفى
قال الا الله ادرى وكفى
بعد ما قد كدت اقضى اسفا
ما يسلى ويتقضى التلغا
من بلاد الشام يأتى مطرغا
هم مشيرون له أن قد وفى
فتى غسان يحبوك الشفا
واترك الذل فما انت مهين

فتسورت جدارا لاخ
قلت ايه يا ابن عمى هل ترى
ثم كررت وعادت فما
وهنا فاضت دموعى حزنا
فدخلت السوق على ان ارى
غير انى لم اجد الا فتى
سائلا عنى قومى فاذا
فاتانى بكتاب انه من
فالتحق بالشام تدرك ما تشا

* * *

ان يظن القوم انى اغدر
ان هذا لبلاء اكبر
اذ هو بالتنور منى اجدر

ويح نفسى يبلغ الامر الى
كيف ادعى لابتىاعى ذمتى
فتميت به التنور اذ

واذ تبلغ مدة المقاطعة خمسين يوما يشتد فيها الامتحان حتى يأمر
النبي النفر الثلاثة باعترال نسايم فيطيعون ويمثلون ، يأتى النفر وتنزل
توبتهم من السماء وذلك ما تعبر عنه القصة فى هذا القسم .

من لدن ذى العرش فى الذكر الحكيم
به نفسى بعد ايام الجحيم
منزل التوبة من عند الكريم
فوق ظهر البيت قد كدت اهيم
رحبت من هول ذا الخطب الجسيم
خير خلق الله فى الجمع العظيم
يبتفون الفوز بالفضل العظيم
كعب : ابشر فلك المجد الصميم
غير ان السبق للصوت الرخيم
فهو بالشكران والحمد تميم

حبذا اليوم به البشرى وقت
انه اليوم الذى قد سعدت
حبذا فيه اصطباح انه
جانى فيه بشير وانا
بعد ما ضاقت بى الارض بما
ولقد اعلن عن توبتنا
فاعتدا الناس الينا سرعة
واعطى حمزة سلما صارخا
واستحث الشهم نحوى فرسا
انه اسرع فى تهنتسى

نكلمى بما ذكرنا من اقسام هذه القصة ، وهى فى الحقيقة قصة مؤثرة
تمثل امتحان الضمير الحى وخروجه من ذلك الامتحان معززا

منصورا ، ولو كان فن الشعر القصصى قد توطدت دعائمه عندنا لآخرج منها رائعة من روائع الادب الانسانى الرفيع ولكنها فى صياغتها الطبيعية التى اختارها لها الشاعر قد احتفظت بقيمتها الواقعية فكانت ابلغ تأثيرا واقوى تمثيلا لروح البطل الذى تدور عليه حوادثها مما يجعلها ادعى لاتخاذ القدوة وتحقيق الغاية التى رعى اليها الشاعر ، وبذلك فهم لم تقصر عن اى هدف نبيل يتوخاه مؤلف قصصى من عمله الادبى .

وننقل الكلمة الى الشعر التمثيلى فنجده اخصب حقلا واكثر انتاجا طبعيا للملاحظات التى قدمناها من ان الاقبال عليه كان مشجعا لتداوله والاستغفال به ، ولدينا منه اعمال ناضجة سنقتصر على اعطاء امثلة من بعضها نعملنا تكون فكرة عن مدى نجاح اصحابها فى ادخال هذا الفن القصرى الجديد الى ادبنا العربى مساهمة منهم فى المجهود العربى الهام الذى بذل ويبدل من اجل هذه الغاية .

والمثال الاول الذى سنقدمه بكامله تقريبا لنخلص من النظر فيه برأى صحيح عن المحاولة ، هو تمثيلية صغيرة لاحمد البقالى تحمل عنوان مصرع الخلخالى . والخلخالى هذا هو احد حكام مدينة اصيلة بلد الشاعر ، وكان مستبدا فى حكمه استذل اهل هذه المدينة حتى نفذ صبرهم فثاروا عليه وقتلوه .

وهذا نصه :

(يبدو الخلخالى فى بيته امام امرأة كبيرة ، وهو يلقط من لحيته شعرات بيضاء ويترنم) .

غنوا معى ، لانام من لسم يمتطى المجد الاثيلا
غنوا معى ، لاعز من لم ينتض السيف الصقيلا
نحن الالى ، فاشرب وغن لذكرنا دهرنا طويلا
قوم كآساد الثرى لا يعرفون المستحيلا
(يطرق الباب ويدخل غلامه الخاص قائلا :)

سبيلا

لم يجن منهم واحد ذنبا مهل الفيت فيهم فاسقا ضليلا
ماذا اذن صنعوا نحق عليهم منك العذاب اما اتوك فحولا
(يجلس الرجل فيتعطف العبد على سيده هامسا)

العبد — مولاي كلمهم فان الحقد يبدو في بريق عيونهم محولا
الخلخالى — صائحا في عبده —

— تربت يداك متى تكلمت الملوك باذن عبد لا ييل غليلا

العبد — مولاي معذرة لقد عودتني هذا فلم ار عبء ذاك ثقيلا
الخلخالى — ملتفتا الى رئيس القوم
مهلا لقد اغلظت ياعم

الرئيس — استمع للنصح يا ابن اخى ودع ذا القبلا

الخلخالى — اسكت

الرئيس — لتستمعن

الخلخالى — اسكت

الرئيس — ما انا بالساكت

الخلخالى — اغرب او تخر قتيلا

بعد هذه الثورة من الخلخالى يحاول القوم ان يسكنوا غضبه ويتشفعوا
له بكل مخرج من وسائل الشفاعة فلا يؤثر فيه شيء من ذلك ويسخر منهم
ويهددهم بالسجن والعذاب فيحتدم غيظهم ونهيج حميتهم ويهجمون عليه
محاولين الفتك به فينفر ويصعد الى اعلى بيته المطل على البحر فيلاحقونه
ويلجنونه الى ان يقذف بنفسه الى البحر وهذا ما يحكيه من امره بعد ذلك :

الخلخالى — واحمرناه الرتمي ؟

صوت — نعم ارم نفسك انتحر مت كالاباة نبيل

الخلخالى — لا . اختنى

الصوت — ها هم وراك يسمعونك للبنادق والسيوف صليلا

الخلخالى — (وهو يلقي بنفسه من اعلى البيت الى البحر)

رب ادرا الاعداء عنى واحمنى
 آه اموت لقد حكمت فلم اكن
 مالى اذا لم ترض عنى ملجأ
 ان لم يسعنى عفوك المنشود فى
 هيهات ان احيا الهى اين اين
 او هكذا يمضى التجبر تاركا
 آه اموت مرفقا مثلثولا
 عدلا فمت منكبا مخذولا
 آوى اليه مكرما مقبولا
 الدنيا فكيف اتقابل التهويلا
 الموت ؟ ادرا عنى التضليلا
 رمقا على قيد الحياة ضئيلا
 (تسمع جلبه وضوء) .

قد اقبلوا نحوى سراعا ليتهم ضلوا السبيل الى
 صوت —
 اذن قليلا
 الخلائى — قد اقبلو هيهات ان يترفتوا بى
 الصوت —
 هل سمعت ؟
 صوتا آخر —
 نعم سمعت عويلا
 القوم يعثرون على الخلائى وهو وجود بنفسه
 ها الظالم الجبار يلفظ نفسه رياه هل سقط العنيد قتيلا
 (ثم يجهزون عليه ويقول الرئيس) :

الرئيس — الله اكبر كبروا
 القوم — الله اكبر
 الرئيس —
 لا يزال مؤملا مسؤولا
 لاهم شكرا دائما شكرا لنعمك التى غمرت ربى وسهولا
 لاهم لا نرضى سواك محكما فنيا ولا نبغى سواك بديلا
 لا العزم توهمه الطفاقولا الحجبى توهمى المرامه حبله المفتولا
 (يخلو المكان ويسمع صوت هاتف)

باجثة كانت على عرش من الجبروت تجرى للدماء سيولا
 ذوقى عذاب الهون او فتبونى ظلا على جمر السعير ظليلا
 لم يغن عنك من المنية ما جمعت نمت الى سقر نؤم قتيلا
 ان قصة الخلائى على ما يروى اهل المدينة الصغيرة قصة واقعية ،

وقد جرت حوادثها في تاريخ غير بعيد ، ولكنها انما تناقلتها الرواة ولم تدون في كتاب ، وقد سمعها الشاعر الشاب من اشياخ مدينته وعجائزها غير ما مرة وبروايات مختلفة منذ كان طفلا صغيرا فوعاها وارتمست في ذهنه فما زال يتمخض بها حتى اداها اليها هذا الاداء الجميل فكتب لها البقاء على احسن صورة . وكم من قصص شعبي وروايات يتناقلها الناس على احداث تاريخية لو تفيض لها من يسجلها بهذه الطريقة او غيرها لاغنت تراثنا الادبي واعانت على تدوين تاريخنا الفكري والسياسي .

وقد احسن الشاعر في اختيار القالب التمثيلي لاداء هذه القصة ، لانه يجسم ما نحويه من معاني الثورة على الظلم والاستبداد ومصير الحكام الجائرين والطغاة المنجبرين ، فان العبرة بالتمثيل تكون اقوى مفعولا لتعاون السمع والبصر فيه على احداث الاثر المطلوب . واذا كان العرب يحتفلون بنبوغ الشاعر منهم اكثر من احتفالهم بالفارس الشجاع لانهم يعدونه لسانا يحى اعراضهم ويخلد مآثرهم ، فحق لاصيلا ان تحتفل بشاعرها الشاب الذي لم يسجل هذه القصة من قصص بطولتها باهون سبيل بل اختار لها وسيلة الشعر التمثيلي ليخلدها على الصعيد الادبي والفني معا

ونحن لا نعرف اصل الحكاية التي يرويها بها الاصيليون ، فلذلك لا يمكننا ان نحكم على محتوى التمثيلية ومبلغ ما فيه من تزييد او مطابقة للواقع التاريخي ، ولكننا لا نشك في ان بعض الالتفاتات الفنية هي من اضافة الشاعر لان طبيعة العمل الادبي يقتضيها كحركة العبد في اجلاس الوفد وصوت الهاتف الذي يسمع بعد اخماد انفاس الظالم وغير ذلك . على ان في القسم الذي حذناه اختصارا بعض ملامح من الحياة الاجتماعية المحلية لمدينة اصيلا ، وقد صورها الشاعر فاضى عليها ظلالات من «السريلية» او ما فوق الواقعية ، فكان ذلك من زيادته على اصل الحكاية ، ولكنه ليس من الصدق الفني المستحسن في هذا المقام

واما اسلوب الاداء فان المؤلف بعد ان فضل الشعر على النثر ، زاد فالقزم بحرا واحدا من بحور الشعر الستة عشر كلها ، فضيق على نفسه واسعا . ولو شاء لتنقل بين البحور الشعرية العديدة ، ولا سيما هذه البحور

السريعة الخفيفة المطواع مثل الرمل والخفيف والسريع كما يفعل غيره من الذين وضعوا تمثيلات شعرية . وذلك مما يكسب العمل الشعري الطويل ترفا فنيا ويجعله أكثر ملاءمة لتنوع المناظر واختلاف المواقف . بل انه التزام فوق ذلك قافية واحدة هي قافية اللام المدونة في جميع التمثيلية ، ومن غير شك ان ذلك الجاه الى استعمال بعض الكلمات او العبارات الاضطرارية . وكأنه كان يجرب مقدرته على النظم في نطاق واسع مع هذه القيود فلم يتساهل في الأمر حتى أوفى على غايته . والذي جراه على ذلك فيما نرى هو أن التمثيلية قصيرة لا توقع ناظرا أو قارنا في سأم ، فلم يشعر بحاجة الى تنويع صور الأداء ، وهو في الواقع لم يخل في التزامه هذا بشيء مما يفرضه عليه العمل الفني . وذلك نجاح كبير .

وإذا كان الشاعر البقالي قد استوحى تمثيلية من تاريخ بلده القديم ، فان شاعرا آخر هو أبو بكر اللمتوني قد استوحى التاريخ المغربي الحديث لنظم تمثيلية رائعة باسم (بقتيت وحدى) هي المثال الثاني الذي نقدمه فيما يلي :

ان ثورة الملك والشعب على الاستعمار 1953 التي انتهت كما هو معلوم بتحطيم الديبة التي اجلسوها على العرش وعودة الملك الشرعى واستقلال البلاد ، كانت حدثا عظيما في تاريخنا القومي الحديث ، وهي تحفل بأمثلة من الوقائع الخالدة والكفاح البطولى من اجل استرجاع السيادة الوطنية والحرية المفضوبة يقل نظيرها ويحق بها الاعتزاز ، ومنها استمد شاعرنا موضوع تمثيلته بقتيت وحدى وهو يلخص في هذا العنوان المعبر حوادث التمثيلية التي عزلت الملك المفروض على الشعب محمد بن عرفة وجعلت الناس يتحامونه حتى المستعمرون واذئابهم الذين غرروا به واوقعوه في المحذور نصار يندب حظه ويقول بقتيت وحدى ولا معين .

والتمثيلية عمل كامل في اربعة فصول محكمة النسيج مئينة الاسلوب اطلق الشاعر لنفسه فيها عنان الخيال فأغناها بالصور والمحاورات المحزنة والمضحكة فيمكن لذلك ان نعدها من قبل الملهاة ولا نرى في الحكم عليها احسن من تقديم نماذج منها تظهرنا على مدى توفيق الشاعر في هذا الفن الجديد .

فمن الفصل الاول ، من محاوره بين عرفة وابنته سلمى ، وهى فتاة
في الخامسة عشرة :

سلمى — سمعت يا ابى جموعا خلقتها رعدا هدر
كانهم صاعقة ليس لها من مستقر
قد اقبلوا من الشعاب كالجراد المنتشر
من الجبال والسهول والبوادي والحضر
وهم يصيحون صياح الاسد حين تثتر
الموت للخانة ليس لهم منا منر
المس بابتن يوسف جريمة لا تغتفر
هو المليك ان نأى وهو المليك ان حضر
سنتقطع اليد التى مدت اليه بالضرر
ثم يقولون .. الهى ، ليت سمى قد وقر

عرفة — ماذا يقولون ؟

سلمى —

انطقى —

عرفة الى سقر —

عرفة الى الجنان لا الى جهنم —

الى العروش والكنوز والعلى والنعم
ابوك بوبع مليكا بالكعاع فاندمنى
والتمسى الخفران من والدك المحترم
بل من امر المؤمنين الملك المعظم

سلمى — ابى لئن غفرت ما غفرت ما بقى من كلمى
بويعت يا ابى على من ؟ استجب تكلم

مرة — على .. على .. على .. على

(مشيرا الى الجبال والهضاب البادية من النافذة)

هذى الربى والقمم

سلمى — ان بكل ريوۃ مقتعدا من ضرر
وملء كل قمة مرتصد من نقم
قد نذر الشعب : ابن يوسف الوفي بالدم

عرفة — الشعب ، لن اسمع هذا اللفظ من ذاك الفم
الشعب ان لم يرضنى ادوسه بتقديمى

سلمى — اهلا بنيرون الجديد ومرحبا بخليفة الحجاج والسفاح
ابتاح وطء العمالين لارجل وطء الطريق لمن غير متاح
تالله ما وطء الرقاب ببالح ما يبلغ الاخلاص والايثار

عرفة — لا تستغلى فلتة افلتها ان اللسان بطبعه عثار
سأكون يا سلمى مليكا مخلصا يخنو على اوطانه ويغار

سلمى — هلا اقلت الشعب من غمراته فرحمته وتركته يختار
هرفة — يختار غيرى ؟

سلمى — ان ذلك شأنه

عرفة — انى لغيرى عزمى الجبار

سلمى — سأقيم للاسلام فى هذا الحمى ركذا يكاد بناؤه ينهار
عجبا يحامى عن حقيقة دينه ملك يؤيد ملكه الكفار

ان فى هذه المحاوره اكثر من دلالة على القيمة الفنية لعمل اللمتونى
فى تمثيلية بقيت وحدى . ان فظاعة الجرم الذى ارتكبه عرمة تد ادركها كل
الناس واستنكرتها حتى ابنته المحجبة فى داخل بيته والبراعة التى صور
الشاعر بها قلق الابنة على ابيها واشفاقها على مصره ، لا يوازيها الا
براعته فى تصوير هرفة وهو يحلم بالعرش والملك والنعم ، فاذا اتاق من
حلمه واصطدم بالواقع المر تلجلج لسانه فلم يجد ما يعبر به الا ان يلغى
بنظرة اسيفة الى الافق البعيد ولا نحتاج ان نشير الى لزع من الشعب
ومغزى ذلك . وهذه السخرية المرة التى تعبر عنها ابنته بقولها ابتاح

وطء العالمين لارجل لا تستطيع وطء الطريق ؟ وقولها عجباً كيف يحمى
حقيقة الدين ملك يؤيد ملكه الكفار ؟ ان ذلك كله من الكلم المعبر المشحون
بطاقات الفن والشاعرية .

وهذه صورة هجوم علال بن عبد الله على ابن عرفة عند بروزه
لصلاة الجمعة ، والحديث يجرى بين مطربين سيقوا الى القصر لتسلية
الملك المزعوم وهو من الفصل الاول ايضا :

— ماذا وراك ؟

— امة محمومة ودم زكى فى الشوارع يهدر
وابو المناخس فى طريق رجوعه مثل الجزور مخرجاً ينتظر

— ماذا تقول ؟

— مخرف ؟

— او ناقل رب امرئ سمع الكلام فقالا

— بل شاهد

— ماذا شهدت الا تكون مازحا

— لا تـوسـمـوه خبالا

— من اين جئت ؟

— من الملى مكرها حملتنى الاجناد منه غيالا
زعموا وجود المطربين نجموا كالبعث حشدا والمجرة آلا
متباشرين بببيعة ميمونة كالشمس يغمر نورها الاجيالا
يتربعون ليستهلوا حلهم نغمى الجميل وصوتى الصلالا

— دع عنك هذا واحك ما شاهدته

— اجلس

— تعال هنا

تبرا وقلت الحاضرين ثكالى
والدور من أحزانها اطلالا
كتل الانام وزلزلت زلزالا
وسمعت ايعاد الملا يتوالى

رباه . عزل بطلبون نزالا
اشعالهم ام زادهم اشعالا
يطأ القتيل ويرفس المفتالا
رملوا كم يتموا اطفالا
ام كان يمشى زاهيا مختالا
وكانما هو حامل اثقالا
ثارت عليه نسوة ورجالا
شباك باب السجن والاقفالا
شمطاء تنهج كبرة وكلالا
لبلائها او تستجد سوالا
في كرتين فتستحيل غزالا
مثل الجراد تسابق الاجالا
بذ الرجال شجاعة ونضالا
وانقض مها واستوى رببالا
قلبا اثم ومديّة تنلالا
من تحته رجل الحصان نزالا
ام دق منه سقوطه الاوصالا
فوق التراب يوسد الاوحالا

مثل الباب اذلة انذالا
وسط الكلاب فاصبحوا ابطالا
خير الكماة وصاولوه صبالا

كان المصلى موحشا فحسبته
وظننت قصف القاصفين مناحة
واطل ركب السوء فاهتزت له
فرايت اكوام الحجارة ترمى
والشعب يبرز للجنود منددا

والجند هل ترك الغضابي حاذرا
بل كان يفتال البريء وينثنى
كم امهات اثكلوا كم بانسات
والعامل المزعوم كان مروعا
بل كان يمشى كالسلحفي زاحفا
مطلقا يخشى بؤادر امة
نحكي حراب الجند حول حصانه
واذا على بعد المدى سيارة
حتى دنت لا تستثير تطلعا
واذا العجوز تحت باتى عمرها
تطير الاجناد حول مدارها
ثم استطار دخانها عن اغلب
انساق برقا واستقر قديفة
ومضى الى الملك المجلس حاملا
فارتاع سلطان الدمى وتخلخلت
— هل مات منتصبا واهوى جثة —
— ما مات منتصبا وعاش مرغا —
— وعن الفتى —

— دار الجنود على الفتى —
— خزيالهم نسر هوى من علوه —
— اسروه ام قتلوه ؟ —
— بل حشدوا له —

وسقوه كأسا للنفية خلنها
سقط الشهيد د ضحية وكأنه
— واسم المفدى أهـل تعرفت اسمه
— سماء لى أصحابه عللا

انها صورة للمشهد التاريخى وحادثة الفداء الاولى التى قام بها ذلك
البطل الخالد ، اثر وقوع كارثة ابعاد الملك الشرعى عن البلاد وتنصيب
الجمية الاستعمارية على العرش ، وظن المستعمرين ان الجو قد خلا لهم
وانهم قد ضربوا الضربة القاضية على الحركة الوطنية وما كانت تحلم به من
بعث الدولة المغربية واحياء مجد البلاد بعد استعادة حريتها واستقلالها .
ولئن كان الشاعر قد مهد للصورة بما هو من قبيل الهواجس التى ساورت
افكار المواطنين كثيرا منذ تلك الصدمة المؤلمة ، فانه قد توخى الحقيقة الكاملة
عند عرضها ولم يتزيد فيها بكلمة ولا حرف ، وبذلك كان واقعيا فى تسجيل
هذا الموقف التاريخى وتجليه منظره للصوم واى حاجة به الى التزيد
والموقف فى روعته وجلاله غنى عن كل تلوين ، بل ان الشاعر مهما اوتى
من الفصاحة والبيان لا يبلغ ان يحدث فى النفوس ما يحدثه مطلق وصفه
من الاثر العميق . وكانى به قد اخذ بتاثير الحادثة التى كانت بردا وسلاما
على القلوب ، فاندفع فى وصفها متدفق الخاطر فلم يشعر بالحاجة الى
تبديل الوزن ولا حرف الروى الذى نظم عليه وان طال ذلك النظم واوشك
ان يوقعه فى الاغراب .

ونموذج آخر من الفصل الثامن، نختم به ، هو منظر لاجتماع بين المقيم
الفرنسى وابن عرفة .

المقيم — ملك الملوك لقد وجدنا حيلة
نضع الجنود ظهورهم لظهورهم
فتبر من بين الظهور محصنا
عرفة — مسيو المواسى حيلتى الا ارى
المقيم — والشعب ؟
عرفة — اقبل ثبوته وولاءه
فيها نجاتك من رصاص الراسى
وتكون اوجههم الى الاقوام
وتعمود غير مكرم اودام
لى حيلة الا لزوم مقامى
عنى وبلغه جميل سلامى

او لم يثر اشتقاق قلبك انتنى
 لم يبق لى قلب يطير وعورت
 المقيم — د ع عنك اقوال العجائز انما
 انا سنعللى بيعة بويعتها
 عرفة — كيف السبيل الى تلافى فتنة
 او كيف يرضى المسلمون ببيعة
 غررتمو بى وانتهمزتم كبرتى
 افرطت فى الاحلام حتى ساعى
 المقيم — لا تصدق مقالة الاوغاد
 عرفة — امن الانك اشل صرعتنى
 لم يزل ظفرها يزلزل احلامى وتزآرها يروع بالى
 انا لو كنت فى مكانك ما كبرت فى الواضحات يا جنرالى

المقيم — يا مالكا لقيت ما
 ولم ازل منابرا
 المرء لا يجيز بالجدد
 ولا يثبط الذى
 لقيت من بيعة
 اكثر من شيعته
 على نصرته
 يجد فى خدمته

عرفة — يا بادعا لقيت ما
 المرء لا يكذب المر
 الشعب قد سخطنى
 امعن فى اضرايه
 وليس من مذبذب
 غير ضعيف خائف
 فطعم الهلاك قبل مفتدى لقمته
 فهل نقول كساذب الميت فى ميته
 وكم املم لم يفقه باسى فى خطبته
 حتى اتاه واند الهلاك فى جمته
 وكم معمر حكى قارون فى ثورته

حصده الموت — مع الحصيد في ضيعته
هم جنة الله — لا تمار في قدرته

المقيم —

آمنت بالله وبالفتية — من جنته
لكننى المقيم لا يرجع في كلمته
قد خاب ما آمله — فاصبر على خيته
وخله يلتمس — المخرج من ورطته
لست اقل رافة — بالشعب من جلده

عرفة —

ان كان يعنك — نجاة الشعب من فتنه
فهاك وصفة طبيب صاب في وصفته

المقيم —

قلها فلست بالذى — يشك فى نيته

عرفة —

عالجه بابن يوسف — يبيل من علته

المقيم —

وانت ؟

عرفة —

دع عرمة — يخط فى ظلمته
فلست اول امرى — أصيب من نهمة
وقد يحلل الاله العبد من زلته
ان عظم الذنب فلا — اعظم من رحمة
استغفر الشعب ولا — اطمع فى رده
لكننى اعوذ بالر — حم من نقمته
استغفر ابن العم — ما جنيت فى دولته
ان خنته فقد كشفت عن شذا سمعته
وعن سخاء شعبه — بالروح فى غدوته
دعنى دع عرمة — يهيم فى غربته
دعه يهاجر الى المجهول من هجرته
كالطائر الذى مئى — بالخلف فى أسرته
فدبى ماواه وغولسب على ايكه
انا ابن آدم ابى اخرج من جنته

الاختصار لهذا القسم يذهب رونقه فلذلك اوردناه بطوله ، وبعد ان

اعطينا مثالا مما اجراه الشاعر من محادثة بين الملك المصنوع وابنته ، ومثالا من حوادث الثورة والفداء التى قابل بها الشعب الجريمة السياسية الفكراء ، لم نر بدا من ان نعطى مثالا للعلاقة بين ابن عرفة والفرنسيين وكيف صورها الشاعر ، لنستوفى بذلك التقديم الذى يسوغ معه الحكم على التمثيلية ووضعها فى المقام اللائق بها بين الاعمال الادبية التى من هذا القبيل .

والمثال كما نرى يزخر بالمعاني والابخلة الشعرية الجميلة وبالنكت والعبارات الساخرة فضلا عن انسجابه وجمال اسلوبه . وقارن ان شئت بين حيلة التميم التى دبرها لحماية الدمية من هجوم الشعب بسبب حرصه على بروزها وشهود الاحتفالات الرسمية مع مخاطبته لها بملك الملوك للتفريز والخداع وبين الحيلة التى دبرتها الدمية ولم تبغ بها بديلا للنجاة بنفسها من انتقام الشعب مع مخاطبتها للمقيم بمسيو المواسى . فان ذلك كله من البأس الواقع حلة البيان الرائع والخيال المبدع مع تطريزها بالنكت الهزلية التى تزيدها حلوة وقبولا ، وقول ابن عرفة للمقيم لما ذكره بالشعب : اقبل ولاءه وشوقه نيابة عنى ويلفه ازكى سلامى هو من صور السخرية التى لا كفاء لها فى الحسن . والحديث كله مما عرض عرضا لبقا ونكيا فلم يبدع فكرة سياسية الا لمح اليها ولا عقيدة وطنية لم يحصب لها حسابها ، فبينما نرى التميم يناور ويداور ليوقع الصيد فى الشبكة نرى الضحية يدافع ويعارض بما هو اقوى حجة واقوم سبيلا ، فاذا قال له المقيم اننا سنؤيد بيعتك ونعطى شأنها اجابه بقوله : كيف يرضى المسلمون بيعة يرون نبذها من تمام اسلامهم واذا قال له عاتبا وقد راي تصميمه على عدم الاستمرار فى التجربة الفاشلة :

المرة لا يجيز بالجحد على نصرته

• قال له مبادها بحقيقة الواقع :

المرة لا يكذب المرئى من رؤيته

الى آخر ما فى ذلك الحوار من حقائق وآراء صائبة مع ما يلبسها اياه احيانا من لباس الهزء والسخرية كقوله على لسان ابن عرفة فى الفدائيين :

هم جنّة الله فلا تمار فى قدرته

وما أجابه المقيم :

لكننى المقيم لا يرجع فى كلمته

وقوله فيما عرضه ابن عرفة لعلاج الموقف من ارجاح ابن يوسف الى
عرشه واجفال المقيم من ذلك . واما قول ابن عرفة :

استغفر الثمب ولا اطمع فى رنته

فهو من عيون الابيات فى هذا الحوار . وكذا قوله :

انا ابن آدم . . أبى اخرج من جنته

فهو أيضا من الروائع التى بلغت الغاية فى تسلية النفس والاعتذار
من الخطأ الذى ارتكبه هذا الرجل الذى هو ليس اول الخاطئين ولا آخرهم .

* * *

•

فهرس

صفحة

11 — 5

بين يدي الكتاب

16 — 13

مقدمة

- ☐ الادب المغربى الحديث غير مدون ولا مدروس
- ☐ الطريقة التى اتبعت فى هذه المحاضرات .
- ☐ العناية بالنشاط الفكرى وحركة البحث والنشر
- ☐ مخطط للحياة الادبية فى المغرب الحديث يهدف الى التعريف والتاريخ

37 — 17

على عتبة العصر الحديث

- ☐ المغرب لم يشهد اى تحول فكرى فى منتصف القرن التاسع عشر واولئل القرن العشرين .
- ☐ العزلة التى ضربت على المغرب جعلته بعيدا عن التأثير بالشرق والغرب على السواء .
- ☐ محاولات للبعث والتجديد فى ميدان السياسة والادارة
- ☐ البعث العلمية وانشاء الطباعة
- ☐ المطالبة بالدستور .
- ☐ النشاط الفكرى والادبى
- ☐ اعمال ادبية نظرية من باب الرسالة والمقامة والتأليف بطريقة النشر الفنى .
- ☐ اعمال ادبية شعرية فى اغراض السياسة الوطنية وموضوعات اخرى

فجر النهضة

- ☐ عوامل النهضة الجديدة .
- ☐ التعليم الحديث .
- ☐ الإصلاح الدينى
- ☐ النهضة الشرقية .
- ☐ الحماية مقدماتها ونتائجها
- ☐ شمار هذه الفترة كان هو العلم
- ☐ التحول الفكرى الذى ظهر فى الاعمال العلمية والادبية
- ☐ حركة التأليف والنشر .
- ☐ نماذج من الفكر العلمى والفنى والكتابة السياسية
- ☐ ظهور فن المقالة
- ☐ الخطابة سياسية واجتماعية

فجر النهضة (2)

- ☐ تطور الشعر فى هذا العهد .
- ☐ تماثل الاعمال الادبية فى العالم العربى من تماثل اسباب النهضة ولا يعنى اى مفهوم تقليدى .
- ☐ الشعر السياسى والوطنى
- ☐ الشعر الاجتماعى
- ☐ اغراض الشعر الاخرى

الجيل الجديد

- ☐ التيارات المذهبية والسياسية التى اوقفت المد الاستعمارى فى العالم .
- ☐ ظهور الحركة الوطنية بمظهر المقاوم الجاد
- ☐ السياسة البربرية واثرها فى توحيد صف الشعب المغربى

- ☐ عيد العرش
- ☐ مطالب الشعب المغربي
- ☐ الحركة الفكرية تساوق العمل السياسى
- ☐ الصحافة وما كان لها من اثر فى بعث الادب المغربى
- ☐ الادب المغربى جزء لا يتجزأ من الادب العربى .
- ☐ هل نخضع ادبنا لمقاييس النقد ومدارس الادب الغربية ؟
- ☐ النشاط الفكرى لادباء الجيل الجديد

النثر واتجاهاته الجديدة 97 — 123

- ☐ حصيلة ادبية طائفة :
- ☐ استيعاب الموضوعات والاشكال الكلامية الجديدة
- ☐ ازدهار الخطابة السياسية والاجتماعية .
- ☐ نمونن المقالة وتطوره العظيم .

القصة والمسرحية 124 — 145

- ☐ محاولات اولى فى الرواية والمسرحية
- ☐ الانتاج فى الاقصوصة كان اكثر
- ☐ النزعة الواقعية ابرز من غيرها فى هذا الانتاج
- ☐ الالتزام والرمزية .
- ☐ نماذج من الاقصوصة والمسرحية .

الشعر واتجاهاته الجديدة 146 — 181

- ☐ الشعر اكثر الفنون الادبية تقيدا واكثرها تحملا
- ☐ المجالات الجديدة التى اقتحمها الشعر المغربى الحديث
- ☐ الشعر الوطنى
- ☐ تحرير المرأة .

- ☐ وصف الطبيعة .
- ☐ الشعر العاطفى .
- ☐ الشعر الاجتماعى .
- ☐ الشعر الحر .
- ☐ الشعر المنثور

182 — 202

الشعر القصصى والتمثلى

- ☐ ظاهرة قلة الشعر القصصى فى الشعر العربى الحديث عامة .
- ☐ نمو الشعر التمثلى واسبابه .
- ☐ نموذج من الشعر القصصى .
- ☐ نموذج من تمثيلية شعرية تاريخية
- ☐ نموذج من تمثيلية شعرية معاصرة

صدر عن دار الثقافة

- الخوارج في بلاد المغرب د . محمود اسماعيل
- التراجيديا كتمولوج د . حسن التيمسي
- الشعر الوطني المغربي في عهد النضال د . ابراهيم المولاي
- الامير الشاعر ابو الربيع سليمان الموحدي د . عباس الجراري
- من ادب الدعوة الاسلامي د . عيسى الجراري
- الروايات التاريخية في تأسيس مجتمعات ولغات د . امير المصطفى
- دفن الماضي : الاستاذ عبد الكريم غلاب
- روضة التعريف بالحب الشريف بطلان د . امير المصطفى
- الحضارة المغربية عبر التاريخ الاستاذ حسن السليح
- مناهج البحث في اللغة د . تمام حسان
- المعصية والدولة د . محمد عابد الجابري
- في الشعر السياسي د . عباس الجراري
- الثقافة والفكر في مواجهة التحدي الاستاذ عبد الكريم غلاب
- رفقة السلاح والقمر (الجائزة الاولى للمجمع اللغوي - القاهرة 1975) الاستاذ مبارك ربيع
- صفحات دراسية من القديم والحديث د . عيسى الجراري
- وحدة المغرب المذهبية ، خلال التاريخ د . عباس الجراري
- في ظلال العقيدة د . عبد الهادي النازي
- التنظيم الجماعي الجديد د . انور احمد رسلان
- قراءات في ادب الصباغ الاستاذ عبد المولى الوديعي
- النضال في الشعر العربي بالمغرب د . عباس الجراري

طبعة النجاة الجديدة
الدار البيضاء

الايداع القانوني رقم 1984/546